

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

السنة السادسة عشرة — المجموعة الثانية

رجب ١٣٨٩ — سبتمبر ١٩٦٩ — العدد ٥٩

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ

«قرآن كريم»

بسم الله الرحمن الرحيم



كلمة التحرير

بعون الله تعالى وتوفيقه تعود « رسالة الإسلام » إلى قرائها الأفاضل بعد فترة غياب مهما قلت فقد نعدها ويعدونها طويلة ، وإذا كانت الحوائل قد حالت بيننا وبين قرائنا هذه الفترة فما كانت هذه الحوائل لتلهينا عن دعوة الإصلاح والخير : دعوة التقريب التي بذلنا لها جهودنا وأصدرنا من أجلها مجلتنا .

إنها الدعوة إلى أخوة الإسلام التي بها وحدها تكون عزة المسلمين ، والتي بها وحدها ترتفع أعلامهم وتعلو كلمتهم ، إنها دعوة المسلمين إلى نبذ الأحقاد والخصومات التي عصفت بمجدهم ، ومكنت منهم عدوهم دون سبب لذلك إلا سبب من سوء الفهم وسوء الظن ونقص المعرفة .

وهي الدعوة التي ملأت قلب كل مسلم غيور ، وشغلت بال كل مؤمن بصير ، فإنك لن ترى واحداً من هؤلاء لا يؤرقه اختلاف المسلمين ، ولا تضنيه فرقتهم ، ولا يزعجه ما يكون بينهم من تقاطع وتدابر .

ومن أجل هذه الدعوة تتابع « رسالة الإسلام » سيرها على المنهج الذي ألفه قراؤها لنصل بحول الله ومشيئته إلى الغاية التي يرجوها المصلحون ، وإنها لغاية من أسمى الغايات التي يعمل لها أهل الإيمان ، وأصحاب العلم والرأي في كل دار من ديار المسلمين .

« وإذا كانت الدعوات تشرف بشرف أهدافها ، وتسمو بسمو غاياتها ، فإن لدعوة التقريب أن تقتعد أسمى مكانة في تاريخ الإصلاح الإسلامي قديمه وحديثه ، ذلك بأنها دعوة إلهية : الله هو الذي ثبت أساسها ، ورسم نهجها ، ووجه الرجاء إلى اجتناء ثمارها . كل ذلك في آية واحدة من كتابه العزيز إذ يقول : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

ولقد كان من المقرر ألا تطول فترة غياب هذا العدد إلى هذا التاريخ ، ولكن وفاة المغفور له الأستاذ الكبير الشيخ محمد محمد المدنى رئيس التحرير كانت مما أبطأ به عما قدرنا ، فقد كانت وفاته بالنسبة إلينا حدثاً أليما دميت له قلوبنا كما دميت قلوب المخلصين من العلماء ، واهتزت له مشاعرنا كما اهتزت مشاعر القائمين بدعوات الإصلاح فى بلاد المسلمين . فإنه رحمه الله كان علما من أعلام الفكر الإسلامى المعاصر ، متحرراً من قيود التعصب وأغلال التقليد مع الحفاظ على جوهر الشريعة وسلامة العقيدة ، وما يجعله مذكورا فى المصلحين الموفقين كلما ذكرت الدعوة وذكر الدعاة .

وإذا كان من دواعى الأسف أن يصدر هذا العدد وقد فقدنا أخانا الذى كان لساننا المعبر ، وعقلنا المدبر ، فإن من دواعى الأسى والحسرة كذلك أن يصدر وقد أصاب المسجد الأقصى ما أصابه على أيدى قوى الشر والفساد ، فالمسجد الأقصى هو قبلتنا الأولى ، وإليه تتجه قلوبنا وأرواحنا كما تتجه إلى البيت الحرام ومسجد المصطفى عليه الصلاة والسلام . وهذا الحريق الذى دبر له هو ابتلاء لكل مسلم . ولعل هذا الذى حدث يكون سبباً يؤلف بين قلوب المسلمين ، ويجمع كلمتهم وينسيهم ما كان بينهم من الخلاف والفرقة ، فما أصاب المسلمين ما أصابهم إلا بعد أن مزقتهم البغضاء والعداوات ، وما كان خصمهم ليجترىء عليهم لولا ثقته بتفرقهم .

إن العالم اليوم مادى ليس للمثل فيه قيمة ، ولا لأخلاق الشرف والعدل وزن ، ولا للقوة ضمير يردعها عن ظلم أو يحول بينها وبين ما ترتكب من فساد ، وهى فى سبيل ذلك تستبيح كل وسيلة وتحاول إدراك أغراضها دون حدود ما وجدت إلى ذلك الطريق ، فإذا لم يستيقظ المسلمون ويتنبهوا إلى هذه الحقائق ، وينظموا شئونهم على أساسها ، مجتمعين غير متفرقين ، فسيكونون - والعياذ بالله تعالى - طعماً سائغاً لنيران حامية يوقدها عليهم أعداؤهم المتحالفون عليهم ، ولن تنفعهم يومئذ أرحامهم .

هذا صوت الحق تعلنه « رسالة الإسلام » ويردده المصلحون فى كل زمان ومكان . والله المستعان وعليه التكلان ؟

رئيس التحرير

على الجندى

تفسير القرآن الكريم

مقال التفسير هذا مما كان قد أعده الأستاذ الكبير المرحوم الشيخ محمد محمد المدنى لمجلة رسالة الإسلام وهو رئيس تحريرها ، وقراء المجلة ورواد العلم وطلابه يعرفونه رحمه الله بآثاره التى قدمها لهم فى صور متعددة من المقالات والأبحاث والكتب ، مطولة وموجزة . وإذا كنا بالنشر نلبى رغبة كانت عنده فإنما نقصد كذلك إلى تجلية خصائص أسلوبه فى عمق الفكرة واستقلال الرأى ودقة النظر .

ونرجو أن نوافى السادة القراء تباعا بما لدينا من آثاره القيمة ، عرفاناً بفضله وعلمه ، إن شاء الله تعالى . [المحرر]

سورة الأنعام

والأهداف الأولى للإسلام

— ١ —

متى نزلت سورة الأنعام ـ نزولها بمكة جملة واحدة ـ معنى قولهم : (نزلت الآية فى كذا) وقوع كثير من الاضطراب فى إلحاق المدنى بالمكى وعكسه ـ أخطاء وقعت فيها لجنة الإشراف على طبع المصحف الفؤادى ـ تحقيق أن الآيات التسع التى استثنوها من سورة الأنعام مكية ـ لم سميت السورة بسورة الأنعام ـ الفترة التى نزلت فيها هذه السورة كانت فترة نضال فكرى عنيف بين الإسلام والشرك ـ سورة الأنعام مظهر كامل لهذا النضال .

**

متى نزلت سورة الأنعام :

« سورة الأنعام » أول سورة مكية من السور الطوال فى ترتيب المصحف ، أما فى ترتيب النزول فقد قالوا : إنها السورة السادسة والخمسون ، وقد نزل قبلها مباشرة عدة سور تلتقى معها فى كثير من أغراضها وأسلوبها ، وأقرب هذه السور إليها نزولا هى سورة : « الحجر » .

وقد يدلنا ذلك على أن سورة الأنعام نزلت فى السنة الرابعة من البعثة ، إذ أن سورة الحجر التى نزلت قبلها مباشرة تشتمل على آية معروفة التاريخ ، هى قوله تعالى خطابا لنبيه الكريم : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » يقول ابن إسحاق صاحب السيرة : « ثم إن الله عز وجل أمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، أن يصدع بما جاءه منه ، وأن يبادئ الناس بأمره ، وأن يدعو إليه ، وكان بين ما أخفى رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم أمْرَه واستسرّ به ، إلى أن أمره الله بإظهاره ثلاثُ سنين ـ فيما بلغنى ـ من مبعثه ، ثم قال له : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » اهـ كلام ابن إسحاق ـ فإذا انضم إلى هذا ما هو معروف من أن الوحى كان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى هذه الفترة متتابعاً ، أمكننا أن نرجح أنه لم يقع فاصل زمنى طويل بين نزول سورة « الحجر » ونزول سورة « الأنعام » ، وأنهما نزلتا فى السنة الرابعة .

وإنما اهتممنا ببيان ذلك واستخرجنا دليله ، لأنه يفيدنا فى معرفة الجو الذى نزلت فيه هذه السورة ، ومعرفة ذلك تفسر لنا عنايتها بما عنيت به من الأغراض .

نزولها بمكة جملة واحدة :

وقد اختُلف فى نزول هذه السورة : هل نزلت جملة واحده ، أو نزلت مفرقة ؟ وهل كان نزولها كلها بمكة ، أو نزل بعض آياتها بالمدينة ؟ ثم الذين قالوا بنزول بعض آياتها بالمدينة قد اختلفوا فى تحديد هذه الآيات على أقوال شتى ، والصحيح من هذا كله أنها نزلت كلها بمكة جملة واحدة ، وعليه أكثر المحققين من المفسرين ، وقد أورد ابن كثير فى تفسيره الروايات التى تثبت ذلك ، وأعرض عما سواها ، وابن كثير حافظ نقادة من الذين يعرفون كيف يتخيرون .

معنى قولهم : « نزلت الآية فى كذا » ووقوع كثير من الاضطراب فى إلحاق المدنى بالمكى وعكسه :

والسبب فى وقوع هذا الاختلاف تعارض الروايات فى هذا الشأن ، واختلاف مناهج الترجيح ؛ وينبغى أن يعلم أن ما ذكر فى أسباب النزول ، وفى إلحاق آيات مكية بسورة مدنية ، أو آيات مدنية بسورة مكية ؛ قد داخله كثير

مما يُحدث الاشتباه ويوجب الدقة والحذر فى القبول ، وقد نبه إلى ذلك أهل هذا العلم ، انظر ما نقله السيوطى فى الإتقان عن ابن تيمية والزركشى ، وخلاصته : أن قولهم : نزلت هذه الآية فى كذا ، يراد به أحياناً سبب النزول ، وأحياناً أن حكم الآية يشمله وإن لم يكن هو السبب ، فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية ، لا من جنس النقل لما وقع ، وقد تنازع العلماء فى قول الصحابى نزلت هذه الآية فى كذا : هل يُجرى مُجرى المسند كما لو ذكر السبب الذى أنزلت لأجله ، أو يُجرى مُجرى التفسير منه الذى ليس بمسند ، فالبخارى يدخله فى المسند ، وغيره لا يدخله فيه ، وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح . اه

واقرأ ما نقله السيوطى أيضاً عن ابن الحصار حيث يقول : « كل نوع من المكى والمدنى منه آيات مستثناة ، إلا أن من الناس من اعتمد فى الاستثناء على الاجتهاد . وقد استُثنى من سورة الأنعام تسع آيات ـ ولا يصح به نقل ، خصوصا قد ورد أنها نزلت جملة » اه كلام ابن الحصار .

أخطاء وقعت فيها لجنة الإشراف على طبع المصحف الفؤادى :

وقد اقتحمت اللجنة التى أشرفت على طبع المصحف الفؤادى المتداول ميداناً ما كان لها أن تقتحمه ، ذلك أنها عنيت بأن تنبه بين يدى كل سورة من سور القرآن المدنية أو المكية بذكر ما استثنى من الآيات ، فتراها مثلا تقول : « سورة كذا مكية إلا آيات كذا وكذا فمدنية » ، ولا شك أن الحكم بذلك ليس قاطعاً ، وإنما هو حكم فى أمر خلافى ، ولا ينبغى أن يوضع مثله هذا الموضع فى المصحف بين يدى السور ، فإن كثيراً من الناس يظن أن ذلك أمر مُسلم ، وخبر متفق على صحته ، مع أن اللجنة قد تختار مرجوحا ، وقد لا تتنبه إلى ما فى بعض الروايات التى تعتمد عليها من مقال فى المتن أو فى السند ، ولكى يشاركنا القارىء فيما نحس به من خطأ هذه الخطة نورد أمثلة مما جاء بين يدى السور الكريمة من ترجيحات هذه اللجنة ، ونناقشه مناقشة يسيرة :

(١) فمن ذلك أنها كتبت عن سورة يونس أنها مكية إلا آيات استثنتها ، ومن هذه الآيات آية ٩٦ ، وهى قوله تعالى : « إن الذين حقت عليهم كلمة ربك

لا يؤمنون » فهذه الآية مدنية فى الرواية التى اعتمدت عليها اللجنة ، مع أن بعدها مباشرة آية متصلة بمعناها اتصالا يقضى بأنها نزلت معها ، بعدها لا قبلها ، هى قوله تعالى : « ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم » فظاهر أن قوله : « ولو جاءتهم » مبالغة على قوله : « لا يؤمنون » فكيف نتصور أن كل واحدة منهما نزلت فى وقت ، ثم نتصور أن المبالغة نزلت قبل الأصل المبالغ عليه .

(٢) ومن ذلك أنها كتبت عن سورة مريم أنها مكية إلا آيتى : ٥٨ ، ٧١ فمدنيتان ، وهاتان الآيتان هما :

أولا : قوله تعالى : « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سُجّداً وبُكِيا » .

هذه آية « ٥٨ » وهى تبدأ باسم الإشارة « أولئك » وقد سبق ذلك حديث السورة منذ أولها عن الأنبياء والصديقين ، فقد ذكرت زكريا ويحيى ومريم وعيسى وإبراهيم وإسحق ويعقوب وموسى وإسماعيل وإدريس ، فمن الواضح أن الإشارة لهؤلاء ، فإذا قيل إن الله ذكرهم فى مكة ، ثم أشار إليهم بهذه الإشارة فى المدينة كان ذلك موضع نظر .

ثانياً : قوله تعالى : « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا » هذه هى الآية « ٧١ » المستثناة ، أى أنها مدنية ، مع أن بعدها قوله تعالى : « ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا » والمعنى يقتضى أن يكون ترتيب نزولها حسب ترتيب ورودهما فى المصحف ، لأن الآية الثانية مترتبة فى المعنى على الآية الأولى ، فالورود سابق على الإنجاء ، فكيف يعكس الأمر ، فيجعل المتأخر طبعاً متقدماً وضعاً ؟ .

(٣) وشبيه بهذا ما قالوه فى سورة يوسف ، فهى مكية كلها إلا الآيات : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٧ فمدنية .

ومعنى هذا أن الآيات : ٤ ، ٥ ، ٦ مكية ، وهى قوله تعالى : « إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا » إلى قوله : « كما أتمها على أبويك من

قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم » وأن قوله بعد ذلك مباشرة : « لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين » مدنى ، وقد جاء بعده مباشرة أيضاً آيات مكية أخرى هي : « إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة » إلى آخر السورة ، والضمير فى « قالوا » للإخوة ، فانظر أيها القارىء كيف يريدوننا على أن نفهم أن ضميراً فى آية مكية متقدمة نزولا يعود على مذكور فى آية مدنية متأخرة ، وكيف اقتطعوا جملة من قصة ففرقوا بينهما فى الوطن إلى هذا الحد ؟ .

تحقيق أن الآيات التسع التى استثنوها من سورة الأنعام مكية :

هذه أمثلة من المصحف الشريف عامة ، فلننظر فيما فعلوه فى سورة « الأنعام » خاصة .

إنهم أعرضوا عن جميع الروايات القوية القائلة إن هذه السورة نزلت جملة واحدة ، وأخذوا بكل رواية تستثنى أيّة آية من الآيات ، فكتبوا بين يدى السورة فى المصحف هذا التنبيه : « سورة الأنعام مكية إلا الآيات : ٢٠ ، ٢٣ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١١٤ ، ١٤١ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ فمدنية » فهل هذا الحكم صحيح ؟ .

(١) أما الآية العشرون فهى قوله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » .

ويظهر أنهم لما وجدوا الحديث فى هذه الآية عن أهل الكتاب ، ووجدوا أن هذه الآية نظيرة لآية أخرى مدنية تبدأ بما بدأت به ، وهى قوله تعالى فى سورة البقرة : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » ١٤٦ ، ومن المعروف أن صلة الإسلام بأهل الكتاب إنما كانت بعد الهجرة ، وفى المدينة دون مكة ـ لما وجدوا هذا قرروا أن الآية مدنية ، فالمسألة ليست إلا اجتهاداً حسب روايةٍ مسندة ، وهو اجتهاد غير صحيح ، ويعرف ذلك بما رواه البغوى فى تفسيره عند قوله تعالى : « قل أى شىء أكبر شهادة » وهى الآية التاسعة عشرة ، أى الآية السابقة لآيتنا هذه ، قال : قال الكلبى : أتى أهل مكة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : أرنا من يشهد أنك رسول الله ، فإنا لا نرى أحداً يصدقك ، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى

فزعموا أنه ليس عنـدهم ذكر ، فأنزل الله تعالى قوله : « قل أى شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم » .

فهذه الرواية تدل على أن أهل مكة كانوا يأتون أهل الكتاب ويسألونهم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد ورد فى رواية أخرى ذكرت فى تفسير سورة الكهف أن قريشا بعثت النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط على رأس وفد منهم إلى أحبار اليهود يسألونهم عن محمد ويصفون لهم صفته ويستخبرونهم عنه الخ . ومعنى كون الآية نزلت فى ذلك أنها نزلت متضمنة الرد على ما زعموا من أن أهل الكتاب لا يعرفون النبي ، وليس فى كتبهم ذكر له ، فالله تعالى قـد أنزل هذه السورة جملة واحدة ، وفيها الرد على ما كان المشركون يزعمونه ، ومنه هـذا الزعم المروى عن أهل الكتاب ، فإذا نظرنا إلى ذلك فهمنا أن الرد عليهم جاء فى الآيات الثلاث المبدوءة بقوله تعالى : « قل أى شىء أكبر شهادة » فالله تعالى يثبت صدق محمد صلى الله عليه وآله وسلم بشهادته هو ، وهى أكبر شهادة ، وليس بالرسول ولا بهم حاجة مع شهادة الله إلى شهادة غيره ، ثم يكذب الدعوى المزعومة المنقولة عن أهل الكتاب من أنهم لا يعرفون محمداً ، وليس له ذكر فى كتبهم ، فيقول : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » أى فزعمهم الذى زعموا لكم باطل وكذب وافتراء ، ثم يقول : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون » .

وبهذا يتبين أن الآيات الثلاث تكوّن وحدة متماسكة فى معنى معين مقصود فى وقت واحد ، وأن الذين زعموا نزول الآية الوسطى من هـذه الآيات وحدها بالمدينة ، إنما اجتهدوا فأخطئوا .

(٢) وأما الآية الثالثة والعشرون ـ وهى الآية الثانية من الآيات التى قرروا أنهـا نزلت بالمدينة ـ فهى أيضاً آية متوسطة بين آية قبلها وآية بعدها ، والآيات الثلاث فى معنى واحد ، ونحن نسوق هذه الآيات لنرى ما تفيده ، ثم نعقب برأينا : « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون » ٢٢ « ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : والله ربنا ما كنا مشركين » ٢٣ « انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » ٢٤ .

فالآية الأولى تتضمن سؤالا يوجّه إليهم يومئذ تبكيتاً لهم ، والآية الثانية تصور حيرتهم حين يلقى عليهم هذا السؤال ، واضطرارهم إلى الخروج من مأزقهم بإنكار ما كانوا عليه فى الدنيا من الشرك ، والآية الثالثة تعقب على هذا فتلفت النظر إلى كذبهم على أنفسهم ، وضلال شركائهم عنهم ، أى عدم وجودهم يومئذ لينقذوهم ، فهذا معنىً واحدٌ متماسك لا ينبغى أن يمزّق فيجعلَ بعضه فى مكة وبعضه فى المدينة ، فما الذى حملهم على ذلك ؟ إنه اجتهاد خاطىء أيضاً ، يفسره لنا قول قاله ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية ، فقد نقل عن الضحاك عن ابن عباس أنه يقول فى آية « ثم لم تكن فتنتهم » : هذه فى المنافقين ، ثم عقب ابن كثير على هذه الرواية بقوله : « وفيه نظر ، فإن هذه الآية مكية - أى بناء على ترجيح أن السورة كلها مكية - والمنافقون إنما كانوا بالمدينة ، والتى نزلت فى المنافقين آية المجادلة : « يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شىء ، ألا إنهم هم الكاذبون » وهكذا قال فى حق هؤلاء « انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » ، كقوله - أى عن المشركين فى سورة غافر - : « ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله : قالوا ضلوا عنا ، بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا ، كذلك يضل الله الكافرين » .

فكأنى بابن كثير يقول لمن زعموا أن الآية مدنية : لقد أخطأتم فهى مكية ، وجاءكم الخطأ من أنكم ظننتم أن الحلف فى آية الأنعام : « والله ربنا ما كنا مشركين » هو الحلف المذكور فى آية المجادلة : « فيحلفون له كما يحلفون لكم » فإن المجادلة سورة مدنية ، وآيتها فى المنافقين ، فهذا هو الذى أفضى بكم إلى الخطأ ، والحقيقة أن آية الأنعام مكية ، وأنها فى المشركين الذين كانوا فى مكة ، وليست فى للمنافقين الذين كانوا بالمدينة ، فإذا أردتم أن تعرفوا أن هذا المعنى جاء فى غير هذا الموضع من المكى ، فاقرءوا سورة غافر المكية ، فإن فيها هذا المعنى ، وذلك قوله تعالى : « قالوا ضلوا عنا ، بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا » .

بذلك يتبين أن الرواية التى اعتمدوا عليها - إن صحت - لا ينبغى أن تُجرى مُجرى الإسناد ، فإنما هى اجتهاد ظهر خطؤه ، والله أعلم .

(٣) وأما الآية الحادية والتسعون من سورة الأنعام فهي مكية أيضاً كسائر آيات السورة ، وإنما وقع الاشتباه من أن فيها خطاباً حسبوه لليهود ، فالآية هي قوله تعالى : « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » والاشتباه جاء من قراءة : « تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً » بتاء الخطاب ، قالوا فالذين كانوا يجعلون الكتاب الذي جاء به موسى قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً هم اليهود ، وهم المخاطبون ، فلا بد أن تكون الآية نزلت بالمدينة ، لأنه لا يخاطب في مكة من كان بالمدينة .

وهذه الشبهة وإن بدت قوية يعارضها أمور :

أحدها : أن اليهود لم يكونوا ينكرون إنزال الله وحيه على البشر ، وكيف ينكرون ذلك وهم أتباع نبي جاء بالوحي وبين أيديهم كتابه الذي أنزله الله عليه وهو التوراة ، وإنما الذين ينكرون أن لله رسلا من البشر هم كفار مكة ، وفي ذلك يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية : قال ابن عباس ومجاهد وعبد الله ابن كثير : نزلت في قريش ، واختاره ابن جرير ، وقيل نزلت في طائفة من اليهود ، وقيل في فنحاص - رجل منهم - وقيل في مالك بن الصيف « قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء » والأول أصح ، لأن الآية مكية ، واليهود لاينكرون إنزال الكتب من السماء ، وقريش والعرب قاطبة كانوا ينكرون إرساله محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنه من البشر كما قال : « أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس » وكقوله تعالى : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا . قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » وقال هنا : « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء » قال الله تعالى : « قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس » أي قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب

من عند الله فى جواب سلبهم العام بإثبات قضية جزئية موجبة : « من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى » ، وهو التوراة التى قد علمتم وعلم كل أحد أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران ؟ اه كلام ابن كثير .

ثانيها : أن الآية تقول بعد ذلك : « وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم » وذلك فى المشركين أظهر ، لأنهم لم يكونوا على علم كأهل الكتاب ، ويؤيده ما جاء عنهم فى مثل قوله تعالى : « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » . « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » وإذا ترجح بهذا أن الخطاب فى هذه الجملة للمشركين كان من البعيد أن يكون ما قبلها فى الآية نفسها خطاباً لقوم آخرين .

ثالثها : أن الآية التى جاءت بعد هذه تشير إلى القرآن الذى أنزله الله على محمد لينذر به أم القرى ومن حولها : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها » فهى تضم القرآن إلى التوراة فى رد ما ألفوا أن يقاوموا به دعوة الحق من إنكار الوحى إلى البشر ، فكأنه يقول لهم : إن الله تعالى ينزل الوحى على رسله ، وذلك هو كتاب موسى الذى سمعتم به ، وهذا هو القرآن الذى ينزل فيكم مصدقاً لما بين يديه ، ومباركا ، وعاما للناس أجمعين .

رابعها : أن السياق قبل هذه الآية التى ظنوها مدنية قد عنى باستعراض الأنبياء الكرام بعد قصة محاجة إبراهيم لقومه ، فى آيات متوالية من قوله تعالى : « ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا » إلى قوله جل شأنه : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ، قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين » .

فهذا السياق يرشد إلى أن الغرض هو الرد على ما يزعمه المشركون فى مقاومتهم للرسول من أن الله تعالى لا ينزل على البشر كتباً ، فلذلك عد الله تعالى فى هذه الآيات أكثر الأنبياء ، وأنبأ أنه هو الذى هداهم وآتاهم الكتاب والحكم والنبوة ، وأمرهم ثابت ، وإنزال الوحى عليهم ثابت ، فإن يكفر بهذه الحقيقة هؤلاء

المعاندون الذين يقولون : ما أنزل الله على بشر من شيء ، فقد وكل الله بها قوماً ليسوا بها بكافرين ، فهي حقيقة متقررة ، آمن هؤلاء بها أم لم يؤمنوا ، وليس فى إرسال الرسل من البشر ، وإنزال الكتب عليهم ما يتنافى مع شيء من صفات الألوهية حتى يعجبوا منه أو ينكروه ، وإنما هو على العكس من ذلك مما تقضى به حكمة الإله ورحمته وسنته فى دعوة البشر إلى ما ينفعهم ، فالذين ينكرون ذلك لا يقدرون الله حق قدره ، ولا يعرفون ما هو من مقتضيات حكمته ورحمته وسنته فى الهداية .

هذه هى الوجوه التى يترجح بها أن الآية مكية كسائر آيات السورة ، وهى التى تعارض شبهتهم فى أن الأفعال : « تجعلونه » و « تبدونها » و « تخفون » دالة على أن الخطاب لليهود ، ولم يكن اليهود إلا بالمدينة .

ولكن معارضة هذه الشبهة بما ذكرنا لا يعفى الباحث فى هذا الشأن من تخريج الأمر فيها ، وقد حاول بعض المفسرين ذلك على أساس أن الآية نزلت مرتين ، إحداهما بمكة ، والأخرى بالمدينة ، وأن اليهود بالمدينة قالوا كما قال المشركون بمكة : « ما أنزل الله على بشر من شيء » قالوا ذلك عناداً ولجاجاً كما فى بعض الروايات ، ويعرف ذلك فى نظرهم من أن فى الآية قراءتين : « يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا » بالياء التحتية ، وهذه هى القراءة التى نزلت بمكة ، فهى تحدث المشركين بأن اليهود يجعلون الكتاب الذى جاء به موسى قراطيس الخ . والقراءة الأخرى بتاء الخطاب فى الأفعال كلها ، وهذه القراءة هى التى نزلت بالمدينة فى مواجهة اليهود خطاباً لهم .

وممن بنى على هذا صاحب المنار فى تفسيره ، ولست أوافقه ، فإن القول بنزول شيء مرة بمكة ومرة بالمدينة ليس بذلك ، ولا يطمئن إليه الباحث ، والروايات التى تأتى بمثل ذلك محتملة للخطأ ، فقد يقع حادث بالمدينة تنطبق عليه آية مكية فيتلو الرسول هذه الآية عند الحادث ، فيظن أنها نزلت مرة أخرى بالمدينة ، وإنما تليت تلاوة ، وقد يكون المروى عنه لم يسمع الآية من قبل فيظنها نزلت حينئذ فيقول ذلك فيروى عنه ، على أنه لا تتبين الفائدة من نزول شيء واحد مرتين .

ولكنى أحل هذا الإشكال على نحو آخر ، ذلك أن قراءة الأفعال بالياء على الحديث عن الغائبين ظاهر فى أن الآية مكية ، وأنه تعالى يلزمهم بما يعرفونه من نزول الكتاب على موسى - وكان العرب يعرفون ذلك ويسمعون به - ثم يلزمهم بما ينزل فيهم من القرآن فى قوله : « وهذا كتاب أنزلناه . . . » الآية ، فهذه القراءة ظاهرة ولا تحتاج إلى تخريج ، أما قراءة الأفعال بالخطاب « تجعلونه » و « تخفونها » و « تبدون » وهى القراءة التى نقرأ بها عن حفص ، فالخطاب فيها كما أرى - والله أعلم - موجه إلى الناس على الجملة لا إلى مشركى مكة ، ولا إلى يهود المدينة ، فالله يقول : قل يا محمد لكل من حدثته نفسه بهذه الشبهة ، وهى الشبهة فى إنزال الوحى على البشر : « من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى » - وذلك أن هذه الشبهة عالمية إنسانية ، أى أن الإنسان يتحير فى أمر نزول الوحى على بشر ، لأنه يعرف فى نفسه الضعف والبعد عن الاتصال بالله والملأ الأعلى على هذا النحو الذى يطلب منه الإيمان به ، ولكنه مع ذلك مفطور على الإيمان بقوى غيبية يراها تسير هذا الكون وتسخره ، وتقدر له وتدبره ، فيقول فى نفسه لعل الوحى مما تفعله هذه القوى الغيبية ، ولذلك نراهم يتوسطون فى نفيهم والتعبير عن شبهتهم فلا يقولون : لا ينزل الله وحيا ، ولكن يقولون : « ما أنزل الله على بشر من شىء » . « أو أبعث الله بشراً رسولا » . « إن هذا إلا رجل منكم يريد أن يتفضل عليكم » .. الخ فهو إنكار لوقوع ذلك لا لجوازه ، أو كما يقول ابن كثير : هو سلب عام ، جوابه الإثبات الجزئى - ونعود إلى موضوعنا فنقول : إن الخطاب لكل من تعتريه هذه الشبهة من الناس ، وقوله تعالى : « تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً » موجه إلى الناس على معنى أن فيهم من جعله كذلك ، وهم اليهود ، فالناس مسئولون عن ذلك فى الجملة ، لأنه صادر من بعضهم ، كأنه قال : ألم ننزل عليكم أيها الناس كتاباً هو الذى جاء به موسى فجعلتموه - أى جعله بعضكم وجنسكم - قراطيس . الخ .

وقد يُستظهر على هذا بأن بيئة الكلام وسياقه وجوّه فيها إشعار بأن الحديث ليس إلى قوم مخصوصين ، وإنما هو إلى الناس ، إلى العالمين ، إلى البشر ، فقبل

الآية ذُكر الأنبياء واحداً بعد واحد، وهم يمثلون قروناً متطاولة من عهود البشرية، وقبل الآية أيضاً يقول الله تعالى: «إن هو إلا ذكرى للعالمين» وفى الآية: «الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس» وبعد الآية عن القرآن: «لتنذر أم القرى ومن حولها» كل ذلك يشعر بأن المعنى فى قراءة الخطاب على مخاطبة البشر الذين من شأنهم أن يَعجبوا من ذلك ويترددوا فى حصوله إذا لم يتدبروا، وبذلك تكون الآية مكية، ويحَل إشكال القراءة المشهورة، والله أعلم.

(٤) تأتى بعد ذلك الآية الثالثة والتسعون: «ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلىّ ولم يوح إليه شىء»: ظنوا أن المقصود بالكلام مسيلمة الكذاب والأسود العنسى اللذان ادعيا النبوة فى السنة العاشرة، والرسول صلى الله عليه وآله وسلم فى مرضه، والرواية - إن صحت - من قبيل تقرير أن حكم الآية يشمل هذا الادعاء، لا أنها نازلة فى ذلك خاصة، على أنهم صرحوا بعدم صحة هذه الرواية؛ وطعنوا فى كل ما ورد متعلقا ببيان سبب نزول هذه الآية.

(٥) أما الآية الرابعة عشر بعد المائة من هذه السورة، فسبب اشتباههم فيها، وحكمهم بأنها مدنية، هو ما جاء فيها من قوله تعالى: «والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين» فلما رأوا أن الحديث عن أهل الكتاب وهم فى المدينة قالوا الآية مدنية، وقد علمت أن هذا اجتهاد لا نقل، لأنه لا مانع من الحديث عن أهل الكتاب فى مكة، فقد كانوا يتصلون بهم ويسألونهم عن النبي ويصفونه لهم ويستخبرون خبره منهم، والرواية ضعيفة مع ذلك.

(٦) والآية الحادية والأربعون بعد المائة، نزلت فى سياق تحريم المشركين ما لم يحرمه الله من الأنعام والحرث، وقد ظنوا أنها مدنية بقوله تعالى فيها: «كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده» قالوا إن الزكاة لم تفرض إلا فى السنة الثانية من الهجرة بالمدينة، وهذه الآية تشير إلى حق الحرث، وهو الزكاة المفروضة، وبذلك يقول بعض أهل العلم وأصحاب الرواية - والحق أن الآية فى

الصدقة المطلقة غير المحدودة ، وقد كانوا يعطون عند الحصاد من ثمارهم ، كلٌّ وما يجود به ، فهذا هو حق الزرع الذى كان معهوداً عندهم ، ثم جاء تشريع الزكاة لحدد المقادير نصاباً وزكاة ، وكان ذلك فى المدينة ، والحاصل أن الزكاة كانت أولا صدقة مطلقة وأقرت بمكة ، ثم بينت مقاديرها بالمدينة ، ومع هذا لم تصح الرواية القائلة باستثناء هذه الآية من السورة التى نزلت كلها بمكة جملة واحدة .

(٧) لم يبق بعد ذلك إلا الآيات الثلاث ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ من السورة : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم . . . » الآيات ، وقد صحح بعضهم رواية عن ابن عباس باستثنائها وتقرير أنها مدنية ، وقد نقد الشيخ رشيد رضا هذه الرواية : « بأن ابن عباس لم يكن بمكة ممن يحفظ القرآن ويروى الحديث ، فإنه ولد قبل الهجرة بثلاث أو خمس سنين ، وإنما روى ذلك عن غيره ، فيحتمل أن يكون الاستثناء من رأيه أو رأى من روى عنه ، أو أن يكون مروياً بالمعنى ، ويكون بعض الرواة هو الذى عبر بالاستثناء .

وهكذا يتبين أن ما أخذت به لجنة الإشراف على طبع المصحف الفؤادى من أن بعض آيات هذه السورة نزل بالمدينة غير مقبول ، لا من جهة الرواية ، ولا من جهة المعنى وارتباط الآيات كما بينا ، والله أعلم .

لم سميت السورة بسورة الأنعام :

وقد سميت هذه السورة بسورة « الأنعام » — والأنعام ذوات الخف والظلف ، وهى الإبل والبقر والغنم ، بجميع أنواعها — لأنها هى السورة التى عرضت لذكر الأنعام على تفصيل لم يرد فى غيرها من السور ، بيان ذلك أن ذكر « الأنعام » و « النعم » ورد فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم عرضاً ، مثل قوله تعالى : « زيِّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث » . « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » . « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام »

« والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » « ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام » . . « لجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم » إلى غير ذلك .

وجاء فى سور أخرى من القرآن ذكر بعض أحكام الأنعام ، ففى سورة المائدة : « أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم » وفى سورة الحج « وأحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم » ولكن هذا الحكم هو بيان حلها ، وما استثنى من هذا الحل فليس فيه تفصيل لشئون كثيرة تتصل بالأنعام .

نعم جاء فى سورة المائدة أيضاً حديث عن الأنعام يشبه بعض ما ورد فى هذه السورة ، وذلك هو قوله تعالى : « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون » وفى ذلك شىء من التفصيل لأنواع من الأنعام تعلق بها افتراء المشركين ، وتحريمهم الباطل لما لم يحرم الله ، ولكنه على هذا إنما يتناول جانباً واحداً من جوانب كثيرة .

أما سورة الأنعام فقد جاءت بحديث طويل عن الأنعام استغرق خمس عشرة آية منها ، من أول الآية : ١٣٦ ، إلى آخر الآية : ١٥٠ .

وقد تناول الحديث عن الأنعام فى هذه الآيات من السورة جوانب متعددة تتصل بعقائد المشركين فيها :

تناول ما كانوا يعملونه من تقسيم الحرث والأنعام قسمين ، وجعلهم قسما لله يتقربون به إليه فيقرون به الضيفان ، ويكرمون به الصبيان ، ويتصدقون به على المساكين ، وقسما لشركائهم يذبحونه على أنصابها نسكا ، ويمنحونه لسدنتها وينفقون منه على دورها وأماكنها ، وقد كانوا بعد هذه القسمة المنكرة التى تعدل بالله سبحانه أوثاناً لا تنفع ولا تضر - كانوا يجورون على القسم الذى جعلوه لله ، فيحولونه أحياناً ، أو يحولون قسما منه إلى الأغراض العائدة على الشركاء ، ولا يجورون على القسم الذى جعلوه للشركاء بإيصال شىء منه للفقراء أو الضيفان ، وذلك هو قوله تعالى : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا

هذا لله - بزعمهم - وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون » .

وتناول الحديث فى هذه السورة تقسيما آخر من تقسيماتهم المخترعة المبنية على شركهم ، حيث جعلوا الأنعام ثلاثة أنواع : نوعا حرموه واحتجروه وخصصوه بآلهتهم ، وكانوا لا يطعمون منه إلا الرجال ، ويقولون إن شئنا أطعمنا منه النساء ، وإن شئنا لم نطعم - وهذا النوع فى كلٍّ من الأنعام والحرث .

ونوعا آخر : هو تلك الأنعام التى حرموا ظهورها فلا تركب ، وهو البحيرة والسائبة والحامى ، المذكورة فى آية المائدة : « ما جعل الله من بحيرة . . . » .

والنوع الثالث : أنعام لا يذكرون اسم الله عليها فى الذبح ، بل يُهِلون بها لآلهتهم وحدها ، وذلك هو قوله تعالى : « وقالوا هذه أنعام وحرث حِجْر لا يَطعَمها إلا من نشاء - بزعمهم - وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ، افتراء عليه ، سيجزيهم بما كانوا يفترون » .

وتناول حديث الأنعام كذلك حكما ثالثاً من أحكامهم الجائرة ، فقد كانوا يجعلون ألبان بعض الأنعام وبعض أجِنَّتها حقاً خالصاً لذكورهم لا يصيب منه الإناث شيئا ، فكان الجنين إذا ولد ذكراً حيا جعلوه للذكور ، وإذا نزل ميتا جعلوه للذكور والإناث جميعاً ، وإذا جاء أنثى احتفظوا بها للنتاج ، وذلك قوله تعالى : « وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ، سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم » .

وتناول الحديث فى السورة غير ذلك من شئون الأنعام ، محاجةَ المشركين فيما زعموه من تحريم بعضها ، مما سنعرض له فى موضعه إن شاء الله ، فلا نطيل الكلام فيه الآن .

فهذا هو الحديث المفصل لشئون الأنعام الذى جاءت به هذه السورة فى معرض الزراية على الشرك والمشركين ، والإبانة عما يخالط عقائدهم من الخلل والفساد .

وبذلك سميت : « سورة الأنعام » .

الفترة التى نزلت فيها هذه السورة كانت فترة نضال فكرى عنيف بين الإسلام والشرك :

علمنا أن هذه السورة نزلت بمكة فى السنة الرابعة من البعثة ، وأن ذلك كان عقب أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن يصدع بالدعوة ، ويعلنها للناس بعد أن أسرّ بها ثلاث سنين ، وأنه قد نزل قبيل نزول هذه السورة سورٌ أخرى تتلاقى معها فى كثير من أغراضها وأساليب عرضها ، وأقربها إليها سورة الحجر التى نزلت قبلها مباشرة .

وهذه الفترة من فترات الدعوة الإسلامية كانت فترة عنيفة أشد العنف ، مملوءة بالمقاومة من الجانبين كأعظم ما تكون المقاومة ، فالمشركون مأخوذون بهذا النجاح الذى صارت إليه الدعوة حتى استطاعت أن تستعلن بعد الخفاء ، وأن تتحدى فى صوت عال ، ونداء جهير ، بعد أن كان المؤمنون بها يلجئون إلى الشعاب والأماكن البعيدة ليؤدوا صلاتهم ، والرسول صلى الله عليه وآله وسلم ماض فيما أمره به ربه من الصدع بدعوة الحق ، يتلو عليهم ما أنزله الله عليه من كتابه ، وفيه إنذار لهم ، وتفنيد لمعتقداتهم ، وتسفيه لآرائهم ، وإنكار لآلهتهم ، وتهكم بأوثانهم وتقاليدهم البالية ، فكان منهم من يستمع إلى القرآن متأثراً بقوته أو متذوقا لبلاغته ، وكان منهم من ينأى عنه خوفاً منه ، وهؤلاء وأولئك يتواصون مع ذلك بالنأى عنه ، ويأخذ بعضهم على بعض العهود الوثيقة فى ذلك ، ثم لا يلبثون أن يتقابلوا عنده أو فى طريقه ذاهبين إليه ، أو منصرفين منه ، يتكرر ذلك المرة بعد المرة ، ويتلاوم عليه المتلاومون ، ثم يعودون .

يومئذ واجهت دعوة الحق أعداءها مسفرةً واضحة متحدية ، ووقف هؤلاء الأعداء مشدوهين مضطربين ، يشعرون فى أعماق نفوسهم بصدقها وكذبهم ، ويترقبون يوماً قريباً لانتصارها وانهزامهم ، ولا يجدون لهم حيلة إلا المكابرة والمعارضة المستميتة بما درجوا عليه من العقائد الباطلة ، وبادعائهم كذب الرسول ، وبزعمهم أن إرسال الرسل من البشر أمر لم يقع من قبل ، وأن الله لو شاء إبلاغ

عباده شيئاً لأنزل إليهم ملائكة ، وإنكارهم البعث والدار الآخرة ، واستماتوا فى الدفاع عن عقائدهم وآلهتهم ، ونسوا أن محمداً عاش فيهم عمراً طويلا لم يقل فيه يوماً قولة كاذبة ، ولم يخن فيه يوماً أمانة أؤتمن عليها ، وأنهم لذلك كانوا يلقبونه بالصادق الأمين - لم يذكروا شيئاً من ذلك ، ولم يفكروا فيه ، ولكنهم فكروا فقط فى أن الدعوة الجديدة التى استعلنت بعد استخفاء ، وتحدّت بعد ما ظنوه بها من الاستخذاء ، يجب أن تموت فى مهدها ، ويجب أن تكتم أنفاسها قبل أن تنبعث حرارة هذه الأنفاس إلى البلاد والقبائل والشعوب .

ورحبت الدعوة الإسلامية بهذا النضال ، وتحملت جميع مقتضياته وأثقاله ، وكان ذلك أول النصر ، لأن النور لا يظهر إلا بالاحتكاك ، والمبادىء لا تعرف أو لا تشتهر أنباؤها إلا بالمعارضة ، ولأن الفرصة بذلك تسنح مراراً لأن يبتدىء الداعى بها ويعيد ، ولو أن دعوة من الدعوات قوبلت من الناس بالقبول ، فلم يختلف فيها اثنان ، لما كانت انقلاباً ولا إصلاحا ولا ثورة على وضع ظالم ، أو حكم فاسد ، ولما كانت إلا إقراراً للواقع على ما فيه ، ورضا بما هو حاصل ، فلا مبرر لقيامها ، ولا يمكن أن تحسب فى التاريخ بين الدعوات .

سورة الأنعام مظهر كامل لهذا النضال :

أخذت سور القرآن فى هذه المرحلة تتلاحق ، وأخذت آياتها تتعاون وتتآزر ، وكانت أغراضها متشابهة إلى حد بعيد ، وكان أولها وأحفلها بما نزلت له من أغراض بعد أمر الرسول بإعلان الدعوة والصدع بها : هو سورة « الأنعام » فقد جمعت كل العقائد الصحيحة ، وعنيت بالاحتجاج لأصول الدين ، وتفنيد شبه الملحدين ، وإبطال العقائد الفاسدة ، وتركيز مبادىء الأخلاق الفاضلة .

ولو أن ناظراً فى هذه السورة أراد أن يستخلص من آياتها وعباراتها وأساليب حججها ما يتّخذ أساساً لمعرفة الدعوة الإسلامية فى أصولها الاعتقادية ، المتعلقة بالألوهية والربوبية والرسالة والوحى والبعث والجزاء ، وما للمبطلين على ذلك كله من شبه ، وما يتبين به فساد شبههم من براهين وإشارات وتوجيهات -

لو أن ناظراً فى هـذه السورة أراد أن يتخذ منها ذلك لاستطاع ، ولوجد فيهـا ما يبتغى .

ولو أنه أراد أيضاً أن يجمع ما جاءت به ، أو أشارت إليـه من مبادىء الإصلاح الإسلامى للعالم ، ومن السنن الكونية ، والنواميس التى أرشد الله الناس إليها ، لجمع من هذا وذاك الكثير النافع .

ولهـذا جاءت الروايات ببيان فضل هـذه السورة ، وأن الله تعالى أنزلهـا مشيّعةً بالملأ العظيم من ملائكته ، وفى ذلك يقول الإمام الرازى فى تفسيره « مفاتيح الغيب » :

« إن هـذه السورة اختصت بنوعين من الفضيلة ، أحدهما : أنهـا نزلت دفعة واحدة . والثانى : أنها شيعها سبعون ألفاً من الملائكة . والسبب فى ذلك أنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين » .

ويقول القرطبي :

« قال العلماء : هذه السورة أصل فى محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ، ومن كذب بالبعث والنشور ، وهـذا يقتضى إنزالها جملة واحدة ، لأنها فى معنى واحد من الحجة ، وإن تصرف ذلك بوجوه كثيرة ، وعليهـا بنى المتكلمون أصول الدين » .

وأقول : ولعل هذا هو السر فى أن هذه السورة جعلت أول سوره مكية فى المصحف من السور الكبار ، كما جعلت سورة « البقرة » أول سورة مدنية فى المصحف ، بل أول المصحف باطلاق بعد فاتحة الكتاب ، لأنهـا أول سورة نزلت بالمدينة ، ولمـا جمعته من أصول الدين ، وأصول الشريعة ، وبيان أحوال أهل الكتاب والمشركين والمنافقين ، وبيـان الخلق والتكوين ، وأهم الأحكام العملية .

— ٢ —

الأغراض الرئيسية لسورة الأنعام ـ وحدة الربوبية دليل على وحدة الألوهية ـ صلاحية هذا الدليل الفطرى لمشركى مكة ولغيرهم ـ جوانب أخرى عرضت لها السورة تركيزاً لعقيدة التوحيد .

نعرض للأغراض الأساسية لهذه السورة على وجه من الإجمال ، مبينين صلتها بالبيئة المكانية والزمانية حين نزولها . ضامّين من آيات السور الأخرى ما يشابه آياتها ، ويعين على إدراك مهمتها ، ومعرفة ما ترمى إليه ، فنقول :

إن الأغراض الرئيسية التى استهدفتها هذه السورة الكريمة هى تركيز العقائد الأساسية الثلاث التى كان المشركون يومئذ ينازعون فيها ، ويبنون أفكارهم وأعمالهم وتصرفاتهم على ما ينافيها ، وهذه العقائد الأساسية هى :

أولا : توحيد الله ، ويتصل بهذه العقيدة إقامة الدليل على وحدة الألوهية بلفت النظر إلى آثار الربوبية ، وإلى صفات الإله الخالق المتصرف ، كما يتصل بها إبطال عقيدة الشرك ، وشبه المشركين ، وتقرير أن العبادة والتوجه والتحريم والتحليل إنما ترجع إلى الله .

ثانياً : الإيمان برسوله الذى أرسل ، وكتابه الذى أنزل ، وبيان وظيفة هذا الرسول ، ورد الشبه التى تثار حول الوحى والرسالة .

ثالثاً : الإيمان باليوم الآخر ، وما يكون فيه من جزاء .

وحدة الربوبية دليل على وحدة الألوهية :

بدأت السورة بتقرير الحقيقة الأولى فى كل دين ، وعلى لسان كل رسول ، تلك الحقيقة التى تؤمن بها الفطر السليمة ، ويدل عليها هذا العالم بأرضه وسمائه وما فيه من مخلوقات ناطقة وصامتة ، ظاهرة وخافية ، وما فيه من تحولات وتقلبات ونور وظلمات ، وهذه الحقيقة هى أن الإله الذى له « الحمد » المطلق ،

والتنزيه الذى لا يحد هو : الله ، لأنه هو الذى « خلق » ، وهو الذى « جعل » . فالخلق إنشاء وإبداع ، والجعل تصريف وتقليب ، والعالم أجمع فى دائرتيهما ، فلا ينفك شىء منه عن كلا هذين المظهرين : « خَلق » و « جَعل » ، ومقتضى ذلك أن المخلوق المجعول لا يمكن أن يتسامى إلى مرتبة الخالق الجاعل فيُعبد كما يعبد ، ويُقصد كما يقصد ، فذلك هو مطلع السورة : « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » وكل ما جاء فى هذه السورة إنما هو بيان أو تفصيل أو تمثيل أو تطبيق على هذه الحقيقة ، أحياناً بصفة مباشرة ، وأحياناً بوسائط تقرب أو تبعد .

وهذا المعنى هو الذى يعبر عنه بعض العلماء بأنه الحكم بتوحيد « الألوهية » استدلالا بوحدانية « الربوبية » وذلك فى القرآن كثير ، فأول فاتحة الكتاب : « الحمد لله رب العالمين » وأول الكهف : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب » وأول فاطر : « الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا » وفى سورة الحجر : « إن ربك هو الخلاق العليم » . « فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين » .

ولو ذهبنا نتتبع هذا المعنى لأوغلنا فى التتبع ، ورأينا الكثير من الآيات ، فإن هذا هو أصل الأديان كلها ، وهو الحقيقة الاولى كما قلنا ، فحسبنا أن نعرض فيها بعض ما جاء في سورة « الأنعام » :

تلفت هذه السورة إلى مظاهر الربوبية ، وصفات الألوهية ، فتقول بعد مطلعها وفى ثناياها :

« هو الذى خلقكم من طين » . « وهو الله فى السموات وفى الأرض » . « فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى » . « فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا » . « وجعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر » . « أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع » « أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه

حباً متراكباً ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه » . « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه » إلى غير ذلك .

وتلفت إلى مظاهر الملك التام ، والسلطان القاهر فى الخلق ، والتصرف الكامل ، والعلم المحيط ، فتقول :

« قل لمن مافى السموات والأرض ؟ قل لله » . « وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم » . « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر » . « وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار » . « وهو القا فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة » .

وتدعو إلى الموازنة بين الله جل علاه ، وما يتخذونه من الشركاء ، فتقول :

« قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم » . « قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به » . « قل أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا » . « قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شيء » إلى غير ذلك .

صلاحية هذا الدليل الفطرى لمشركى مكة ولغيرهم :

وهنا قد يرد سؤال : هل كان مثل هذا الدليل الذى يستدل به القرآن فى هذه السورة وفى غيرها على صحة هذه العقيدة الأساسية مناسبا لعقيدة المشركين ، منطقيا فى إقناعهم ؟ بل لعل قائلا يقول : إن الأمر لم يزد فى ذلك على إلقاء دعوى بوحدانية الرب والإله ، ففيم الحجة فى هذا على العرب ، وفيم الحجة على غيرهم ؟ فنقول :

أما الحجة فى هذا على العرب ، فلأنهم كانوا يؤمنون بأن لهذا الكون رب خالقاً منعما ، وأن هذا الرب هو الله ، وإنما كانوا مع ذلك يعبدون الأوثان ليقربوهم إلى الله زلفى ، ويقولون : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » ، ولا يرون عبادة هذه الأوثان منافية لما يؤمنون به من ربوبية الله ، وفى القرآن الكريم آيات

كثيرة تدل على أن هذه هى عقيدتهم ، وعلى أن نوع انحرافهم عن عقيدة الحق إنما هو إشراكهم بهذا الإله الذى يعتقدونه دون غيره الرب الخالق المنعم .

ومن ذلك قوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله » . . « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله » . . « قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله » . . « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون ، قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله ، قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، قل فأنى تسحرون » ؟ .

إلى غير ذلك من الآيات التى تجد الحجة فيها مسوقة إلى قوم لا ينازعون فى أن الله هو ربهم ورب كل شىء ؛ لإلزامهم بأن الرب الذى يعرفونه ، ليس هو الوثن الذى يعبدونه ، وإنما هو الله .

وقد جاء من هذا المعنى فى سورة الأنعام قوله تعالى : « قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين . بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون » . . « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون » .

فهذا تحكيم لضمائرهم وما استكن فى قلوبهم وما عرفوه فى أنفسهم من رجوعهم إلى الله وحده حين الشدة ، ونسيانهم الشركاء .

وجاء فيها أيضاً قوله جل شأنه : « قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به ؟ انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون » .

وهذا تحكيم لهم فيما يعرفونه من أساس الخلق، وكون الخالق هو الله وحده، ولهذا كله تقول السورة بعد أن عددت كثيراً من مظاهر الربوبية: «ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه، وهو على كل شيء وكيل».

وأما الحجة بهذا على غير العرب ممن لا يعتقدون بإله خالق، وإنما يرون هذه الحياة وما فيها من باب المصادفات والتفاعلات، أو ممن يعتقدون أن هناك إلهاً للخير وإلهاً للشر، أو آلهة متعددين، فإنها لا تأتى من إيمانهم بمثل ما آمن به العرب من ربوبية الله لكل شيء، ولكنها تأتى من لفت الأنظار إلى ما فى الكون من صنعة محكمة، ونظام بديع مطرد شامل لكل شيء، وأن العقول ليس من شأنها أن تتقبل الزعم، بأن هذا الاطراد فى السنن والنظم ملايين السنين كلّه، إنما كان عن مصادفات وتفاعلات، أو أنه من صنع آلهة متعددة، مع أن التعدد سبب للاضطراب والفساد، لا للإتقان والتناسب والاطراد.

إن النظر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء لابد أن يثمر الإيمان بالله، ولذلك نجد العلماء المبرزين فى أية ناحية من النواحى الكونية مؤمنين بالله، لأنهم رأوا أكثر من غيرهم عجائب صنعه، واطراد نظامه، والإنسان مفطور على الإحساس بالقوة الغيبية، يرى آثارها فى نفسه وفى كل شيء حوله، فإذا جاء من يلفت نظره إلى الكون وما فيه من الأسرار، بل من يلفته إلى نفسه: كيف خُلق؟ وكيف يفكر؟ وكيف يعيش؟ وكيف يموت؟ فإنه لا بد متجاوب بروحه وقلبه مع هذا الذى يلفته ويوجهه، مؤمن بهذه القوة الغيبية التى فطر على الإحساس بها، وهى الإله القادر العليم الحكيم.

وبهذا تكون الحجة عامة لكل ذى عقل سليم، وفطرة صافية، وإخلاص فى تطلب الحقيقة من دلائلها المبثوثة فى آفاق السموات والأرض، ولذلك يقول الله جل شأنه: «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد».

جوانب أخرى عرضت لها السورة تركيزاً لعقيدة التوحيد :

وقد أيدت السورة هذا الجانب ، وهو جانب النظر فى ملكوت السموات والأرض ، المفضى إلى الإيمان بالإله الحق ، بقصة إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، حين تدرج بقومه إلى إبطال رأيهم ، وميراثهم الذى ورثوه عن آبائهم فى تأليه غير الله ، وفى ذلك جاءت الآيات الكريمة من قوله تعالى : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة » إلى قوله جل شأنه : « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه » .

وسنعرض لهذا الجانب بالتفصيل فى غير هذا الموضع إن شاء الله .

ويتصل بهذا الجانب ـ جانب التوحيد ـ ما جاءت به السورة فى ناحيتين :

الناحية الأولى : إبطال ما زعموا من تحريم ما لم يحرم الله ، وإحلال ما لم يحل ، وذلك فيما ذكرنا طرفاً منه حين تحدثنا عن وجه تسمية السورة باسمها ، والطرف الآخر هو استحلالهم قتل أولادهم ، وقد ذكرته السورة فى أثناء ما حكته عن شركهم وجعلهم لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، ولشركائهم نصيباً ، وذلك قوله تعالى : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ، ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون » وقد جمع الله تعالى بين تحريمهم بعض ما رزقهم من الأنعام والحرث ، وقتلهم أولادهم فيما تلوناه ، ثم فى إبطاله وتقرير خسارتهم به ، إذ يقول : « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين » .

الناحية الثانية : تقرير الوصايا العشر التى هى أمهات الأخلاق الفاضلة ، باسم الربوبية ، وذلك ما ذكر فى الآيات المبدوءة بقوله تعالى : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم » .

فإن هذه الوصايا جاءت فى مقابل تحريمهم وتحليلهم لأنفسهم ، أو اتباعهم لشياطينهم ، أو لوحى شركائهم وأوليائهم فيما التزموا به من التحريم والتحليل ،

فكأن السورة تقول لهم : ليس التحريم والتحليل إليكم ولا إلى أحد ، إنما هو لله وحده ، فاستمعوا إليه يذكر لكم ما حرم عليكم ، ويؤيد ذلك أن هذه الوصايا جاءت مباشرة بعد قوله تعالى : « قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا » والإشارة إلى ما حرموه ، وبينت الآيات فساد حكمهم فيه : « فإن شهدوا فلا تشهد معهم ، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون » .

وقد كانت خاتمة هذه الوصايا العشر الجامعة هي قوله تعالى : « وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » ، وهي جامعة لكل ما يتصل باستهداف التوحيد في العقائد والأعمال ، وتجنب التعدد والتفرق بالسبل المختلفة ، فإن الصراط الواحد هو الصراط المستقيم ، والصُّرُط الأخرى ضالة مضلة لا يحبها الله ، ولا يقرها ، ولذلك تقرر السورة بعد ذلك في صراحة وقوة أنها ليست بما يتفق والإسلام ، وأن رسول الإسلام برىء من كل تفرق فى الدين أساسه الحزبية والتعصب ، فتقول :

« إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » .

وسيأتى تفصيل لذلك بعد هذا الإجمال إن شاء الله تعالى ؟

حياة الأنبياء والشهداء بعد الموت

لفضيلة الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

روى الإمام مسلم بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « أتيت ـ وفى رواية هدّاب : مررت ـ على موسى ليلة أسرى بى عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلى فى قبره » .

وأخرج الإمام مسلم أيضاً بعدة طرق عن أنس رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « مررت على موسى وهو يصلى فى قبره » .

وقد أخرج الإمام مسلم فى الصحيح من حديث عبد العزيز ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « . . . وقد رأيتنى فى جماعة من الأنبياء » .

فإذا موسى قائم يصلى ، فإذا رجل ضَرْب[1] جَعْد كأنه من رجال شنوءة[2] ، وإذا عيسى بن مريم قائم يصلى ، أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفى .

وإذا إبراهيم قائم يصلى ، أشبه الناس به صاحبكم ـ يعنى نفسه ـ فحانت الصلاة ، فأممتهم . . . ولقد وردت السنة الصحيحة بأن أجسام الأنبياء لا تأكلها الأرض ، أى أنها لا تبلى . فقد أخرج الإمام أحمد بإسناده عن أوس بن أوس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا علىّ من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة علىّ ، قالوا : وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرِمْت ـ يريدون بليت ـ فقال : إن الله قد حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء ـ عليهم السلام .

---

(١) الضرب من الرجال هو الخفيف اللحم .
(٢) شنوءة : قبيلة من قبائل العرب .

هذا الحديث أخرجه أيضاً الحاكم وصححه ، وصححه النووى . ويقول البيهق عنه : أخرجه أبو داود السجستانى فى كتاب السنن ، وله شواهد .

ثم يروى - من هذه الشواهد - بإسناده عن أبى مسعود الأنصارى ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « أكثروا الصلاة على فى يوم الجمعة ، فإنه ليس أحد يصلى على يوم الجمعة إلا عرضت علىّ صلاته » .

وروى البيهق - من هذه الشواهد أيضاً - بإسناده عن أبى أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أكثروا علىّ من الصلاة فى كل يوم جمعة ، فان صلاة أمتى تعرض على فى كل يوم جمعة ، فمن كان أكثرهم على صلاة ، كان أقربهم منى منزلة .

وسواء أكان الإنسان بجوار الضريح الشريف أم كان بعيداً عنه ، فإن صلاته تبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فلقد أخرج البيهق فى شعب الإيمان ، والأصبهانى فى الترغيب عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من صلى على عند قبرى سمعته ، ومن صلى على نائيا بُلّـغْـتـُـه » .

ومن هذا القبيل ما أخرجه الإمام البخارى فى تاريخه عن عمار قال : سمعت النبى صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « إن لله تعالى ملكا أعطاه أسماع الخلائق ، قائم على قبرى فما من أحد يصلى على صلاة إلا بلغتها » .

ولقد أثبت الإمام القشيرى حياة الأنبياء بعدة طرق ، وأورد أحاديث فى ذلك ، نذكر منها حديث عبد الله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم : « إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغوننى عن أمتى السلام » .

ويقول الإمام القشيرى تعليقاً على هذا الحديث : ولا يبلغ السلام إلا ويكون حيا .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه - فيما رواه ابن ماجه بإسناد جيد - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أكثروا من الصلاة على يوم الجمعة ، فإنه مشهود : تشهده الملائكة ، وإن أحداً لن يصلى على إلا عرضت على صلاته حتى يفرغ منها ، قال أبو الدرداء ، قلت : وبعد الموت ؟ قال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

إن الأنبياء أحياء فى قبورهم بشهادة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لموسى عليه السلام ، وبرؤيته للأنبياء ، وحديثه معهم ، وصلاته بهم .

أما الصلاة التى كانوا يصلونها : فإنها لم تكن فرضاً وتكليفا ، وإنما كانت شكراً وحمداً لله على نعمه ، وليس فى الآخرة تكليف ، وإن كان فيها أيضاً ترق روحى لا ينتهى ، لأن المدد الإلهى لا ينتهى ، ولكل درجة من درجات هذا المدد شعور بالحمد والثناء على الله والشكر لله ، يتناسب مع درجته ، والله سبحانه وتعالى يقول : « دعواهم فيها سبحانك اللهم ، وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » .

وقد يتساءل إنسان عن هذه الحياة بعد الموت : أهى خاصة بالأنبياء ؟ .

ونقول : إن القرآن الكريم يثبتها فى يقين جازم للشهداء ، يقول تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

وبمناسبة هذه الآية روى الترمذى وحسنه ، وابن ماجه بإسناد حسن أيضاً ، والحاكم وقال صحيح الإسناد : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لما رأى جابر بن عبد الله مهتما لاستشهاد أبيه فى غزوة أحد ، قال له مطمئناً مبشراً : ألا أخبرك ما قاله الله لأبيك ؟ فقال جابر : بلى ؛ قال صلى الله عليه وآله وسلم : « ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب ، وإنه كلم أباك كفاحا ، والكفاح : المواجهة ، قال : سلنى أعطك . قال : أسألك أن أرد إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية ، فقال الرب عز وجل : إنه قد سبق منى القول : « بأنهم إليها لا يرجعون » قال : أى رب فأبلغ من ورائى ، « أى أبلغهم هذه النعمة الكبرى فى الجنة التى يتقلب فيها الشهيد » فأنزل الله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » وقال تعالى : « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات ، بل أحياء ولكن لا تشعرون » .

ويقول الإمام القشيري : « فأخبر سبحانه أن الشهداء أحياء عند ربهم ، فالأنبياء أولى بذلك لتقاصر رتبة الكافة عن درجة النبوة » .

قال الله تعالى : « فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء » .

فرتبة الشهادة ثالث درجه النبوة ، ولقد وردت الأخبار الصحيحة ، والآثار المروية بما يدل على هذه الجملة .

وبمناسبة الآيات القرآنية الشريفة عن الشهداء يقول ابن القيم : « إن الله تعالى عزّى نبيه وأولياءه عمن قتل منهم فى سبيله أحسن تعزية وألطفها وأدعاها إلى الرضا بما قضاه لهم بقوله : « ولا تحسبن » الآيات . فجمع لهم إلى الحياة الدائمة ، منزلة القرب منه ، وأنهم عنده ، وجريان الرزق المستمر عليهم ، وفرحهم بما آتاهم من فضله ، وهو فوق الرضا ، بل هو كمال الرضا ، واستبشارهم بإخوانهم الذين باجتماعهم بهم يتم سرورهم ونعيمهم ، واستبشارهم بما يجدد لهم كل وقت من نعمته وكرامته » اهـ .

ولقد أخرج أحمد وعبد فى مسنديهما ، والطبرانى بسند حسن عن محمود ابن لبيد عن ابن عباس مرفوعاً : « الشهداء على بارق نهر بباب الجنة فى قبة خضراء يخرج إليهم رزقهم من الجنة غدوة وعشية » .

وفى حياة الأنبياء والشهداء يقول القرطبي : « الموت ليس بعدم محض ، وإنما هو انتقال من حال إلى حال ، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء يرزقون فرحين مستبشرين ، وهذه صفة الأحياء فى الدنيا ، وإذا كان هذا فى الشهداء فالأنبياء أحق بذلك وأولى ، وقد صح أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ، وأنه صلى الله عليه وآله وسلم اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء فى بيت المقدس ، وفى السماء ، ورأى موسى عليه السلام قائماً يصلى فى قبره ، وأخبر صلى الله عليه وآله وسلم بأنه يرد السلام على كل من يسلم عليه ، إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع ، بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أنهم غيبوا عنا بحيث لا ندركهم ، وإن كانوا موجودين أحياء ، وذلك كالحال فى الملائكة ، فإنهم موجودون أحياء ، ولا يراهم أحد من نوعنا إلا من خصه الله بكرامته من أوليائه » انتهى .

والفقهاء يتحدثون عن الشهداء فى استفاضة ، ومما أثاروه بهذه المناسبة ، مسألة سؤال القبر بالنسبة للشهيد ، ولقد أفتى الإمام السيوطى بأن سؤال القبر ليس عاما للخلق ، بل يستثنى منه الشهيد ، ففى الحديث : « أنه صلى الله عليه وآله وسلم سئل : أيفتن الشهيدُ فى قبره ؟ فقال : كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة » .

قال القرطبى فى التذكرة نقلا عن الحكيم الترمذى : معناه : أنه لو كان عنده نفاق فرّ عند التقاء الزحفين وبريق السيوف ، لأن من شأن المنافق الفرار عند ذلك ، وشأن المؤمن البذل والتسليم لله ، فلما ظهر صدق ضميره حيث برز للحرب والقتل لم يعد عليه السؤال فى القبر الموضوع لامتحان المسلم الخالص من المنافق .

قال القرطبى : وإذا كان الشهيد لا يفتن فالصدّيق من باب أولى ، لأنه أجل قدرا ، وممن يستثنى المرابط ، فقد ورد فيه أحاديث ، والمطعون ، والصابر فى بلد الطاعن محتسباً ومات بغير الطاعون – صرح به الحافظ ابن حجر فى كتاب : « بذل الماعون » .

* * *

ولعل هذه الحياة البرزخية ليست للأنبياء والشهداء فحسب ، وإنما هى لجميع الناس حتى الكفار منهم ، على أن القرآن والسنة يشيران إلى حياة الكفار بعد الموت قبل القيامة ، يقول تعالى عن آل فرعون : « النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » .

ولا ريب فى أن النار التى يعرضون عليها ليست نار يوم القيامة ، فما فى القيامة غُدُوٌّ وعَشيّ ، وما فيها شروق وغروب . ثم إن العطف يقتضى المغايرة ، ومنطوق الآية : إن آل فرعون يعرضون على النار فى الصباح وفى المساء ، يرون مكانهم فيها ومصيرهم الذى سيصيرون إليه ، حتى إذا كان يوم القيامة نادى مناد آمراً : « ادخلوا آل فرعون أشد العذاب » أدخلوهم بعد أن كانوا يعرضون غدوا وعشيا ، أدخلوهم إلى إقامة مستمرة .

على أن حادثة أصحاب القليب معروفة مشهورة ، رواها الإمام البخارى بعدة روايات ، ورواها غيره بعدة روايات أيضاً ، من هذه الروايات الرواية الآتية عن البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد ، سمع روح بن عبادة ، حدثنا سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة قال : ذكر لنا أنس بن مالك ، عن أبي طلحة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش ، فقذفوا فى طوى من أطواء بدر خبيث مخبث ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال ، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها ، ثم مشى وتبعه أصحابه ، وقالوا : ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته حتى قام على شفة الركى ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : يا فلان بن فلان ، ويا فلان بن فلان ، يسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فقال عمر : يا رسول الله : من تكلم من أجساد لا أرواح فيها ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « والذى نفس محمد بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » .

هذه الروايات كلها تتكاتف وتتساند ، مع الأحاديث التى رويت فى عذاب القبر ، ونعيمه ، والتى تخبر أن القبر إما روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار ، فتدل بمجموعها على أن كل إنسان إذا فارق الدنيا ، فإنما انتقل من طور إلى طور ، وإنه إذا كان الجسم سيبلى فإن الروح ـ مركز الشعور والإحساس والفكر ـ باقية تحس وتشعر وتفكر .

وعن المؤمنين عامة يحسن أن نورد القصة التالية :

أخرج البيهقى فى البعث ، والطبرانى بسند حسن ، عن عبد الرحمن بن كعب ابن مالك قال : لما حضرت كعبا الوفاة أتته أم بشر بنت البراء ، فقالت : يا أبا عبد الرحمن ، إن لقيت بشرا فأقرئه منى السلام ، فقال لها : يغفر الله لك يا أم بشر ، نحن أشغل من ذلك ، فقالت : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : إن نسمة المؤمن تسرح فى الجنة حيث شاءت ، ونسمة الكافر فى سجين ؟ قال : بلى ، قالت : فهو ذاك » .

أما الحديث الذى صححه أبو محمد عبد الحق ، فهو ما رواه ابن عبد البر فى الاستذكار والتمهيد من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه إلا عرفه ، ورد عليه السلام » .

ولعل السؤال الملح فيما نحن بصدده هو :

ما نوع هذه الحياة التى يحياها الأنبياء والشهداء ، وغيرهم ؟ .

ومن أجل الإجابة على هذا السؤال نورد ما ذكره ابن القيم بهذا الصدد فى كتابه النفيس « الروح » :

إن الله سبحانه وتعالى جعل الدور ثلاثة : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار ، وجعل لكل دار أحكاما تختص بها ، وركب هذا الإنسان من بدن ونفس وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان ، والأرواح تبع لها ، ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح ، وإن أضمرت النفوس خلافه ، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبع لها ، فكما تبعت الأرواح الأبدان فى أحكام الدنيا ، فتألمت بألمها ، والتذت براحتها ، وكانت هى التى باشرت أسباب النعيم والعذاب ـ تبعت الأبدان الأرواح فى أحكام دار البرزخ فى نعيمها وعذابها ، والأرواح حينئذ هى التى تباشر العذاب والنعيم ، فالأبدان هنا [1] ظاهرة والأرواح خفية ، والأبدان كالقبور لها ، والأرواح هناك [2] ظاهرة ، والأبدان خفية فى قبورها . فتجرى أحكام البرزخ على الأرواح ، فترى إلى أبدانها نعيما وعذابا ، كما جرى أحكام الدنيا على الأبدان . فترى إلى أرواحها نعيما وعذاباً ، فاحفظ بهذا الموضوع علماً واعرفه كما ينبغى . يزُلْ عنك كل إشكال يورد عليك من داخل وخارج . وقد أرانا الله سبحانه ، بلطفه ورحمته وهدايته من ذلك ، أنموذجا فى الدنيا من حال النائم . فإن ما ينعم به ، أو يعذب فى نومه . يجرى على روحه أصلا ، والبدن تبع له . وقد يقوى حتى يؤثر فى البدن تأثيراً مشاهداً ، فيرى

---

(١) فى دار الدنيا . (٢) فى دار البرزخ .

النائم أنه فى نومه ضُرِبَ ، فيصبح وآثار الضرب فى جسمه ، ويرى أنه قد أكل وشرب ، فيستيقظ وهو يجد أثر الطعام والشراب فى فيه ، ويذهب عنه الجوع والظمأ . وأعجب من ذلك أنك ترى النائم ، ثم يقوم من نومه ، ويضرب ويبطش ويدافع ، كأنه يقظان ، وهو نائم لاشعور له بشيء من ذلك . لأن الحكم ، لما جرى على الروح ، استعانت بالبدن من خارجه ، ولو دخلت فيه لاستيقظ وأحس ، فإذا كانت الروح تتألم وتتنعم ، ويصل ذلك إلى بدنها بطريق الاستتباع ، فهكذا فى البرزخ ، بل أعظم . فإن تجرد الروح هناك أكمل وأقوى ، وهى متعلقة ببدنها لم تنقطع عنه كل الانقطاع ، فإذا كان يوم حشر الأجساد ، وقيام الناس من قبورهم صار الحكم والنعيم والعذاب ، على الأرواح والأجساد ظاهراً باديا ، ومتى أعطيت هذا الموضع حقه تبين لك أن ما أخبر به الرسول من عذاب القبر ونعيمه ، وضيقه وسعته وضمه ، وكونه حفرة من حفر النار ، أو روضة من رياض الجنة ، مطابق للعقل ، وأنه حق لا مرية فيه ، وأن من أشكل عليه ذلك فمن سوء فهمه ، وقلة علمه ، انتهى .

أما بعد : فإننا نختم هذا البحث بكلمة يقولها حجة الإسلام الإمام الغزالى ، عن تجربة شخصية يؤيد ما هو واضح من بدهيات الجو الإسلامى فى هذا الموضوع وهى كلمة تعبر عن رأى جميع الصوفية ، وجميع فلاسفة الإشراق :

« ومن أول الطريق تبتدىء المكاشفات والمشاهدات ، حتى إنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتاً ، ويقتبسون منهم فوائد » .

ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال ، إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ؟

فى القصص القرآنى

للأستاذ أحمد الشايب
وكيل كلية دار العلوم

— ٥ —

٢٦ — وعند هؤلاء الخصوم أن القرآن يفترى الكذب ، وما لا أصل له من التاريخ أو من الأساطير ، فعندهم ، أن قصة موسى فى سورة الكهف لم تعتمد على أصل من واقع الحياة ، وإنما جاء بها القرآن ليسرى عن نفس محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويهوّن عليه من وقع الكلام الذى يطلقه الأعداء فى حقه ، فهذه - عندهم - قصة قد قُصد إليها قصدا ، وبُنيت على أنها أثر من الآثار الفنية التى ابتدعت على غير أساس من التاريخ أو الأسطورة ، ومضت كما تمضى القصة التى ابتدعها الخيال لتؤدى الغرض المقصود منها فى البيئة العربية فى زمن نزول القرآن ، هكذا يدّعون .

هذا الكلام ترديد لما يقوله المبشرون بأن محمدا فى قرآنه كان يخطىء فى الحقائق التاريخية ، وإلى أنه كان يختلق من الحوادث ما لم يقع ، ويصوره على أنه الواقع التاريخى .

ونقول : إن الفصل فى هذه الدعوى مردّه التاريخ الوثيق ، فما الدليل التاريخى على كذب هذه القصة وعدم واقعيتها ؟ إنها دعوى لا دليل عليها ، هى دعوى تبقى كاذبة حتى يؤيدها برهان ، ويبقى القرآن وثيقاً صادقا لذلك ، أما أننا نطير وراء المبشرين ، ونتعلق بأذيالهم بدعوى التجديد ، فأمر يدعو إلى السخرية فوق ما فيه من جهل وضلال مبين .

٢٧ — والقرآن عند هؤلاء يصطنع التدليس ويعتمد عليه فى أداء رسالته ، وقد سموا هذا التدليس : بالواقع النفسى . والواقع النفسى هو المتداول المشهور من الأخبار ، وليس بلازم أن يكون هو الواقع التاريخى . يقولون :

« إن ميدان ذلك هو ميدان الإجابة عن الأسئلة التي كان يوجهها اليهود أو المشركون ، فنستطيع أن نقول إنها ليست بالتاريخ ، وإنما هي تصوير لواقع نفسي عن أحداث مضت أو أغرقت في القدم ، حتى لتشبه أن تكون من الميدان الأسطوري ، تصوير لهذا الواقع النفسي عند المعاصرين للنبي ولنزول الوحي من مشركين وأهل كتاب ، ويستوي هنا أن يكون ذلك الواقع النفسي متفقا مع الحق والواقع أم مخالفاً لهما » .

يقولون ذلك مدعين أن القرآن كان يفعل ذلك مجاراة لأهواء المعارضين ، ترضية لهم حتى يؤمنوا برسالته ، ثم يعقبون على ذلك بقولهم : « ولعل أوضح المثل على أن القرآن كان يعتمد على الواقع النفسي : هو أن القرآن كان يعتمد على الصور الخيالية الصرفة في الوصول إلى مايريد ، كقوله في شجرة الزقوم : « طلعها كأنه رءوس الشياطين » ويقولون عن تصوير القرآن لأخلاق الجماعات : « ولا نستطيع أن نقول هنا بأن هذا كان تصويراً للواقع في جملته وتفصيله ، فقد يكون التعبير الأدبي عن حالات بعينها هو الذي أدى إلى هذه المعاني الخلقية ، ومن هنا نريد أن نلتزم في هذا اللون ما التزمناه سابقا في الحديث عن المعاني التاريخية ، حيث انتهينا إلى القول بتلك الحرية الفنية التي تدفع بالأديب إلى أن يلاحظ الواقع النفسي أكثر من ملاحظته لصدق القضايا وصحتها ، لأن المسألة قد تكون حرب أعصاب لا أكثر ولا أقل » هذا نص كلامهم ولهم غيره كثير ، وربما وصلوا ذلك بقصة ذي القرنين[1] وأهل الكهف[2] ، وما ورد عن الروح[3] ، وكيف أن اليهود سألوا الرسول عنها كأن القرآن أجابهم بما يعتقدون مجاراة لهم ، وإن كانت الإجابة غير واقعية .

(١) ونبدأ أولا بالتفرقة بين التقرير والتصوير ، كما قدمنا ذلك في التمهيد . فهناك فرق بين الأخبار القصصية أو التقريرية التي تحكي أنباء حقيقية قوامها الفكر والعقل ، وبين صور أدبية خيالية تعتمد على التصور ورأى العين أو تخيل الذهن ،

---

(١) الكهف / ٨٣ ـ ٩٨ (٢) الكهف / ٩ ـ ٢٢ (٣) الإسراء / ٨٥ ولعل الروح هنا القرآن .

فرءوس الشياطين من النوع الثانى الذى يعتمد على تصور القوم للشياطين ، وأنها تصيب القوم بالخبل ، فصور لهم شجرة الزقوم بها ترهيباً وتخويفاً [١] ، ذلك غير الأخبار مثل قصة أهل الكهف ، وذى القرنين ، فالربط بين النوعين خطأ واضح ، لا يجوز الاعتماد عليه فى دعوى أن القرآن يعتمد فى قصصه على الواقع النفسى المخالف للواقع التاريخى .

(٢) يأتى بعد ذلك قصة أهل الكهف ، وذى القرنين ، والروح ، فقد روى أن محمد بن إسحاق قال فى سبب نزول الآيات المتصلة بها أن النضر بن الحارث كان يتحدى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيقصّ أخبار فارس معارضة لما يقص من أنباء الأمم السابقين ، ثم ذهب هو وعقبة بن أبى معيط لسؤال اليهود عن محمد ورسالته ، فقال اليهود : سلوه عن ثلاث : عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ، ما كان من أمرهم ؟ فإن حديثهم عجب ، وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها : ما كان نبؤه ؟ وعن الروح : ما هو ؟ فإن أخبركم فهو نبى ، وإلا فهو مُتقوّل .

وأول ما يلقانا هنا أن من المفسرين من رجح أن المراد بالروح هنا هو القرآن الكريم ، لأن هذا المعنى هو المتبادر فى سورة الإسراء كلما ورد فيها ذكر الروح .

ولو سلمنا بصحة ما روى عن ابن إسحاق جملة وتفصيلا ، فإنى أشير على المعترضين أن يرجعوا إلى بحث نشره مولانا أبو الكلام آزاد وزير معارف الهند فى مجلة ثقافة الهند عدد مارس سنة ١٩٥٠ م ، عن شخصية ذى القرنين المذكور فى القرآن ، ليروا أنه انتهى فى بحثه هذا إلى أنها شخصية « قورش » إمبراطور فارس الذى زحف على « بابل » ليخلص أهلها من عسف ملكهم « بيل شازار » .

وأما عن قصة أهل الكهف ، فيبدو أن خصوم القرآن يتابعون المبشرين فى أنها خرافة يونانية [٢] ، فإذا صحت هذه الدعوى ، وصحت معها رواية ابن إسحاق ،

---

(١) راجع الفخر الرازى فى تفسير هذه الآية : « إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رءوس الشياطين » سورة الصافات .

(٢) سانت كلير : تنوير الأفهام فى مصادر الإسلام ص ١٠٠ ، وأكثر ما ادعاه على القرآن خصومه منقول عن هذا الكتاب التبشيرى ، وربما عرضنا له فى مقال آخر .

كان على اليهود أولا : أن يثبتوا صحة معارفهم عن أهل الكهف قبل أن يتحدوا بها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان ثانياً : على المعترضين أن يثبتوا أن هذه القصة خرافة ، فإن لم يفعلوا ، ولن يفعلوا ، فإن دعواهم تبقى بلا دليل ، وإن كانت من دعاوى اليونان .

بقيت مسألة الروح ، فلو سلمنا أن الروح المراد به هذا الجانب المعنوى للإنسان فإن رأى القرآن فيه لا يزال قائماً إلى الآن(١) .

وهكذا يقال فى هذه الأسئلة التى كان يوجهها اليهود والمشركون إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والتى يحدثنا عنها القرآن الكريم .

٢٨ — والقرآن ، عند خصومه ، يزوّر فى القصص مخالفاً بذلك الحق والواقع ، وهو يفعل ذلك نزولا على ظروف محمد الخاصة ، وعلى ظروف الدعوة الإسلامية ، ولسنا هنا نتجنى على هؤلاء الخصوم ، وحسبنا أن نورد هنا بعض فقرات من كلامهم فى هذا الباب ، وهو كثير .

وأول ذلك ورأسه تعريفهم القصة فى القرآن بأنها « ذلك العمل الأدبى الذى يكون نتيجة تخيل القاص لحوادث من بطل لا وجود له ، أو لبطل له وجود ، ولكن الأحداث التى ألمت به لم تقع له أصلا ، أو وقعت له ، ولكنها نظمت على أساس فنى ، إذ قُدمَ بعضها وأُخر الآخر ، أو حذف بعضها وأضيف إلى الباقى بعض آخر ، أو بولغ فى تصويرها إلى حد يخرج بالشخصية التاريخية عن أن تكون حقيقة إلى ما يجعلها فى عداد الأشخاص الخياليين » ، وتطبيقاً لهذا التعريف عندهم ترى دعاوى وفروضا لا تستند على برهان علمى ، وإنما هى أشياء فُرضت على القرآن مقدما ، ثم فُسرت نصوصه تفسيراً تعسفياً جاهلا لعله يسعفهم بما يفترون .

فالقرآن عندهم كان يغير الملامح ويضيف القسمات نزولا على ضرورة العمل الفنى من خلق وابتكار ، وأثر الظروف المحيطة بالنبى ، وأثر القوة الظاهرة وقدرتها على الابتكار والاختراع ، ويوافقون المبشرين فى أن الظروف التى كانت تحيط بالنبى ودعوته كانت تدفع النبى إلى أن ينال بعض القصص بالتغيير والتبديل ،

(١) راجع سورة الإسراء والكهف فى هذه المسائل الثلاث .

والحذف والإضافة لتساير الدعوة وتجرى مع عقائد الدين الإسلامى ومبادئه ، ويوردون ما يمثل به المبشرون لهذا الأصل من موقف امرأة نوح وامرأة لوط وامرأة فرعون ، ويعقبون على ذلك بأن واحداً من هذه المواقف يشبه تمام الشبه موقف زينب بنت النبي من زوجها العاص . يريدون أن القرآن زور قصة امرأة فرعون مشاكلة لموقف زينب ابنته من زوجها هذا الذى لم يكن قد أسلم .

وعندهم أن القرآن فى قصة إبليس مع آدم لم يتشبث بالواقع ، وإنها قصة خيالية خضعت لأثر البيئة ، والظروف المحيطة ، والأزمات القائمة بين النبي ومعاصريه ، وأن القرآن يأخذ مادته من العناصر الأدبية الموجودة فى البيئة ولو لم تكن حقيقية ليكون أشد تأثيراً ، وقصة صالح ومعجزته من الحكايات الشعبية ملاحظة للبيئة وما فيها من أساطير ، وقصة صالح وموسى تفسر المؤامرة التى حيكت لاغتيال النبي ، وأن حرية هذا الفنان فى قصص القرآن تتسع كلما أوغلنا فى القدم ، أو أخذنا من الشخصيات ما كان مجهولا ، إذ عند ذلك تتعارض الصور الذهنية مع الصور الفنية ، وهذا هو الذى نلاحظه بالضبط فى تصور القرآن لشخصيات الرسل والأنبياء ، فقد كان يعطى لنفسه الحرية التامة حين تكون المعلومات العامة عن الشخصية معدومة أو فى حكمها ، فيتحدث عن الأمور التى يقصد إليها فى الدعوة الإسلامية . هذا من كلامهم .

ومعنى هذا عندهم أن القرآن فى هذه الحالة لا رقيب عليه فيخترع ما يشاء ولو كذبا . وعندهم أن قصة موسى فى الأعراف ، وقصته فى يونس ، وقصة نوح فى هود ، كلها قصص لوحظ فيه التاريخ الدينى إلى جانب التاريخ الشعبى ، ثم وجهت التوجيه الذى يلائم الدعوة الإسلامية ، وإن مخالفة القرآن للتوراة والإنجيل تعلل بأكثر من سبب :

(١) فقد يكون ذلك من عمل الفنان الذى لا يعنيه الواقع التاريخى ، ولا الصدق العقلى ، وإنما ينتج عمله ويبرز صوره ويوحى بما يشاء ، وقد ملك الموهبة الفنية والقدرة على الابتكار والاختراع ، أو التغيير والتبديل ، وبعبارة أخرى لأنه يملك من الحرية ما يحرص عليه كل فنان موهوب .

(٢) وقد يكون ذلك من قبيل التغيير والتبديل الذى ينال بعض القصص

بفعل الزمان وانتقال القصة من بيئة إلى أخرى ، إذ عند ذلك ينشط الخيال ويضيف من عنده صوراً يكون فيها شيء من اللذة والمتاع .

يقولون هذا فى سبيل الدفاع عن جهل محمد بالتاريخ ، يدافعون عنه بأنه ـ محمد ـ ذلك الفنان الذى يتصرف فى القصص القرآنى ، على أساس أنه فنان حر موهوب يبتكر ويخترع ، ويزيد وينقص ويقبل القصص المزورة فيوردها فى قرآنه ، وهكذا يكثرون فى هذا الباب[1] .

ألست ترى أن هذه دعاوى وترهات يحاول خصوم القرآن أن يفرضوها عليه بدون سند أو برهان ؟ وكيف ترد على من يلقاك فيقول لك : إنك من سلالة الجن ، أو أنك فى رأيى صورة مشوهة لإبليس اللعين ؟ ! تسأله : كيف ؟ ولماذا ؟ فيجيب هكذا أقول وحسب .

وإلى هنا نجد أنهم اتهموا القرآن (١) بمخالفة التاريخ (٢) وافتراء الكذب (٣) والتزوير (٤) والتدليس .

٢٩ ـــ ومما هو بسبيل ماسبق عندهم أن القرآن كان يخلع شخصية محمد وظروفه على سير الأنبياء والرسل ، فالقرآن يجرى على ألسنة الأشخاص ما يشرح عقائد الدعوة الإسلامية ويؤيد مبادئها ، ومن هنا كانت شخصية النبى هى الأساس أو العامل الأول فى الاختيار ، ومن هنا تقاربت الصور واتحدت فى كثير من الأجزاء ، وهذا يلقى فى الروع أن شخصية النبى العربى قد وضحت فى هذا القصص أكثر من صور غيره من الرسل ، وأسلوب القرآن فى القصص يساير نفسية النبى محمد ، فهو أسلوب لا يشاكل الواقع ، وإنما يمضى على وتيرة واحدة فى القصة الواحدة ، والظروف المحيطة بالنبى العربى هى التى كانت السبب فى أن ينزل القرآن بمثل هذه الآيات ، وكانت الأحوال التى ترد فى قصص الأنبياء هى الأحوال التى كانت تشغل الذهن العربى وقت إرسال محمد ونزول القرآن ، وكذلك الأحوال الواردة فى القصص هى التى كانت تعانيها الجزيرة العربية فى ذلك الوقت .

---

(١) عن مصدر القرآن راجع كتاب : « النبأ العظيم » للمرحوم الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز ، ولعله خير كتاب فى هذا الموضوع .

طعامك وشرابك لم يتسنه ، وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس ، وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً ، فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير . وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبي ، قال فخذ أربعة من الطير فصُرهُنّ إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم »[1] . وإن هاتين القصتين عندهم تفسران وتجسمان عملية الإحياء بعد الإماتة ، وإن بعض المفسرين قال في القصة الثانية إنها لم تقع ، وإنها من قبيل التمثيل ليس غير ، ويقول المستشرقون : إن بعض القصص القرآني ، كقصة أصحاب الكهف أو قصة موسى في سورة الكهف قد بنيت على بعض الأساطير ، ثم يقولون : إن وجود الأساطير في القرآن لا يضيره ، لأن ذلك سبيل الآداب العالمية والأديان الكبرى ، ويكفينا فخراً أن كتابنا الكريم قد سن السنن ، وقعد القواعد ، وسبق غيره في هذه الميادين .

هذه أقوالهم فما الرأي ؟ ! .

٣٢ — وأول ما نقف عنده هو التعريف بالأساطير ما هي ؟ هي الأكاذيب والأباطيل والخرافات التي ليست بوحي من السماء[2] ، وقيل إن الأساطير هي ما سطره السابقون . ويقول الأستاذ الشيخ محمد عبده في تفسير هذه الآية : « إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين » من سورة المطففين . مانصه : والأساطير أحاديث لانظام لها ، أي ذلك كلام مكرر الحكاية ، يأثره الآخر عن الأول ، والخلف عن السلف ، ولكنه ما لا يطابق الواقع ، فهؤلاء واصفون كتاب الله بأنه أساطير الأولين ، وإن لم ينطقوا باللفظ الدال على الوصف ليعللوا أنفسهم بأنهم مسلمون ، وأنهم مع فجورهم ناجون « كلا » إن هذه الآيات ليست بأساطير تسطر ، وأقاصيص تحكى وتؤثر وتعاد وتكرر بدون حقيقة ولا أثر ، بل هي الحق الذي لا مراء فيه ، عرفه منها أهل العدل المتعرضون للرحمة والفضل . . . إلى آخر ما قال[3] .

---

(١) سورة البقرة / ٢٥٩ — ٢٦٠

(٢) راجع الكشاف : ج ٢ ص ٣٢٦ ، والمنار : ج ٩ ص ٦٥٣ ، والطبري : ج ٥ ص ١٤٢ ، ومفردات الراغب : ص ٩٥ ، والقرطبي : ج ١٣ ص ٣ ، ٤ .

(٣) تفسير جزء « عم » ص ٤٣ الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية سنة ١٣٢٢ هـ .

ويظهر أنه لا خلاف فى أن الأساطير أكاذيب وأقاصيص تافهة ليست بوحى من السماء ، وأن القرآن ـ عند الأستاذ الشيخ محمد عبده ـ ليس فيه أساطير ، بل هو الحق المبين ، فلنذكر ذلك .

٣٣ ــ وثانى ما نقف عنده عرض آيات الأساطير ، وهى التى وردت فى القرآن تنعى على من وصفوا بها القرآن الكريم دعواهم ، وهذه الآيات هى :

(١) قال الله تعالى : « ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنون بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين » الأنعام / ٢٥ .

(٢) قال تعالى : « وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين . وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » الأنفال / ٣١ ، ٣٢ .

(٣) وقال تعالى : « وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين » النحل / ٢٤

(٤) وقال تعالى : « بل قالوا مثل ما قال الأولون . قالوا أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون . لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين » المؤمنون / ٨٣ .

(٥) وقال تعالى : « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا . قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيما » الفرقان / ٥ ، ٦

(٦) وقال تعالى : « وقال الذين كفروا أئذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرجون . لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين » النمل / ٦٧ ، ٦٨

(٧) وقال تعالى : « والذى قال لوالديه أفّ لكما ، أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى ، وهما يستغيثان الله ، ويلك آمن إن وعد الله حق ، فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين » الأحقاف / ١٧ .

(٨) وقال تعالى : « ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين . إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين » القلم / ١٠ - ١٥ .

(٩) وقال تعالى: « ويل للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم. إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين. كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » المطففين / ١٠ - ١٤ .

٣٤ — (١) وهنا نعيد ما قلناه فى المقال الأول من إن الجدل فى القرآن الكريم لا يلتزم فى رده منهج المنطق الشكلى بترتيب المقدمات والنتائج ، وإنما كان يجرى فى الغالب على وفق الأساليب التى عرفها العرب « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » فكان جدله إقناعا طبعيا على سنة الفطرة الإنسانية ، وهذا هو مسلكه فى الرد على المعارضين ، ومع ذلك فإن نسق الآيات يمكن بشىء من الفقه أن تكون منه أقيسة منطقية سليمة المقدمات والنتائج ، وعلى هذا الأساس تجد آيات الأساطير تحمل فى أسلوبها الرد على من يدعون على القرآن اشتماله على الأساطير .

(٢) ونبدأ بآيات : المؤمنين ، والنمل ، والأحقاف . لنجد فيها الرد الحاسم على من يقولون إن القرآن لا ينكر ورود الأساطير فيه . قال تعالى فى سورة المؤمنين : « بل قالوا مثل ما قال الأولون. قالوا أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون. لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين » فإذا قلنا مع المعارضين : إن القرآن هنا لم ينف الأساطير عن نفسه ، كان معنى ذلك أنه يوافق الكفار على إنكار البعث والحياة الآخرة ، كيف يصح هذا والله يقول : « ثم إنكم يوم القيامة تبعثون »[١] ، « والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون »[٢] ، « زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم »[٣] .

وهكذا باقى الآيات الواردة فى إنكار البعث على أنه من أساطير الأولين ، فلننظر فى سائر الآيات .

(٣) أما آية المطففين ففيها الرد الصريح الحاسم بلفظ « كلا » وإزاء هذا الرد الصريح بنص القرآن نفسه يقول الشيخ محمد عبده فى تفسيره هذه الآية : « كلا »

(١) المؤمنون / ١٦ . (٢) الأنعام / ٢٦ . (٣) التغابن / ٧ .

إن هذه الآيات ليست بأساطير تسطر وأقاصيص تحكى وتؤثر . بل هى الحق الذى لامراء فيه ، إلى آخر ما مر .

ولكن أصحابنا ، لإصرارهم على باطلهم بتكذيب القرآن الكريم وتحديه يرتكبون خطأين : إغفال باقى النص القرآنى حين يستشهدون به ، لأنه رد حاسم على دعاواهم ، ثم التقول على الشيخ محمد عبده بأنه فتح باب القول بوجود الأساطير فى القرآن الكريم . وأما عن موقف الرازى فسيأتى القول فيه ، وما لقى من هؤلاء من سوء فهم وخيانة علمية .

(٤) وكذلك آية الأنعام تحمل فى طياتها إنكار الأساطير ، فالقائلون بها كفار ، غُلف القلوب ، فى آذانهم وقر ، لا يفقهون القرآن ، دائبون على العناد والمكابرة « حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين . وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون . ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نُرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين » وكذلك الشأن فى آيتى الأنفال ، فالقائلون بالأساطير هم الكافرون الذين يمكرون بالنبى ليحبسوه ويثبطوه أو يقتلوه أو يخرجوه ، ثم لما استمطروا العذاب على رءوسهم ، وهم يستحقونه لرميهم القرآن بالأساطير ، قال الله تعالى : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » فقد وقف العذاب عنهم لوجود النبى فيهم .

وأما آية النمل فإن ما لابسها من الآيات صريح فى أن المدعين بالأساطير هم المشركون « أموات غير أحياء » ينكرون الآخرة ، وسيحملون أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون ، وقد قلنا مراراً إن القرآن لا يلتزم فى جدله تلك الأشكال المنطقية المدرسية ، وإنما يسلك السبيل المألوفة عند العرب من طلب النظر فى الكون ، وإنكار الباطل الكذاب .

وأما آيتا الفرقان ، فقد سبقهما « وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون . فقد جاءوا ظلما وزورا . وقالوا أساطير الأولين » فالمعارضون كفار يقولون بأن القرآن من صنع محمد ومعاونيه ، فقال الله تعالى :

إنه من عنـد الله ، نقول : وإذا كان من عند الله فكيف ينزل الأساطير ، وهى أكاذيب وأضاليل لم تنزل من السماء ؟! .

وأوضح فى الرد آيات سورة القلم ، فإن جوها وما تلاها من آيات رد قاطع على المعاندين، فهم : كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم . . . ثم يقول تعالى : « سنسمه على الخرطوم » جزاء ما ادعى على القرآن من اشتماله على الأساطير .

وهكذا ينكر القرآن اشتماله على الأساطير ، ويرد على خصومه صريحاً قوياً : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » .

٣٥ — (ا) وإذا كان أصحابنا قد تقولوا على الشيخ محمد عبده ما لم يقله ، فقد فعلوا مثل ذلك مع الفخر الرازى بمناسبة تفسيره قوله تعالى من سورة يونس : « بل كذبوا بما لم يحيطوا به ولما يأتهم تأويله »[1] وقبل هـذه الآية أن القرآن لا يُفترى من دون الله ، وأنه يتحدى المشركين أن يأتوا بسورة مثله ، وبعد هـذه الآية تهديد للقوم بهذا التكذيب ، وإنذار بعاقبة مشئومة ، وقد قال الرازى بصدد هذه الآية : « واعلم أن هذا الكلام يحتمل وجوهاً :

الأول : أنهم كلما سمعوا شيئاً من القصص قالوا : ليس فى هـذا الكتاب إلا أساطير الأولين ، ولم يعرفوا أن المقصود منها هو نفس الحكاية ، بل أمور أخرى مغايرة لها ، ثم يذكر هذه الأمور الأخرى فيقول :

فأولها : بيان قدرة الله تعالى على التصرف فى هذا العالم .

وثانيها : أنها تدل على العبرة .

وثالثها : أنه صلى الله عليه وآله وسلم لما ذكر قصص الأولين من غير تحريف ولا تغيير ، مع أنه لم يتعلم ، ولم يتتلمذ ، دل ذلك على أنه بوحى من الله تعالى » .

فكلام الرازى صريح فى أن القرآن يقص للعبرة ، وأنه صادق واقعى ، وأنه بوحى من السماء ، فهل يتفق هذا مع ادعائهم عليه أنه فتح باب الأساطير وأنه يفرق بين شيئين : هيكل القصة ومغزاها ، وأنها أسطورة ، وإذا كانت الأسطورة كذبا ، فكيف يتفق هـذا مع قول الرازى : إن الرسول ذكر قصص

---

[1] تفسير الرازى : ج ٤ ص ٩٥١ .

الأولين من غير تحريف ولا تبديل ؟! وهل العبرة تقوم على الكذب والاختلاق ؟ وإذا كان المكذبون يعتقدون بأن القصص أساطير الأولين ، وأنه غير واقعى ، فكيف يتعظون به ويعتبرون ؟! اللهم إن كانَ كلام الرازى لايسندهم فيما يدعون ، وإذا قال الرازى : إن القصة ليست مقصودة لذاتها ، فهل معنى ذلك أنها أسطورة أو بسبيل الأسطورة ؟ إن القصص القرآنى - كما قلنا كثيراً - لا يرمى إلى التاريخ والقصص لذاته ، ولكنه يرمى إلى العظة وتثبيت قلب النبي - كما قررنا ذلك كثيرا - وهذا هو ما فهمه وقرره الشيخ محمد عبده ، حيث قرر أن المعارف التاريخية ليست مقصودة فى قصص القرآن ، بل المقصود منها ما ذكره القرآن من العظة والاعتبار وتثبيت الرسول .

(ب) وأخرى من التقول والافتيات على الرازى بمناسبة قوله تعالى : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين »[1] ، فقد قالوا : إن الرازى يؤيد وجود الأساطير فى القرآن فى مناسبات أخرى ، حين يجعل أحياناً كلمة « الحق » التى ترد كثيرا فى القرآن بعد بعض القصص ، وصفاً لما فى القصة من توجيهات دينية ، فهو مثلا يقول : « وكلا نقص عليك » ما يأتى .. أما الحق فهو إشارة للبراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة[2].

هذا ما اتهموا به الرازى ، ونحن ننقل هنا عبارة الرازى بنصها[3] شاهداً على تزوير هؤلاء فيما ينقلون من كلام العلماء .

قال الفخر الرازى: قوله تعالى : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » إعلم أنه تعالى لما ذكر القصص الكثيرة فى هذه السورة ذكر فى هذه الآية نوعين من الفائدة :

أولها : تثبيت الفؤاد على أداء الرسالة ، وعلى الصبر واحتمال الأذى .

والفائدة الثانية : قوله : « وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين »

---

(١) هود / ١٢٠ .

(٢) مجلة الرسالة عدد ٧٤٥ ص ٢٢ « وقد قالوا غير ذلك إن القصة حق لما فيها من توجيهات ، ولا يلزم أن تكون فى ذاتها حقا .

(٣) التفسير الكبير: ج ٥ ص ١٤٧ .

وفى قوله : « فى هذه » وجوه : أحدها : فى هذه السورة . وثانيها : فى هذه الآية . وثالثها : فى هذه الدنيا [١] ، وهذا بعيد غير لائق بهذا الموضع ، ثم إنه تعالى بين أنه جاء فى هذه السورة مثلا أمور ثلاثة : الحق والموعظة والذكرى . أما الحق : فهو إشارة إلى البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة . وأما الذكرى : فهى إشارة إلى الإرشاد إلى الأعمال الباقية الصالحة . وأما الموعظة : فهى إشارة إلى التنفير من الدنيا ـ انتهى ما نقلناه عن الرازى .

فالفخر الرازى ليس فيه من قريب ولا من بعيد ما يفتح به على القرآن باب القول بالأساطير ، فإن الحق هو الصدق ، والأساطير ليست صدقا ، وإذا كانت هذه الأنباء فى ذاتها صدقا فهى براء من الأكاذيب والأضاليل .

(ج) بقيت كلمة بمناسبة ما تقولوا على الشيخ محمد عبده من فتحه باب الأساطير فى القرآن ، وقد بينا أنه نفى الأساطير عن القرآن فى تفسيره آيات المطففين [٢] ، مصداقا لنص القرآن الصريح .

ثم قالوا : إن الشيخ محمد عبده قد لاحظ أن القرآن قد يأتى فى الحكاية بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين ، أو المحكى عنهم ، وإن لم تكن صحيحة فى نفسها ، كقوله تعالى : « كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » ونحن قد أجبنا عن ذلك فى المقال الأول ، بأن هذا أسلوب تصويرى ، وهو غير الأسلوب القصصى ، والتصوير يمس الخيال ، وليس بلازم أن يكون له مرد واقعى ، لأنه يعتمد على تصور المخاطبين لا غير ، وأما أن الأستاذ الإمام يجيز أن يكون القرآن قد أجرى أساليبه ـ كما هو المعروف عند الأدباء ـ لجعل الخرافات الوثنية أداة للتعبيرات البلاغية . . فقول يعوزه البرهان ، لأن الصورة الخيالية غير القصة الأسطورية .

« ويل للمكذبين . الذين يكذبون بيوم الدين . وما يكذب به إلا كل معتد أثيم . إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين . كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » . وصدق الله العظيم ؟

---

(١) أقول : ولم لا يكون اسم الإشارة راجعاً إلى الأنباء ؟ لعل هذا الغرض أقرب إلى سياق الآية . أحمد الشايب .

(٢) تفسير جزء عم : ص ٣٠٤ من الطبعة الأولى .

قمر الخالق وقمر المخلوق

للشاعر الكبير الأستاذ على الجندى
عميد كلية دار العلوم السابق وعضو بمجمع اللغة العربية

« هُوَ الذى جعل الشمس ضِياءً والقمر نُوراً ، وقدَّره منازلَ ، لتعلموا عددَ السنينَ والحساب ، ما خلق اللهُ ذلك إلا بالحق ، يُفصِّل الآياتِ لقومٍ يعلمون »

(١) فى رحاب السماء

القبة الزرقاء :

إذا كنا فى أرض خلاء ، ونظرنا فوقنا رأينا قبة زرقاء خلابة تسمى السماء ، تذكر وتؤنث ، قال تعالى : « إذا السماء انفطرت » ، « السماء منفطرٌ به » ، وجمعها : أسمية وسموات ، وهى أكبر وأبهر آيات الخالق المبدع « أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها » .

هذه السماء منذ أن رمقها الإنسان ببصره فتنت لبه ، وشغلت خاطره ، وبخاصة الشعراء الذين لا يملون السبح فيها بأخيلتهم المجنحة . يقول فيها أحدهم :

كأنَّ سماءَنا والشهبُ فيها ... وأصغرُها لأكبرِها مزاحِمْ
بِساطُ زُمرُّدٍ نثرت عليه ... دنانيرٌ تخالطُها دراهمْ

الدنانير : للكواكب الحمر والصفر ، والدراهم : للكواكب البيض .

وقيل لضرير : ما تحب أن ترى ؟ قال : وجه السماء . قيل : لم خصصته بذلك ؟ قال : لأن الله عز وجل يقول : « ولقد زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب » فهل أحسن مما وصفه الله تعالى بأنه زينة ؟ ! .

كثرة وعظمة :

وهذه الأجرام التى تزين السماء لا يعلم عددها إلا خالقها ، ولا يمكن أن يرى بالعين المجردة منها إلا نحو ثلاثة آلاف ، أطلق على المعروف منها أسماء خاصة ، وفى ذلك يقول الشاعر العربى :

فنحن الثريا وعَيّوقها ونحن السِّماكانِ والمِرْزَمُ
وأنتم كواكبُ مجهولةٌ تُرى فى السماءِ ولا تُعلمُ

كما أن بعضها من الكبر ، بحيث يمكن أن يبتلع ثلاثين مليوناً من أمثال شمسنا ، وبعضها يستغرق ضوءُه فى الوصول إلينا خمسين ألف سنة ضوئية ، والسنة الضوئية تعادل عشرة ملايين مليون كيلو مترا ، ولكنها تُرى صغيرة لبعدها الساحق عنا ، وإلى ذلك يشير الكتاب العزيز « فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » ويقول البحترى :

إن النجومَ نجوم الليل أصغرُها فى العين أذهَبُها فى الجوِّ إصعاداً

وبديهى أن هذه الأجرام طالعة ليلا ونهارا ، ولكن الشمس تغطى عليها فى النهار ، وفى ذلك يقول النابغة للنعمان بن المنذر :

فإنك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكبُ

فلو طُمِست الشمس بالكسوف أو بغيره كالغبار مثلا ، لظهرت هذه الأجرامُ كما تظهر بالليل ، ويقول المؤرخون : إنه فى معركة يوم حليمة المشهور بين الغساسنة والمناذرة ، ارتفع الغبار حتى حجب الشمس ، فأظلمت الآفاق ، ورئيت الكواكب نهارا .

المجموعة الشمسية :

وبعض هذه الأجرام تكوّن سماءنا ، ويطلق عليها اسم المجموعة الشمسية ، أى الأسرة الشمسية - وتسمى فى الفلك القديم : الكواكب السبعة ، أو السيارات السبعة ، أو الشهب السبعة ، أو الدرارىّ السبعة - كانت فى زعم القدماء تدور حول الأرض التى هى مركز الكون ، وترتيبها بحسب قربها من الأرض أو ارتفاعها كما يلى : القمر . عطارد . الزهرة . الشمس . المريخ . المشترى . زحل .

من هؤلاء السبعة خمسة كواكب يذهب المفسرون إلى أنها المقصودة بقوله تعالى : « فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس » وهى عُطارد والزُّهرة والمريخ والمشترى وزُحل .

وأسماؤها عند العرب مشتقة من صفاتها ، فعطارد من المَطْرَدَة ، وهى السرعة والخفة ، وهو أصغرها وأقربها من الشمس ، وفى ذلك يقول الشاعر :

ولا أكونُ بينكم عُطارِدا   لِقربه من كرة الشمس احترق

والزهرة مشتقة من الزاهر ، وهو الأبيض النيِّر من كل شىء ، والمريخ من المرخ ، وهو شجر تحتك بعض أغصانه ببعض فتورى نارا ، سمى بذلك لاحمراره ، ويسمى بالفارسية : بهرام . والمشترى من الشراء ، سمى بذلك لحسنه ، كأنه اشترى الحسن لنفسه ، وهو أكبر السيارات . وزحل من الزحل ، وهو البطء ، واسمه بالفارسية : كيوان ، وهو مع جماله الباهر يتسم بالنحس ! يقول ابن حجاج :

مالِى أرَى بيتَ مالِى حَلَّهُ زُحلٌ ؟!   وحَسْبُه مِن بعيدٍ أن يرَى زُحَلا

الكشف العلمى :

أما الفلك الحديث فقد غير وبدل فى هذه الأوضاع ، بفضل الفتوحات العلمية المعتمدة على الأبحاث العميقة ، والمراقب الكاشفة ، والرصد الدقيق ، فأنزل الشمس حيث أنزلها الله من العظمة والجلال ، فجعلها مركز الدائرة ومحورها ، ونزل بالأرض فجعلها كوكبا سيارا يدور حول الشمس مع أخواتها السيارات ، ولم يخدع بكبر القمر فى مرأى العين ، ولم يفتتن بجماله وبهائه ، فنزل به كذلك إلى منزلة تابع صغير يدور حول الأرض ، ثم زاد على بقية السيارات القديمة ثلاثة كواكب أخرى سيارة ، كشفها على التوالى ، وهى : « أورانوس » و « نبتون » و « بلوتو » أو أفلاطون ، وبذا أصبحت الكواكب السيارة الدائرة حول الشمس تسعاً ، مرتبة بحسب بعدها عن الشمس كما يلى : عطارد . الزهرة . الأرض . المريخ . المشترى . زحل . أورانوس . نبتون . بلوتو .

هذا إلى تغيير آخر فى الاصطلاحات الفلكية نجملها فيما يلى :

الشمس فى الفلك القديم واحدة فقط وإن جمعت على شموس بحسب كل ناحية منها ، وفى الفلك الحديث يقدّر عددها على الراجح بعدد ما على شواطىء البحار من حبات الرمال .

النجوم والكواكب فى الفلك القديم : أسماء مترادفة ، إلا أن الكوكب يقع على واحد فقط ، والنجم يقع على واحد وعلى جماعة .

وفى الفلك الحديث ، النجوم هى الشموس .

القمر فى الفلك القديم : يقع بعد الشمس في المنزلة والقدر ، وهو قمر واحد ، وإن جمع على أقمار ، قال المعرى :

وما البدرُ إلا واحدٌ غيرَ أنه يَغيبُ ويَأتى بالضّياءِ المجَدَّدِ

فلا تَحسب الأقمارَ خَلقاً كثيرةً فجملتُها مِنْ نيِّرٍ متردِّدِ

وفى الفلك الحديث : القمر تابع يدور حول كوكب سيار ، وقد يتعدد ، فللأرض قمر ، وللمريخ ونبتون قمران ، ولأورانوس خمسة ، ولزحل تسعة ، وللمشترى اثنا عشر ، وليس لعطارد والزهرة وبلوتو أقمار .

الشهب فى الفلك القديم : تطلق على الكواكب المتحركة الدرية : أى المضيئة ، ومنها الكواكب السيارة ، ومنها نجوم القذف ، وهى الشعل التى تسقط على الأرض .

وفي الفلك الحديث : كتل من المعادن أو الصخور انفصلت عن مذنّبات ، وهى تتحرك بسرعة عظيمة جداً ، فتحترق قبل وصولها إلى الإرض بسبب احتكاكها الشديد مع الهواء ، مخلّفة وراءها أثراً لامعاً من رماد مضىء ، وقد يصل بعضها إلى الأرض .

ويذكر صاحب النجوم الزاهرة : أنه فى سنة تسع وخمسين وثلاثمائة هجرية ، انقض كوكب عظيم بألوان أضاءت به الدنيا ، حتى صار كأنه شعاع الشمس ، وسمع فى انقضاضه صوت كالرعد الشديد ، فهال ذلك الناس وارتجفوا له .

وفى وصف الشهب يقول بعض الشعراء :

وكوكبٍ أبصرَ العفريتَ مُسترقاً للسّمع فانقضَّ يُذْكِى إثره لهبَهْ

كفارسٍ حلَّ من تيهٍ عمامتَهُ وجرّها كلها من خلفِهِ عَذَبَهْ

(ب) قمر الخالق :

بعد هذا التمهيد نرتقى إلى أبهى وأجمل الآيات السماوية ، إلى قمر الخالق ، القمر الذى كلنا نحبه ، وإن كنا لا ندرى مَن الحبيب إليه !.

اشتقاقه :

للغويين فى اشتقاقه قولان :

أحدهما : أنه مشتق من القُـمْـرة بوزن غرفة ، وهى شدة البياض ، أو هى لون إلى الخضرة ، أو هى بياض فيه كدرة .

والثانى : أنه من القَـمْـر مصدر قمره كنصره : إذا راهنه فغلبه ، ومنه القمار ، لأنه يقمُـر النجومَ ضياءها ، فلا تُرى فى ظهوره ، كما تُرى فى مغيبه .

ويسمى هلالا لليلة أو لليلتين أو لثلاث أو لسبع ، وقمرا إلى آخر الشهر ، وقيل : يسمى هلالا أيضاً فى ليلة ست وعشرين ، وسبع وعشرين ، ومما يدل على أنه يسمى هلالا فى آخر الشهر قول الشاعر :

انظر إلى الصُّبحِ المنير وقد بدا يغشَى الظلامَ بمائهِ المتدفقِ
غرِقت به زُهرُ النجومِ وإنما سَلِمَ الهلالُ لأنه كالزَّورقِ

ولياليه لها أسماء معروفة ، فالأولى تسمى غرة الشهر ، والليلة الثالثة عشرة تسمى ليلة السَّواء ، لاستواء ليلها ونهارها فى الضياء ، ويسمى القمر فيها باهرا ، لأنه يبهر الكواكب ، أى يغلبها ويفضحها ويغمُّها ، قال الأعشى :

حكمتُموه فقضى بينكم أبلجُ مثلُ القمرِ الباهرِ

والليلة الرابعة عشرة تسمى ليلة الاستقبال ، لأنه يستقبل الشمس والأرض فيها بكل وجهه ، وليلة الامتلاء ، لامتلائه فيها نورا ، ويسمى هو بدرا ، وقمرا بدرا حتى يقع فى السبع البواقى ، وعند ما يكون بدرا يشرق مع غروب الشمس ، وفى ذلك يقول الشاعر :

لما رأيتُ البدرَ فى أفقِ السماء وقد تدلى
ورأيتُ قرنَ الشمس فى أفق المغيبَ وقد تحلى

شبهتُ ذاك وهـــذه وأرى تَشبيهَما أجلا
وَجه الحبيبِ إذا بَدا وقفا الحبيبِ إذا تولى

ويقال لليلة ثمان وعشرين : الدعجاء ، ولليلة تسع وعشرين : الدهماء ، ولليلة ثلاثين : الليلاء ، وذلك لظلمتها ، وأنه لا هلال فيها ، ويسمونها أيضاً : ليلة البراء ، لتبرىء القمر من الشمس ، وليلة السِّرار ، لأن القمر ينكتم فيها كما ينكتم السر ، وهذه الثلاث هى المحاق ، لأن القمر ينمحق فيها ولا يبقى له أثر .

ويقال لليالى التى يطلع فيها ليله كله ومن دونه سحاب ، فترى ضوءاً ولا ترى قمراً فتغترَّ بذلك ، فتظن أنك قد أصبحت : المحمِقات ، ويذكرون : أن الحريرى صاحب المقامات ـ وكان قبيح الوجه ـ جاءه إنسان يتلقى عنه العلم ، فلما رآه استزرى شكله ، ففطن الحريرى إلى ذلك ، فلما طلب منه أن يملى عليه ، أملى عليه قوله :

ما أنت أول سارٍ غرهُ قمرٌ ورائدٍ أعجبته خضرة الدِّمنِ
فاختر لنفسك غيرى إننى رَجل مثلُ المَعيدىّ : فاسمع بى ولا ترنى

فخجل الطالب وذهب ولم يرجع .

أجمل الليالى :

ويقال لليلة التى يطلع فيها القمر من أولها إلى آخرها : القمراء والكراء بالكاف ، والقمِرة والمقمِر والمقمرة .

وهذه الليلة عرس الدنيا وبهجة الزمن ، وهى إحدى الأمنيَّات الثلاث التى اقترحتها الفتاة العربية على أبيها : قمر دائم ، وربيع دائم ، وشباب دائم .

وفيها يقول بعضهم : سافروا فى هذه الليالى ، أى القمرية ، فإن أنس القمر يَذهب بوحشة السفر .

وسئل الخليفة عبد الملك بن مروان عن الباقى من لذته ، فقال : محادثة الإخوان فى الليالى القُمْر ، على الكثبان العُفْر ، أى الرمال التى اختلط بياضها بالحمرة .

وفيها يقول الشاعر :

هل لك فى ليلة بيضاء مقمرة كأنها فِضة ذابت على البلد

وقيل لرجل : أى النساء أحب إليك ؟ .

قال : بيضاء بُهْتُرة(١) ، حالية عَطِرة ، حَيِيَّة خَفِرة ، كأنها ليلة مُقمرة .

ويقول أعرابى فى محبوبته :

ألا حبَّذا البُرد الذى تلبسينه ويا حبذا من باعكِ البرد من تجْرِ
فلو كنتِ ماء كنتِ ماء غمامة ولو كنت دُرا كنت من درة بِكر
ولو كنت مسكا كنت من مسك «طيبة» ولو كنت طيبا كنت من عنبر البحر
ولو كنت لهواً كنت تعليل ساعة ولو كنت نوماً كنت إغفاءة الفجر
ولو كنت ليلا كنت قمراء جنبت نحوس ليالى الشهر ، أو ليلة القدر

منزلة القمر عند الخالق والمخلوق :

بلغ من عظمة القمر عند خالقه ـ سبحانه وتعالى ـ أن ذكره فى كتابه الحكيم خمساً وعشرين مرة فى أربع وعشرين سورة ، وسميت سورة باسمه ، وهى : سورة القمر . وأقسم به ثلاث مرات : « كلا والقمر » . « والقمر إذا اتسق . » والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها » .

ومن الآداب الشرعية : عدم استقبال القمر أو استدباره وقت قضاء الحاجة ، وعدم المباشرة الجنسية تحته ، وتحت السماء أيضا .

والعرب يحبونه أكثر من الشمس ، وهو فى كلامهم أكثر دورانا ، لأنسهم به ، وجلوسهم فى نوره للسمر ، وللهداية به فى سُرَى الليل ، لذلك غلبوه عليها ، فقالوا : القمران ، أى الشمس والقمر ، وهو كذلك أحسن وأجمل ، قيل لأعرابى : الشمس أحسن أم القمر ؟ قال : القمر أحسن ، والشمس أجهر ، أى أظهر . فقيل له : وكيف صار القمر أحسن ؟ قال : لأن العيون عليه أجسر .

ويقول بعضهم : ما فقدتُ القمر إلا فقدت أخا أنيسا .

وضل أعرابى طريقه فى ليلة مظلمة ، ثم طلع القمر فاهتدى ، فرفع رأسه إليه وقال : ماذا أقول لك ؟ إن قلت : رفعك الله فقد رفعك ، وإن قلت : نوَّرك الله

(١) البهترة ، بوزن لؤلؤة : القصيرة .

فقد نوّرك ، وإن قلت : حسّنك الله فقد حسنك ، وإن قلت : عمّرك الله فقد عمرك ، ولكنى أقول : جعلنى فداك !!.

والمعبِّرون للرؤى يقولون : إن القمر فى المنام يدل على امرأة عظيمة القدر ، فمن رأى القمر فى بيته ، تزوج بامرأة جليلة الشأن ، والهلال يدل على ولد مبارك ، أو ولاية جليلة ، أو ربح فى تجارة ، أو نصر على عدو .

خسوف القمر :

يُتم القمر دوراته حول نفسه فى المدة التى يُتم فيها دوراته حول الأرض ، وهى سبعة وعشرون يوما وثلث يوم تقريبا ، لذلك لا يُرينا منه أبدا إلا وجهاً واحداً ، وهو بهذا يلقى علينا درساً فى مكارم الأخلاق ، كأنه يذكرنا بالأثر الشريف « شرُّ الناس ذو الوجهين : الذى يأتى هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه » . « إن ذا الوجهين لن يكون عند الله وجيها » .

وهو - كما نعلم - كوكب معتِم يستمد نوره من الشمس ، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم . « هو الذى جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً » ، والنور شعاع الضوء .

وقد عرف الشعراء المثقفون ذلك منذ أمد بعيد ، يقول ابن المعتز :

يا مفرداً بالحسن والشكل　　مَن دلَّ عينيك على قتلى ؟

البدر من شمس الضحى نوره　　والشمس من وجهك تستملى

كما عرفوا أنه يكسف الشمس ، وأن الأرض تكسفه وهو بدر .

يقول البستى يرثى الصاحب بن عباد :

فقدناه لما تم واعتم بالعلا　　كذاك كسوف البدر عند تمامه

ويقول فى كسوفه للشمس :

لئن كسفونا بلا علة　　وفازت قداحهُمَ بالظفر

فقد يكسف المرء مَن دونه　　كما يكسف الشمس جِرم القمر

وفى خسوف الأرض له يقول تاج الدين المالكى :

مذ واصل الخل شمس الراح قلت له :　　الشمس لا ينبغى أن تدرك القمرا

فقال معتـــذراً : لو حيل بينهما وافى الخسوف لبـدر التمّ مبتدرا

يشير إلى أن سبب خسوف القمر حيلولة الأرض بينه وبين الشمس .

ومن طرائف الخسوف : أن شاعراً أندلسيا فلكيا ماتت له حبيبة ، فأقام لها حفل تأبين ، راصدا خسوف القمر ! وحين دنا الخسوف قام فأنشد :

شقيقكَ غُيِّب فى لحــده وتطلع يا بدر من بعدِه
فهلا خسفت فكان الخسوفَ حِداداً لبست على فقــده

فما أتم كلامه حتى دخل القمر فى الخسوفَ ، فعد ذلك من العجائب .

ويقول صَرَّدُرّ فى مليحة سوداء :

عشقتها سوداء مصقولة سَواد عينى صفة فيها
ما انـكشف البدر على تمّـه ونوره إلا ليحـــكيها
من أجلها الأزمان ، أوقاتها مـؤرخاتٌ بليــاليهــا

والـكسوف والخسوف : ظاهرة طبيعية ، ولـكن الدّجاجلة من رجال الدين فى الزمن الغابر كانوا يستغلونها فى تخويف النـاس ، وبسط سلطانهم عليهم ، وابتزاز أموالهم .

وفى عهد الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ انـكسفت الشمس ، ووافق ذلك موتَ ابنه إبراهيم ، فقال الناس على جارى اعتقادهم : أنها كسفت لأجله ، فقال الصادق المصدوق : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله » وهذا الحديث من أسطع دلائل النبوة .

ولـكن من العجائب أن هـذه الظاهرة كثيراً ما تصادف الأحداث المثيرة ، ففى سنة خمسين حج معاوية ، وأراد نقل منبر الرسول من المدينة إلى الشام ، فلما حُرك كسفت الشمس ، ورؤيت الـكواكب نهارا ، ففزع معاوية من ذلك وأعظمه ، ورده إلى موضعه ، وزاد فيه ست مراق .

ويوم مات الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى كسفت الشمس .

ومات الأمير محمد بن عبد الله بن طاهر وقت خسوف القمر ، فقال الشاعر الحسن بن على بن طاهر :

خَسف البدرُ والأمير جميعاً فانجلى البدر والأمير غميد
عاود البدرَ نوره لتجليه ونور الأميرِ ليس يعود

ويجوز لغة استعمال الكسوف والخسوف فى الشمس والقمر معا ، ولكن الأفصح والأشهر استعمال الكسوف فى الشمس والخسوف فى القمر .

ظواهر خلابة :

فى يوم ١٧ / ٣ / ١٩٥٨ جاء من واشنطون : أنه حدثت اليوم ظاهرة جوية غريبة لفتت أنظار كثيرين من علماء الفلك ، إذ اقترب كوكب الزُّهرة من القمر إلى حدٍّ أن كثيرين ظنوه سفينة من سفن الفضاء توقفت على مقربة منه ، فراحوا يتصلون بالصحف ، ومحطات الأرصاد الجوية ، لاستطلاع حقيقة هذه الظاهرة .

وقد صرح أحد العلماء الفلكيين الأمريكيين : بأنه لم يشهد خلال السنوات الثلاثين التى قضاها فى رصد الكواكب ظاهرة كتلك الظاهرة التى اقتربت فيها الزهرة من القمر ، حتى بدت للناظر كما لو كانت قد اتصلت به فعلا .

هذه الظاهرة الخلابة والمروعة معاً ، تسمى : « قرانَ الكواكب » وقد كان الأقدمون يعتقدون أن القران الحقيق يجوز وقوعه ، يقول أبو معشر : اجتماع الكواكب ممكن ، وما رأيته قط ، ولا بلغنى أن أحداً رآه ، ولكن سمعت مشايخنا يقولون : إنما يحدث الملك العظيم الكبير من القرانات العظيمة .

والحق : أن القرانات لا تحدث إلا فى مرأى العين فقط ، وهى كثيرة وبديعة ، وأخطرها شأنا قران زحل والمريخ .

يذكر الأستاذ العقاد فى كتابه عبقرية المسيح : أن هذا القران حدث وقت ميلاد المسيح عليه السلام ، وأنه كوكب بيتِ لحم الذى رآه المجوس فى الشرق ، ويرى بعضهم أن كوكب بيت لحم كان الزهرة .

ويقول الفلكيون : إن قران زحل والمريخ يقع كل خمسمائة سنة مرة ، ويكون مصاحباً لحادث عظيم .

ويروى صاحب النجوم الزاهرة : أنه فى يوم الاثنين منتصفِ ربيع الأول

وقت الظهر سنة ٤٨٥هـ ، حدث قران زحل والمريخ وهما فى برج السرطان ، وذكر المنجمون : أن هـذا القران لم يحدث مثله فى هـذا البرج منذ بعثة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى هذه السنة .

ويقول صاحب مرآة الزمان : وكان تأثير هـذا القران « المذكور » موت مَلِـكشاه السَّلجوقىّ سيد الملوك ، ومقتل نظام الملك سيد الوزراء .

أما القمر فيقارن كثيراً من الكواكب - وهو هلال - ويؤلف معها مشهداً ريداً أخاذاً ، ولـكنّ أكثر قِرانه يقع مع الزهرة ، حتى لقبها « شوقى » بجارة الهلال ذلك حيث يقول :

واف لجارة بيته يَرعى لها عهد السَّموءل عروة وحِبالا

وقـد أكثر الشعراء من وصف قران الهـلال والزهرة ، ومن ذلك قول بى عاصم البصرى :

قارَن الزُّهرة[1] الهلال وكانا فى افتراق ما بين صَد وهِجْرة
وإذا ما تقاربا قلت : طوقٌ مِن لجين قد عُلقت فيـه دُرَّه

ويقول آخر :

والجوُّ صاف والهلال مشـنّفٌ بالزُّهرة الزَّهراءِ نحو المغربِ
كصحيفة زرقاء فيهـا نقطة من فضة من تحت نون مذهب

الكوكب الساحر !

ليس هناك كوكب سماوى نال حظاً من عناية الأدباء والشعراء مثلما نال القمر ، فقد وصفوه منذ أن كان هلالا إلى أن كان بدراً بأجمل الأوصاف ، وشبهوه بأشياء كثيرة ، بلغت فى الهلال وحده نحو سبعين تشبيها ، ولم يستطع كوكبٌ سماوى آخر أن ينافسه ، غير كوكب عرف بسحره وفتنته ، وهو الثريا .

وللشعراء فى استجلاء الهلال مُلح ولُمَح تفوق الحصر ، منها قول الخُـزَأُرزّى :

رأيتُ الهـلال ووجه الحبيب فـكانا هـــلالين عند النظر

(١) الزهرة - بضم الزاى وفتح الهاء - وسكنت هنا للضرورة .

فلم أدرِ مِن حَيرتى فيهما هلال الدُّجى من هلال البشر
فلولا التورد فى الوجنتين وما راعنى من سواد الشعر
لكنت أظن الهلال الحبيب وكنت أظن الحبيب القمر

وقول آخر :

رأيت الهلال على وجهها فلم أدر : أيهما أنور ؟!
سوى أن ذاك قريب المزار وهذا بعيد لمن ينظر
وذاك يغيب وذا حاضرٌ وما مَن يغيب كمن يحضر
ونفع الهلال كثير لنا ونفع الحبيب لنا أكثر

وكان مكتوباً على عصابة « ورد » جارية الماهانى :

تمت وتم الحسن فى وجهها فكل شىء ما سواها محال
للناس فى الشهر هلال ولى فى وجهها كل صباح هلال

وأم الأهاليل عندهم هلال شوال ، لأنه يوفى بعيد الفطر ، ولأنه يرفع عنهم قيود الصوم ، يقول السرىُّ الرّفاء :

ضحكت أوجه اللذاة بالفطر ولاحت طوالع السراء
وكأن الهلال نون لجين غرقت فى صحيفة زرقاء

ومن النوادر : أن الملك المعظم بن الملك العادل الأيوبى طلع إلى مئذنة دمشق لرؤية هلال شوال ، ومعه القاضى والشهود ، فلم ير أحد منهم الهلال ، ولكن جارية من جواريه رأته ، فقال الملك المعظم لابن القصار الشاعر : قل فى ذلك شيئاً ، فقال :

توارى هلال الأفق عن أعين الورى وغطّى بستر الغيم زهواً محيّاه
فلما أتاه لاجتلاء شقيقه تبدّى له دون الأنام فحيّاه

أما وصفه بدراً ، فمن أجمع ما قيل فيه قول المعتمد بن عباد :

ولقد شربت الراح يسطع نورها والليل قد مد الظلام رداءَ
حتى تبدّى البدر فى آفاقه مَلِكاً تناهى بهجة ورواءَ

لما أراد تنزُّهاً فى غربة جعل المظلة فوقه الجوزاءَ
وتناهضت زُهرُ النجوم يحفه لألاؤها فاستكمل اللألاء
وترى الكواكب كالمواكب حوله رفعت ثريّاها عليه لواء

ومن قولهم فيه، وهو يبدو من تحت السحاب مرة ويختفى أخرى :

والبدر فى الأفق الغربى متسق والغيم يكسوه جلباباً ويسلبه
كوجه محبوبة تبدو لعاشقها فإن بدا لها واشٍ تنقبه

ومن مناجاته قول الأكتمى :

يا قمر الليل كن شهيدى فأنت من أعدل الشهود
هل نمت أو ذقت طعم غمض مذ هجعت أعين الرقود
فكن شفيعى إلى حبيب قد زاد فى كثرة الصدود

القمر فى الأمداح :

يوصف كرام الرجال بأنهم أقمار فى علو المكانة، وسعود الجد، وهداية الضلال.
وقد يشبِّهون به أيضاً فى حسن المحيا وبهاء الطلعة، إذا كانوا على حظ من الجمال.
ولا يستحى عظيم من العظماء أن يوصف بأنه قمر فى سناه وبهجته، لأنه إنما يوصف بآية من آيات الخالق، جعلها زينة لسمائه، وهداية لأرضه.

سئل على بن أبى طالب ـ عليه السلام ـ : أكان وجه رسول الله مثل السيف ؟ قال : لا، ولكن مثل القمر.

وكان عمر ـ رضى الله عنه ـ إذا رآه ينشد قول زهير :

لو كنت من شىء سوى بشر كنت المنور ليلة البدر

ويقول فيه شاعره حسان :

متى يبد فى الداجى البهيم جبينه يلح مثل مصباح الدجى المتوقد

ويقول المتنبى لابن عبد الوهاب ـ وقد جلس ابنه إلى جوار مصباح ـ :

أما ترى ما أراه أيها الملك؟ كأننا فى سماءٍ ما لها حُبُك
الفرقدُ ابنك والمصباح صاحبه وأنت بدر الدجى والمجلس الفلكُ

ومن أبدع ما قيل فى ذلك قول ابن سكّره الهاشمى فى الأمير بختيار :

فديتُ وجه الأمير من قمر يجلو القذى نوره عن البصر
فديت مَن وجهه يشككنى فى أنه من سلالة البشر
إن زُليخا لو أبصرتك لما ملت إلى الحشر لذة النظر
ولم تقس يوسفا إليك كما نجم السها لا يقاس بالقمر

القمر والوجوه الجميلة :

من العادة المأثورة التى ثبتت واستمرت ، حتى غدت قانونا متعالَماً موروثاً : تشبيه كل ذى حسن وجمال بالقمر ، فالرجل العامى يقول للحسناء : يا أمر ، يا أمّورة . والشاعر الشعبى يقول : يامه الأمر ع الباب .

ولعله من المصادفات العجيبة أنه فى أثناء كتابتى هذا الموضوع ، قرأت فى الصحف ظهور ثلاث أغنيات ، وهى : دا الأمر و ّلا العروسة ، زى الأمر ، و ّشك و ّلا الأمر .

أما الخاصة وهم الأدباء والشعراء ، فيجرون فى تشبيه الوجوه الحسان بالقمر على فنون كثيرة ، مفرغة فى قوالب البيان الساحر ، نذكر منها على سبيل التمثيل النماذج الآتية :

يقول أبو بكر الخوارزمى فى جارية طُلبت منه ببدرة ــ والبدرة عشرة آلاف درهم :

يا طالباً روحى ليبتاعها أنت رسول الهمِّ والحسرة
غدوت بالبدرة فارجع بها لست أبيع البدر بالبدرة

ويقول المتنبى :

ولما التقينا والنوى ورقيبنا غفولان عنا ظلْت أبكى وتبسم
فلم أر بدراً ضاحكا قبل وجهها ولم تر قبلى ميتاً يتكلم

ويقول :

نشرت ثلاث ذوائب من شعرها فى ليلة فأرت ليالى أربعاً
واستقبلت قمر السماء بوجهها فأرتنى القمرين فى وقت معاً

ويقول ابن المعذّل :

نظرت إلى من زيّن الله وجهها فيانظرة كادت على عاشق تقضى
فكبّرت عشراً ثم قلت لصاحبي: متى نزل البدر المنير إلى الأرض

ويقول ناظر الدولة أبو المطاع :

ترى الثياب من الكتان يلمحها نور من البدر أحياناً فيبليها
فكيف تنكر أن تبلى غلالتها والبدر فى كلّ يوم طالع فيها ؟

وكانوا يعتقدون : أن ضوء القمر يبلى ثياب الكتان .

ويقول الناجم فى الحسناء البعيدة المنال :

طالبت مَن شرد نوى وهجر بقبلة تحسن فى القلب الأثر
فقال لى مستعجلا وما انتظر : ليس لغير العين حظّ فى القمر

ويقول ابن الرومى :

يا شبيه البدر فى الحسن وفى بعد المنال
جد فقد تنفجر الصخرة بالماء الزلال

ويقول ابن الجهم :

وقالوا لنا : نحن الأهلة ، إنما نضىء لمن يسرى بليل ، ولا نقرى
فلا نيْل إلا ما تزوّد ناظر ولا وصل إلا بالخيال الذى يَسرى

وبعض الشعراء لا يرضى تشبيه محبوبته بالبدر .

يقولو قيس لبنى :

إذا عبتها شبّهتها البدر طالعاً وحسبك من عيب لها شبه البدر
لقد فُضّلت لبنى على الناس مثلما على ألف شهر فضلت ليلة القدر

ويقول شاعر :

قد قلت للبدر واستعبرت حين بدا: ما فيك يا بدر لى من وجهها خلف
تُبدِى لنا كلما شئنا محاسنها وأنت تنقص أحياناً وتنكسف،

ويقول آخر :

ما أنت مادحها يا من تشبّهها بالشمس والبدر، لا، بل أنت هاجيها
من أين للشمس خال فوق وجنتها ؟ أو أين للبدر طعم الشهد فى فيها ؟

ويقول الصابى :

لما رأت بدر الدُّجى تائهاً . وغاظها ذلك من شيمته
أزاحتِ البرقع عن وجهها فردت البـــدر .إلى قيمته

ومن التصوير اللطيف قول الصابى :

أتانى البـدر باكياً خجـلا فقلت : ما ذا دهاك يا قمر ؟!
قال : غزال أتى ليغزونى بحسنه فالفؤاد منفطـر
فقلت : قبِّـل ترابه عجـلا واسجد له . قال : كل ذا غرر
قـد بايعت أنجم السماء له فليس لى مفزع ولا وزر

وتارة يجرون ذلك على لسان المحبوبة .

يقول العباس بن الأحنف :

قالت ظلوم ـ وما جارت وما ظلمت ـ إن الذى قاسنى بالبدر قـد ظلما
البـــدر ليس له عين مكحلة ولا محاسن لفظ يذهب السّقما

ويقول على بن المنجم :

شبهتها بالبـدر فاستضحكت وقابلت قولى بالنـــكر
وسفهت قولى وقالت : متى سمجتُ حتى صرت كالبدر ؟
البدر لا يرنو بعين كما أرنو ولا يبسم عن ثغر
ولا يُميط المِرط عن ناهد ولا يشـدُّ العقـد فى نحر
من قاس بالبدر صفاتى فلا زال أسيراً فى يدى هجرى

العروسان والقمران :

ومن المألوف بين الشعراء : تشبيه العروسين بالقمرين : الأنثىَ بالشمس ، والذكر بالقمر .

وأول من صَنع ذلك عدىُّ بن الرقاع العاملى ، وقـد سار الشعراء على سنته .

وأصل ذلك : أن الوليد بن عبد الملك زوج ابنه عبد العزيز بأم حكيم بنت يحيى ابن الحكم الأموية ، وكان يقال لها : « الواصلة » لأنها وصلت الشرف بالجمال .

فقال الوليد للشعراء : اغدو عليّ فقولوا فى عبد العزيز وأم حكيم .

فأنشد جرير أولا ، ثم قام عدىّ فقال :

قمر السماء وشمسها اجتمعا بالسعد ما غابا وما طلعا
ما وارت الأستار مثلهما فيمن رأى منا ومن سمعا
دام السرور له بها ولها وتهنّآ طول الحياة معا

فقال الوليد : لئن أقللت فقد أحسنت !! .

وأمر له بضعف جائزة جرير . وأحسبه أخذ هذا التشبيه من قوله ـ تعالى ـ : « إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » غير أن الشمس فى الآية أبوه ، والقمر أمه أو خالته .

وجاء ابن الرومى فأخذه من عدى فقال :

بدرٌ وشمس ولدا كوكبا أقسمت بالله لقد أنجبا

وصار ذلك نهجا للشعراء إلى يومنا هذا .

هل القمر أجمل من الإنسان ؟

يرى الشعراء ـ ولا استثنى منهم أحدا ـ أن الله لم يخلق ما هو أحسن وأجمل وأبهى وأفتن من وجه حواء ! وعندهم أن الكواكب الإنسانية أدل على قدرة البارىء المصور ، والصانع المبدع من الكواكب السماوية !! .

ولعل لهم حجة فيما يُروَى : من أن الرشيد خلا يوما بزبيدة فى ليلة مقمرة ، فقال لها : إن لم تكونى أحسن من هذا القمر فأنت طالق ! .

فأفتى علماء زمانه بالحنث إلا يحى بن أكثم ، فإنه قال : لا يقع عليه الطلاق . فقيل له : لقد خالفت أشياخك ، فقال : الفتيا بالعلم ، ولقد أفتى من هو أعلم منا ، وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ حيث يقول : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » .

غير أن بعض الصوفية ذهب إلى خلاف ذلك ، فقد رأى بعضهم الناس قد شُغلوا بالنظر إلى وجه حسناء عن الاستماع إليه ، فقال : « مالكم لا ترجون لله وقارا » . « ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل

الشمس سراجا ، فوالله لما تنظرون منها على بعدها أعجب من نظركم إلى هذا الوجه الجميل

هل يذهب سحر القمر ؟ !!

لا يزال القمر حتى اليوم محتفظاً بقيمته الجمالية بين الناس ، ولا تزال الأشعار تحتفى به ، والأغنيات الشعبية تدور حوله ، ولكن من يذهب إلى المرصد الفلكى ويراه على حقيقته ، سيفجع فيه كما فجع الأستاذ توفيق الحكيم من قبل ، لذلك أنصح لعشاق القمر أن يكتفوا برؤيته فى السماء ، حتى يبقى سحره فى نفوسهم .

ولكننا نسمع أنهم سيغزون القمر ويدوسون حماه ، وهنا نقول : ويل للشعراء من العلم ! إن حقائقه الصادعة تقص أجنحتهم الموشية ! إن الشعراء يَرَون الأشياء ببصائرهم لا بأبصارهم ، والعلم يريدهم أن يفتحوا عيونهم عليها سافرة عارية من غلالاتها العبقرية الوردية !! إن العلم عدو لدود للأسرار والأساطير والغموض والإبهام ، والشعر صديق لها ، فكيف يلتقيان ؟! .

وقد عبر عن هذه الحقيقة الشاعر محمود عماد حيث يقول يخاطب القمر :

إن الجمال الذى قد كنت صُورته	دهراً ستطمسه من فعلهم صور
وما أفاض عليك الشعر من حلل	غر سينزعها التحقيق والنظر
أىُّ الجميلات ترضى أن تكون لها	وجهاً إذا صكّها من وجهك الحجر؟

ثم يخاطب العلماء فيقول :

أبقوا من الكون سراً خافيا فإلى	خفائه يطمئن القلب والبصر
إن الحقيقة صخر لا يلطفه	إلا رشاش خيال ليس ينحسر
إن تعرفوا كلَّ شىء فى وجودكم	فما الوجود إليكم بعد مفتقر

وقال بعض العصريين تحت عنوان : « لا تفجعونا بالقمر » :

أبقوا على سحر القمر	لا تهتكوا عنه الستر
هو قطعة من أرضنا	لا ماء فيه ولا شجر
يَغنى الخيال ببعده	وبقربه يَقذى البصر

والحسنُ ـ واأسفاه ـ قبحٌ فيــه داعب من شعر
إنا نُشَبِّب بالخـرا ب وبالتراب وبالحجر
بعض الحقـائق مرة من ذاقها حـد الصَّبِـر[1]
لو لا أضاليـل الحيا ة تفطَّرت منا المِرَرْ
ما أجمل الأحلام والأو هام فى دنيا البشر
هى بلسم الأوجاع تر ياق الهموم هى الخدَر
فاسكن إلى خُدَع المنى وليَكفِ من خُبرٍ خَبر
وارض الظواهر فالبوا طن قد تسوء وقد تسر

(ج) قمر المخلوق :

تساءل كثير من الإخوان ـ أدباء وصحفيين ـ عما عسى أن يقوله الأدب أو الشعر فى القمر الصناعى ؟!.

والجواب على ذلك سهل جدا ؛ يقول الأدب والشعر فيه مثلما قاله من قبل فى الطيارات والغواصات والقنابل الذرية وكل مخترع حديث ، بل يقول فيه ما قال المتنبي فى الحمى ، وهو ليس من الطب فى مغدى ولا مراح .

إن الأدب ينظر إلى الأشياء من النافذة التى تخصه ، وهو ليس حتما عليه أن يخترع ـ كما يقول النقاد ـ فالاختراع وظيفة العلم ، ولكن وظيفة الأدب الأصيلة أن ينفعل بظواهر العلم ، وينتفع بتجاربه وثماره .

ومتابعةً لهذه القاعدة نستطيع أن نهبط بسلام من القمر الطبيعى قمر الخالق ، إلى القمر الصناعى قمر المخلوق ، والفرق بينهما كالفرق بين قدرة الرب وقدرة المربوب . فنقول : فى الرابع من اكتوبر سنة ١٩٥٧ أطلق الروس قمرهم الصناعى الأول ، فرج العالم رجة عنيفة ، وعُد ذلك نصراً علمياً خطيراً أرخ به بدء العصر القمرى ، ومما لا ريب فيه أن الروس وضعوا بهذا القمر إكليلا من الفخار فوق رءوسهم ، وحازوا قصب السبق فى المجال الفلكى الدولى !! ولكن من حقنا أن نسأل : هل هذا أول قمر صناعى عرفه الناس ؟ .

---

(١) الصبر ـ ككتف ، ولا تسكن التاء إلا فى ضرورة الشعر ـ : عصارة شجر مر .

قمر المقنع :

يقول التاريخ : إن هناك قمراً صناعياً تراءته العيون فى أفق السماء سنة ١٦٣ هـ أى قبل القمر الروسى بنحو ألف ومائتى عام !! وملخص قصته : أن رجلا شاعراً اسمه : ثور بن عُميرة الكندى من أهل مَرْو بخراسان ، كان أعور قبيح الوجه ، فاتخذ له وجهاً من الذهب ، فدعى بالمقنع الكندى. وكان هذا المقنع يقول بالحلول والتناسخ ، ويحذق فنون السحر والنِّيرَنْجات ، فادعى الألوهية ، وفتن به قوم دعوا بالمقنعية .

وكانت آيته : أنه أطلع لهم قمراً يُرى كل ليلة فى الجو ، وكان من الوضوح بحيث يبصره الناس من مسافة شهر أو شهرين فى موضعه ثم يغيب .

وقد قيل : إن هذا القمر كان من عكس شعاع عين الزئبق بتلك الأرض ، فنسب إليه ، فقيل : قمر المقنع .

ولما اشتدت شوكته سيَّر إليه الخليفة المهدى العباسى جنوداً لقتله ، فتحصن فى قلعته . ولما أحس الهزيمة جمع نساءه وقال : إنى صاعد إلى السماء ، فمن أراد أن يصحبنى فليشرب من هذا الشراب ، فسقاهن شراباً مسموما ، وشرب بعدهن فماتوا جميعاً وذهبوا إلى الجحيم ! وقد تعالم الناس هذا القمر ، فقال فيه المعرى :

أفِق إنما البدر المقنَّع رأسه ضلالٌ وغىٌّ مثل بدر المقنَّع

وقال فيه ابن سناء الملك :

إليك فما بدر المقنع طالعا بأسحر من ألحاظ بدر المعمَّم

فنحن نرى من هذا أن أول قمر صناعى ظهر فى الأفق كان من اختراع الشرق لا الغرب ، وأن الذى أطلعه رجل عربى لاروسى ولا أمريكى ! .

وقد يقال : إن هذا القمر وليد التدجيل ، وأنه لا غاية علمية له ، ونقول : نعم ، ولكنه على كل يعد إرهاصا للأقمار الصناعية العلمية ، ونقول أكثر من ذلك : إن حقائق العلوم نبعت من الخرافات والخزعبلات ، فالكيمياء الحديثة مدينة لمحاولة القدامى تحويل المعادن الخسيسة إلى الذهب ، وإلى البحث عن إكسير الحياة .

والفلك الحديث أصله أباطيل التنجيم ، والاعتقاد بتأثير الكواكب سعوداً ونحوسا فى البشر ورَصْدُها لذلك .

أحلام تتحقق :

ومما يلفت النظر أن الإنسان منذ دب على الغبراء التى تقله ، ما برح يتطلع إلى الخضراء التى تظله ، دائب السبح فيها بخياله إن كان شاعرا ، وبفكره إن كان عالما أو فيلسوفا ، محاولا أن يكتنه كنهها ، ويسبر أغوارها ، ويستجلى أسرارها ، ويُلم بما فيها ومن فيها .

ففرعون موسى - وهو منفتاح على الأشهر - يقول لوزيره « يا هامان ابْن لى صَرحا لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى » كأنه يظن أن الله فى السماء .

والآثار الأدبية تصور لنا لهفة هذا الإنسان الـُطلعة إلى كشف هذه الأجرام السماوية ، وما يكمن وراء حركتها من ألغاز وطلسمات ، فيقول المعرى :

يا ليت شعرى؟ وهل ليتٌ بنافعة؟ ما ذا وراءك ؟ أو ما أنت يا فلك ؟
كم خاض فى إثرك الأقوام واختلفوا قِدْماً ؟! فما أوضحوا حقاً ولا تركوا
شمسٌ تغيب ويقفو إثرها قمر ونور صبح يوافى بعده حلك
راموا سرائر للرحمن حجبها ما نالهن نبيٌّ لا ولا مَلك

بل أعجب من ذلك : أن المردة والشياطين شُغفوا بالصعود إلى السماء واستراق السمع من الملأ الأعلى ، والقرآن الكريم يقص علينا هذه المحاولة المخفقة فى قوله : « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظاً من كل شيطان مارد . لا يسمعونَ إلى الملأ الأعلى ويُقذفون من كل جانب . دُحوراً ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شِهاب ثاقب » .

وتاريخ العرب يروى لنا : أن الجوهرى صاحب الصحاح أراد أن يطير بجناحين من خشب ، وأن عباس بن فرناس الأندلسى أراد أن يطير بجناحين من ريش فسقطا صريعين .

وفى العصر الحديث نظم الشاعر « خليل مطران » أمنية جرت عن لسان نابليون فى هذين البيتين :

قالوا لنابليون ذات عشية إذ كان يرقب فى السماء الأنجما :
من بعد فتح الأرض ، ماذا تبتغى؟ فأجاب : أنظر كيف أفتتح السما

وقد ألم كثير من شعرائنا فى العصر الحديث أن الإنسان سيحاول غزو الكواكب ، وينقل إليها أطماعه وشروره ، وعدوانه وظلمه وخصوماته ، ويفسد فيها ، ويسفك الدماء كما فعل فى الأرض . قال شوقى من قصيدة :

إنى أخاف على السماء من الأذى فى يوم يُفسد فى السماء الجيل
كانت مطهرة الأديم نقيـة لا آدم فيهـا ولا قابيل
واليوم للشهوات فيها والهوى سيل وللدم والدموع مسيل
أضحت ومن سفن الجواء طوائف فيهـا ومن خيل الهواء رعيل
وأذيل هيكلها المصون وسرها والدهر للسر المصون مذيل

ويقول حافظ من قصيدة أخرى يخاطب بعض الطيارين :

أرأيت سكان النجوم وأنت فى ذاك الجوار ؟
أهنـاك فى المريخ ما فى الأرض من علل الشجار ؟
ما لابن آدم زاد فى غـلوائه فطغى وجار ؟
يأيها الطيـار طِرْ فإذا بلغت مدَى المطارْ
فزُرِ السها والفرقـدَيْن إذا أتيح لك المـزار
وسَلِ النجوم عن الحياة ففى السؤال لها اعتبار
هَم ينبئونك أن كلّ الـكائنـات إلى بوارْ

قال شوقى وحافظ ذلك من زمن بعيد ، وإذا بنا فى ٦ مارس سنة ١٩٥٨ نسمع مدير المهمات بالسلاح الأمريكى يقول من حديث طويل مخيف : إن السلاح الجوى يدرس الآن مشروعا لإطلاق قمر صناعى ثابت ، يظل معلقا ليل نهار فى بقعة ثابتة من السماء ، ويتأرجح على ارتفاع يزيد على عشرين ألف ميل فى الفضاء ، فوق منطقة معينة من الأرض .

ثم قال ـ وهو قول مزعج ـ : إن مثل هذا القمر سيكون قاعدة مثالية لإطلاق القذائف ، إذ يسهل تصويبها منه إلى أى هدف فوق سطح الأرض ، وتكفى قوة دافعة ضئيلة لانطلاقها نحو الأرض فى سرعة خاطفة .

ويرى بعض العلماء : أن إرسال ثلاثة من هذه الأقمار الصناعية على ارتفاع ستة وعشرين ألف ميل فى الفضاء ، تكفى لإحكام الرقابة على الكرة الأرضية بأسرها .

ومنذ عهد الصبا تمنى كاتب هذه السطور أن يصعد إلى القمر ليعيش فيه ، فقال من قصيدة :

يا هــلال السماء يابن ذُكاء	أنت فى الأفق خِنجر مصقول
تحصد الناس والزمان فقل لى :	ألهــذين أنت نِضوٌ نحيل ؟
أم تُرى يا هلال أنت مُعَنًّى	مُستهام فؤادُه مَتْبول ؟
عاشق للكواكب الزُّهر يجرى	خلفها والغرام سُقم دخيل
أم حزين مثلى له كل يوم	زفرات حَرَّى ودمع هطول
أترى يا هلال تسمع شكوى	إن شكا بثَّه القريض النبيل
ضِقتُ ذرعا بالدهر والأرض والنا	س ، فهل يرتجى إليك وصول ؟

وفى الحرب العالمية الثانية ، قلت أخاطب الهلال من قصيدة :

ليت شعرى ، ما ذا حملت إلينا ؟	يا عصام السماء من أخبار
ما أجَنَّتْ لنا الغيوب ؟ وما ذا	يفجأ الناس من وراء الستار ؟
أسلام يضفى الأمان على الدنيا	وترقا به الدماء الجوارى
أم هو القتل والقتال ولا حكم	لغير المهند البتّار ؟
يا هلال السماء ، ما حاجة الأر	ض إلى النور وهى شعلة نار ؟ !
لتمنى الأنام أن لياليك	على حسنها ليالى السِّرار
كيف لم تخش أن تريش العوادى	لك سهماً من أسهم الأشرار ؟ !
إن فى الجو يسبح الموت أسرا	باً فوارحمتاه للأطيار
لا تقل : نحن فى أمان ، فما تملك	دفعاً لصولة المقدار

أنت والشمس والكواكب والأنجم ملكٌ للواحـــد القهـــار
لو أراد الإله طيَّ السموات تهاوت من سِلكهن الدَّرارى

وإذا بنا نسمع فى هذه الأيام : أن كثيراً من المغامرين والمغامرات قد سجلوا أسماءهم ليكونوا أول من يصعد إلى القمر فى الرحلة الأولى ، وفى هذا يقول بعض المصريين تحت عنوان : « بين أقمار الأرض وقمر السماء » بعد أن قدم للقصيدة بهذه الكلمة : من أخبار أمريكا أن سرباً من حسانها سجل أسماءه فى أول رحلة إلى القمر :

ما ذا يريد من السفر « وفد الجمال » إلى القمر؟!
أتراه يبغى أن يبا هيه بما تحت الحِبر ؟
ويُريه رأى العين أ ماطاً من الحسن استتر
لو أنها جُليت عليـــه انشق غيظاً وانفجر

أوَضاقت الدنيا الوسا ع ، وعز فيها المستقر ؟
والحسن خاصمه النصيبُ فــلم يقـلده الدُّرر
إن صح ذاك فعاذرٌ إن صد عنا أو نفر

أتراه قــدَّر أنه يسعى على قدمِ الخطر ؟
ويكابد الأهوال من شُهُب ترامت بالشرر
وأشعــة سينيّــة لو مست الحجر انفطر
هَبْه اطمأن إلى الورو د فمن له ضَمِن الصَّدَر

قل للملاح الجاليا ت الحسن فى شتى الصور
المترفات كأنهن الزَّهرُ أو نفحُ الزَّهر
الراويات من الغرو ر المقدمات على الغَـرَر :
خُلق الفضاء لفتية ألفوا مجابهة الغِيَر
وتعوَّدوا خوض المها لك والمعارك والغَمَر
جنٌّ عفاريتٌ وإن لبسوا تجاليد البَشر
وَيْلمِّها من رحلة قذف فكنَّ على حذر(١)

(١) ويلمها : أى ويل لأمها : والمراد بها التعجب لا الدعاء .

إنى أخاف على الملا … حة أن يحيق بها الضرر
عوذتها بالله … بالمختار بالآى الغُرَرْ
أترى يَرُمْ من إقامة … تمتد ما امتد العمر
أم نزهة خلابة … يقضى الغرام بها الوطر ؟!
سَلوَى وتعزية فما … «بشار» ثَمَّ ولا «عمر»(١)
كلا ولا عينا ترَيْن … « لدون جُوان » ولا أثر
لم يبق شىء بعد ذا … ك سوى السآمة والضجر

ومن عهد غير بعيد جاء فى الصحف : أن الروس ـ بعد إطلاق قمرهم الصناعى ـ يعتزمون أن يرسلوا إلى القمر قذيفة تنشر على وجهه سحابة حمراء ، أو يصوبوا إليه قنبله هيدروجينية تتحيف قطعة منه !.

فلله هؤلاء الشعراء !! لكأنهم كانوا يستشفون الغيب من ستر رقيق !.

وما أصدق صديقنا الأسمر ـ رحمه الله حيث يقول :

والشعر وحى ولكن … يوحَى لغير نبى

وحى القمر الصناعى :

كان لا بد أن يوحى القمر الصناعى إلى شعرائنا ، فيصفوا وقعه فى نفوسهم ، وما سيكون له من تأثير فى مستقبل العالم ، ولكنه لم يملأ عيونهم قرة ، ولا قلوبهم مسرة ، ولم يثر فيهم عاطفة جمالية ، كما فعل قمر الخالق بوجهه السنى البهى ، ونوره الهادىء الوديع !.

يقول فيه الشاعر الماحى بعنوان : الكوكب الجديد ، وهو من الشعر الوصفى :

غزا العلم أجواز الفضاء بكوكب … له بطش جبار وعقل أريب
يسير مسير الشمس فى الأفق دائباً … ويذرعه فى جَيْئة وذُهوب
وكم دار حول الأرض فى فلك له … مئات من المرات دون لُغوب
ويغزو شعاعَ الشمس غير محاذر … لهيب شُواظ كالجحيم مذيب

(١) عمر : عمر بن أبى ربيعة .

وكل بقاع الأرض تحت عيونه ... يُطالعها مِن شمْأل وجَنوبِ
وترتفع الأبصار ترقب سيره ... فيفجؤها من صوته برقيب
ليفضى بأسرار الطبيعة كاشفا ... من الغيب والمجهول كلّ عجيب
تحيرت الألباب فى فهم كنهه ... وباتت له فى رَجْفة ووجيب
ومن عجب أن الحياة حبيبة ... على ما بها من قسوة وكروب
فياليت قومى ـ والطريق ممهد ـ ... يَشُقونه فى قدرة ودءوب
فللعلم آفاق يسيرٌ بلوغها ... لكل عليم بالحياة نجيب
ولله آيات يُعَدُّ أقلها ... عجائب عصر للفضاء رهيب

ويقول بعض المصريين فى الصاروخين: « القاهر والظافر »:

فهل كان فى الظن أنا نطير ... بأفق منيع على الطائر
وأنا نُدوِّم بين الأثير ... بكل عُقاب لنا كاسر
لشتان ما بين ماض أحمّ ... الحواشى وحاضرنا الزاهر
وفى غدنا الباهر المستنير ... نحُلّ على القمر الباهر
ونغزو المجرّة مُستأسدين ... ونحمى حِمى « نهرها » الهادر
ونركز أعلامَنا فى السماء ... على العامر الخصب والغامر
ونبنى بها دولة للعلوم ... وللفن والأدب الناضر
ونعمُرها بالهدى والجمال ... وبالخير والخُلق الطاهر
ويحيا الرعايا بها إخوة ... بغير عذول ولا عاذر
بغير حسود ولا حاقد ... بغير خئون ولا غادر
بلا « نمر » فوقها كاشر ... ولا ثعلبان بها ماكر
فطيروا إلى جنة أزلفت ... لكلّ أخى دأب صابر
على مثلها شيخكم « آدم » ... بكى بدموع الحَيا الماطر
فقد سيّر « الغرب » ذؤبانه ... إليها يُغيروا بلا زاجر
ليملأها فتنا طاغيات ... تجر الذيول بلا آخر
ويبذر فيها بذور الخلاف ... ويَصْبَغها بالدم المائر

ويتركها بؤرة للبغاء … وللبغى والعَهَر السافر
كما عاث فى الأرض من قبلها … وصيَّرها مَسْلخَ الجاذر
لها الله من كلِّ داءٍ أثيم … ومن كل مستعمر فاجر[1]

ويقول الشاعر صالح جودت ـ بعنوان : القمر الأسمر ـ يخاطب قمراً آدمياً ، موازناً بينه وبين القمر الروسى ، أو القمر الأحمر :

رأتنى أطل لأفقِ السماء … وأرنو إلى القمر « الأحمر »
فقالت: أيُنسيك هذا الجديد … جنونَك بالقمر الأسمر ؟
فقلت: معاذ الهوى أن تغارى … معاذ السَّنا المشرق النيِّر
وما قدُّه فى حساب الجمال … بألطف من قدِّك السمهرى
وما نوره وشعاعاته … بأخطف من طرفك الأحور
وما نارُه وصواريخه … بأحرق من صدرك المثمر
تغارين منه ، ولو غار منك … لكان من الأخلق الأجدر
ينابيعه زمهرير الشتاء … وأنت من الُخلد والكوثر

* * *

تغارين من قمر طائر … يبيع الحياة ولا يشترى
وأنت التى تهبين الحياة … وتمشين كالأمل المُزهر
وكيف تغارين من كوكب … يراه ذوو العلم بالمِنْجهَر ؟!
وأنت التى تملئين الحياة … بأضواء هذا الجمال الثرى
تغارين من قمر الآدمى … ومن نوره الآفل المدبر
وأنت التى يتحدَّى الإلهُ … بك المتجبرَ والعبقرى
أعيذكِ يا فتنتى أن تغارى … فتوبى إلى الله واستغفرى

بين التفاؤل والتشاؤم :

انقسم العلماء إزاء الأقمار الصناعية فريقين :

فريق يرى أنها مهدت الطريق إلى غزو القمر وغيره من الكواكب .

(١) الداهى : ذو الدهاء ، وهو الرأى والأدب .

يقول العالم الألمانى «فون براون»: إن الإنسان قد خُلق لكى يعيش فى أى مكان يريد الذهاب إليه فى رحاب هذا الكون ... والمستقبل ليس للأرض، إن المستقبل للعوالم الأخرى التى تسبح فى فضاء هذا الكون .

ويقول العالم المصرى الدكتور أحمد زكى: ... بعد القمر الصناعى سوف يهدف العلماء إلى القمر الطبيعى، ولكن دون ذلك مصاعب !! ولكن العلم، ولكن الفن الصناعى إنما خلق لتسهيل الصعب ...

وفى ظل هذا التفاؤل اعتمدت الولايات المتحدة الأمريكية ثمانية ملايين من الدولارات لإنتاج سفينة الفضاء التى يمكن بها الوصول إلى القمر !! وهى أول اعتماد .

وفريق آخر يؤيدهم الأطباء - يرون أن الأجسام البشرية ببنائها المعهود غير مؤهلة للهبوط على الكوكب، وعلى فرض وصولها سالمة، لن تستطيع الإقامة فيها .

هذا إلى انقسام آخر حول هذه الأقمار من حيث الخير والشر .

ففريق يذهب إلى أنها رسل سلام ووئام بين البشر، ووسائل استعمار واستثمار تعوض الإنسان ما يفقده من كنوز الأرض وخيراتها .

وفريق يذهب إلى أنها تُنذر شقاق وشجار، وحروب ودمار !! .

والشعراء أمام ذلك فى حيرة . منهم المتفائل الذى يمثله محمود غنيم حيث يقول :

قد اجتزنا الهواء فليت شعرى ... أيحملنا إلى الفلك الأثير ؟!
كأنى بالزمان وقد دنا من ... يد المتناوِلِ القمر المنير
وصار الكوكبان على اتصال ... لكلٍّ عند صاحبه سفير
فقل للفاتحين إذا أغاروا ... على الأفلاك إن شئتم أغيروا
لكم فى رقعة القمر اتساعٌ ... وفى استئناسه مُلكٌ كبير
مناجم لم تصل أيد إليها ... وماءٌ لم تنلْ منه الثغور
وأرضٌ لم تطأ قدمٌ حصاها ... وجوٌّ لم يُدنسه الزفير
هنالك يكتسى العارى ويَرْوَى ... به الصَّادى ويَستغنِى الفقير
أمانٍ كنْ أحلامَ الأوالى ... فهل يأتى بها الزمن الأخير ؟
تعالى الله إن العلم نورٌ ... وليس أمامَه أمرٌ عسيرُ

ومنهم المتشائم الذي يمثله محمود عماد حيث يقول :

اليوم تبدأ عهدَ النحس يا قمرُ فقد تسامى إلى أجوائك البشر
هذى أشعتهم قرّت عليك وفى غـد يقرّون هم والعلمُ والخـطر
إن السلام الذى قد ران من قدمٍ عليك سوف يُرى هيجاء تستعر
أليس فيك لأطماع لهم غرض ؟ عليك يقتتل الأفرادُ والزُمَر
أليس فيك حديد غاب أو ذهب تحت التراب وزرع لاح أو ثمر ؟
القوم لما قضوا من أرضهم وطراً ظلوا إلى غيرها يهتاجهم وطر
فويل كل نجوم الكون من غدِهم وأول الويل ما يَلقاك يا قمر
عيشوا كما شئتم فى الأرض وابتعدوا عن السماء ففيها الرّجمُ يُنتظر
قد حاول الجن هذا الشأو قبلكم لما أرادوا استراق السمع فانصهروا
إن كانت الشهب تُغريكم بومضتها فومضة الشهب لا تُبقى ولا تذر

ويقول بعض المصريين تحت عنوان : « شياطين الإنس والكواكب » :

لم يكفهم أن بات كوكبهم متوجساً من « ذرّهم » قلِقا
حتى سما صُعُداً بلا رَهبٍ شيطانُهم للسمع مُسترقا
ويل الكواكب من مناسِرِهم ما أقبحَ الأخلاقَ والخلقا
يبغون أن تمسى لهم وطنا كى ينشروا التمويه والملقا
ويُلقّنوا فيها رعيّتهم حكم الهوى واللؤم والنزقا
ويلوّثوا قوماً بها طَهروا ويُسوّدا أفقا لها يَققا
قسما بها لو أنها لكمُ دانت لأطفأتم بها الفلقا
وتبدّلت من حسنها بكمُ قبحاً وعاد جديدُها خَلَقا
ومشيتمُ فيها أباطرة وتخذتموا أبناءها سُوَقا
وترى بها « أسدا » يخاصمه « دُبٌّ » وكلٌّ نابُه زَرِقا

وحسبنا بعد هذا أن نقرأ قوله تعالى : « لَخَلقُ السموات والأرض أكبرُ من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون » وقوله جل وعلا : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » وقوله تباركت أسماؤه : « وأنا لا ندرى أشرٌّ أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربُّهم رَشدا » ؟

معالم التقريب

للعلامة الكبير الأستاذ محمد عبد الله محمد المحامى

— ٤ —

لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من الحكم على عصرنا وعالمنا ما دمنا نعيش فيهما . ونواحى الخطأ والقصور والمبالغة فى حكمنا عليه ترجح حتما جوانب الإصابة والدقة والاعتدال لسعة الموضوع المحكوم عليه وغلبة العاطفة على اختيار البينات التى نحكم بموجبها ، وعلى تأويلنا لها حين نختارها ـ مع هذا التحفظ يبدو أن عالمنا لا يحب الصدق أو لم يعد يحبه ويحس بقيمته ، وهو قد استغنى عنه وأثبت لنفسه باستغنائه أن العيش بدونه ممكن ، وأنه ليس لازماً للحياة الحديثة ، بل لعله يعقد هذه الحياة ويثير فيها الصعوبات ، ويؤدى إلى الخلاف ويعكر بهجة الدنيا ويفسد فرص الاستمتاع والسلام . فى عالمنا قوى هائلة تعمل ضد الصدق عن قصد وعمد ، وتحاربه حرباً مستورة بمهارة وكفاية ، وتزهد فيه الناس بكل حيلة . إنها تحاول إزالة أهمية الصدق من ذاكرة الناس ، وبقايا مكانته واحترام النفوس له ، وهى تُسخِّر من يسخرون منه صراحة وضمنا ، سراً وعلانية ، قولا وفعلا ، وتشجع على ازدرائه وامتهانه وابتذاله ، لأنها تريد عالما ليس فيه أثر للصدق نسيه نهائياً وإلى غير رجعة ، يكون كله وكل من فيه من صنع هذه القوى العالمية الهائلة وخلقها ، تطمئن إلى استجابته فى كل آن ، لأن التعلق بالصدق إذا شاع وانتشر يدفع الناس دفعاً إلى شىء خطر جداً ، اسمه الإخلاص للحق ، وإلى شىء أشد خطورة ، اسمه الشجاعة واحترام النفس ، فتنطلق إذ ذاك موجة مثالية لا يعرف أحد ما الذى تطيح به ولا أين تقف ؟ وماذا تأخذ أو تدع من نظم العصر وأوضاعه ؟ وكلها إلا القليل ذوات طابع مادى أكيد لا يعول كثيراً على الإخلاص والشجاعة .

أما بماذا يستعيض الناس عن الصدق والتعلق به ؟ فتلك فى نظر هذه القوى الهائلة من جهةٍ : مسألة بدائل ، أى أشياء صناعية تملأ وقت الناس وتشغل فراغ داخلهم

وتسكّــن فضولهم ، وصناعة البدائل لا تفتر ، لأنها ـ أى البدائل ـ سريعة التحلل ، قصيرة العمر .

ولأن المسألة من جهة أخرى مسألة نسيان ، وهو يحدث مع الانشغال وكثرة ما يقال وما يرى مما له ضجيج وصخب ، وذلك توفره هذه القوى الهائلة ، وتحققه على الدوام ، وباستمرار ليل نهار .

ويبدو أن الآدمى الذى يخلو غذاؤه من الصدق والتعلق به مدة طويلة يتعرض عقله ووجدانه لما يشبه أعراض وأمراض سوء التغذية التى يتعرض لها البدن ، وربما كان ما نشاهد ظواهره الحزينة فى العالم نوعاً من ضمور الوجدان والعقل والشخصية ، ومن الكساح النفسى ، أو من توقف النمو والتفتح فى الروح ، وربما كان ذلك هو الاحتجاج الذى يقدمه كياننا النفسى والعقلى على الحرمان من الصدق ، وهو الإعلان الذى يعلن به ضرورة التعلق بالصدق لحياة العقول والأرواح .

إننا نفقد التعلق بالصدق حين نكف عن اعتباره قيمة مطلقة تعلو على أنفسنا وعلى المصلحة والمنفعة ، حين تتوقف قيمته فى اعتقادنا على نفعه لنا ، حين تصبح المصلحة هى حد الصدق ، وحيث تدخل الفائدة فى تعريفنا له . إننا نفقده حتما حين لا ترى ضمائرنا بأساً من الترحيب بالكذب والباطل المتوجين بتاج المصلحة الحاضرة والانحناء لهما وإفساح الطريق أمامهما ، حينما نشعر أننا أحرار فى اختيار نوع الصدق وفى صنعه وفى التحكم فى مقوماته ، وأن مشيئتنا وإرادتنا فوق فكرة الصدق والكذب ، والحق والباطل .

إننا نفقد الصدق حين ننسى أنه لا يعيش إلا إذا كان سقفاً وحدًّا لمشيئة البشر ، إلا إذا كان فوق نسبية أحكامهم وآرائهم ، إلا إذا كان هو أداة القياس النهائية التى تقاس بها كل القيم ، إلا إذا كان كما قلنا من قبل قيمة مطلقة لا يرد عليها قيد أو استثناء إلا بإذن قيمة مطلقة أعلى منها هى الله عز وجل .

إن ميلنا إلى الكذب على أنفسنا وغيرنا ميل طاغ ، يبيّن أن ضمائرنا وحدها وما نسميه قانوننا الأخلاق ، وإيماننا بالإنسانية ، كل ذلك لا يقوى فى الغالب على صد ميلنا هذا إلى الكذب ورده ، وإننا بشهادة حالنا فى أشد الحاجة إلى سلطة

فوق أنفسنا نسلم لها بالقدرة على معرفة وكشف كذبنا ، ونسلم بأننا لا نستطيع أن نفسد عملها بالرشوة والزلفى ، أو بالضغط والقسر ، ولا أن نضللها بالمكر والحيلة ، سلطة فوق قدراتنا جميعاً ، خيرها وشرها ، لا تضعف بالاعتياد ، ولا يلحقها الابتذال ، ولا تفقد نفوذها ومكانتها مع طول الاتصال والمعاملة ، وهذه لا يمكن قط أن تكون سلطة أرضية ، لأن كل سلطة أرضية هى حتماً سلطة بشر مهما أجدنا لفها فى أوصاف وتصورات فلسفية أو قانونية .

إننا أهل هذا العصر برغم الزحام والالتصاق المادى بعداء غرباء ، نخاف من الود ومن الثقة ، فى أعماقنا وحشة وعزلة وبغض للروابط التى تربطنا بالآخرين بوثاقة وعمق ، وذلك لأننا لم نعد نمارس التعلق بالصدق ، لا نحن ولا محيطنا ، لقد أنسانا الذين يهمهم أن ينسى العالم قيمة الصدق ، أننا نستطيع أن نختلف على مضمونه المعين فى هذه المسألة أو تلك ، لاختلاف البينات ، ويبقى مع هذا الاختلاف كل منا صادقاً مخلصاً أميناً ، لأن اختلافنا حول مضمون معين مرجعه اتفاقنا فى الولاء المطلق للصدق كقيمة مطلقة .

فى هذا العالم الذى لا يحب التعلق بالصدق ، يبدو دين الصادق الأمين غريباً يوشك أن يكون قريباً مطلوباً ، وأهل التقريب على ثقة من لطفه تعالى ، ورحمته بخلقه ، يرون من معالم التقريب ألا يكفوا عن تذكير المسلمين من كل مذهب أنهم بالتعلق بالصدق بإصرار واستماتة ، ورفضهم الكذب والباطل بإصرار واستماتة ينقذون إسلامهم من التمزق والموت ، ويشاركون فى إنقاذ العالم المتمزق من الدمار الكلى .

ليس مطلوباً منا كمسلمين أن نعتزل الدنيا ، ولا ذاك فى وسعنا ، بل المطلوب المرغوب أن نشارك فى التيار الرئيسى النافع لحياة هذا العصر بفهم وشجاعة وإخلاص تام للحق عز وجل ، وألا نخاف كما يخاف معظم الناس الآن من ممارسة الصدق . وليس مطلوباً منا أن نتغابى وأن نعرض عن الفهم الجيد العميق لأفكار العصر وعقائده وتصوراته وأذواقه والقوى المؤثرة فى أحداثه ، لأن ذلك ليس فى وسع مسلم يشعر بمسئولية الانتماء للإسلام ، ولأنه فى هذا المعمعان يجب أن يعرف

المسلمون دائماً بقدر من الدقة والوضوح : ما ذا يبيعون للعصر ؟ وما ذا يشترون من الأفكار ؟ وأن يتجنبوا ما أمكن أن يخدعوا أنفسهم أو يخدعهم غيرهم فى الأسس ، فإن يقظتهم والتفاتهم الدائمين إلى اختلاف الأسس ، معناه أنهم ملتفتون إلى كليات الإسلام حريصون عليها ، لأن الحلول العادلة الفاضلة المعتبرة من مقومات الحضارة الحديثة ، لا يمكن أن يكون بينها وبين الإسلام تعارض أساسى ، ولكن الأفكار الأساسية التى فى إطارها وجدت هذه الحلول قد تعارض كليات الإسلام ، كما يبدو ذلك مثلا فى نظرية الحقوق عموما ، وفى فلسفة الحرية والمساواة بصفة خاصة.

فنظرية الحقوق تشغل معظم مساحة القاعدة الفكرية الاعتقادية لحياتنا ، فأنا إذا اعتقدت أن هذا الشىء من حقى أن آخذه ، وهذا العمل من حقى أن آتيه ، وهذا التكليف من حقى أن أرفضه ، وهذا النهى من حقى أن أخالفه ، فقد حصّنت رغباتى فى الأخذ والإتيان والرفض والمخالفة بفكرة عامة يحترمها الآخرون أو يجب أن يحترموها ، ويتعين عليهم ألا ينكروا تصرفى على مقتضاها أو يقاوموه ، ذلك فضلا عن أن استيلاد الرضا والإشباع من مجرد الإحساس بممارسة الحق شىء طبيعى فى نفس كل منا ، وكلنا يمكنه أن يشاهد فى نفسه النشاط المستمر الدائب الذى لا ينقطع فى الوصول إلى حقوقنا كما نتصورها ، ويشاهد فى نفسه انطلاق الغضب والسخط على ما يعترض طريقنا إلى حقوقنا ، ومن يهددنا فيها أو يحرمنا منها ، وحسبنا أن نعرف أن الشعور بالارتياح والتفتح ، وبالأمن وبالثقة ، وبالسعة والرغد ، وبالنجاح والفلج ، وبالأمل والرجاء ، كذلك الإحساس بالقلق والخوف ، أو بالقنوط واليأس ، أو بالإحباط والفشل والسخط ، كل أولئك متوقف على نظرتنا لحقوقنا ، أى على اعتقادنا فى مدى ما لنا من مطالب مشروعة فى ذمة الدنيا وأهلها ، وعلى مقدار توفيقنا فى أخذ ما نعتقد أنه من حقنا .

وأية نظرية للحقوق مهما كانت بدائية يتراءى فيها حتما اجتهاد فى توفير قدر من الانسجام والمسايرة بين فكرة الآدمى عن حقوقه ، أى ذلك الجزء من مطالبه ورغباته الذى يصح أن يعتبر مشروعا مبررا وبين الإمكانيات الفعلية المتاحة ، لأن الإنسان يتصدع نفسياً حين يعتقد أن العالم يغتال حقوقه ، وأنه عاجز عن منع

ذلك ، فنظرية الحقوق دائماً وفى كل صورها قائمة على عملية فصل وتمييز بين المطالب المبررة وغير المبررة ، يجرى هذا التمييز فى نفس الإنسان ، فيوجه على أساسه بصورة واعية أو غير واعية سلوكه ويوزع رغباته وينفق طاقاته العاطفية والعصبية والمادية ، ثم يجرى هذا التمييز أيضا فى العالم الخارجى بالمواقف التى يتخذها الآدمى بالنسبة لمن حوله وما حوله ، فنظرية الحقوق هى عند التأمل نظرية واجبات ، فيها الممنوع هو الذى يحدد دائرة الجائز ، وفيها الواجب يتقدم على الحق فى الوجود الذهنى على الأقل .

وظهور تضاريس الواجبات فى خريطة الحقوق ، ووضوح الفروق والحدود بين المطالب المبررة المشروعة ، وبين غير المبررة وغير المشروعة أمر حيوى للفرد والمجموع معاً ، ويبدو أن الإنسان من لجر تاريخه فى ومضة حكمة قد تبين أن بروز تضاريس الواجبات ليس عملا بشريا صرفا ، وأن يدا أقوى وأعلى وأهدى لها فى ذلك العمل نصيب ، وأن قدرة البشر على تغيير معالم خريطة الحقوق ليست مطلقة ، بل لها حد إلهى يجب أن تقف عنده ، وأن اجتهاد أهل كل زمان فى تعيين واقع هذا الحد ، واختلاف الناس فى التعرف على تفاصيله لاينفى أنه دائماً قائم وموجود بصورة أو بأخرى كحقيقة كلية مستمرة بها تبقى حياة البشر بصورة عامة موضوعية داخل إطار العدل والخير فى تيار الزمن الدائم الحركة والسير والتغير .

هذا المبدأ رفضته أوربا فكريا فى تحولها التدريجى الذى انتهى بها فى منتصف القرن التاسع عشر إلى اللادينية والانكار المتطرف للدين ، ذلك أن سلطان الدين بعد أن ساد فيها بغير منازع فى العصر الوسيط سيادة وفرت لحياة الناس وحدة فكرية وروحية واجتماعية حية متكاملة ، أخذ يضعف مع ازدياد الثراء الذى أدت إليه قفزة التجارة الخارجية بعد الحرب الصليبية الأولى ، واتساع نفوذ المدن البحرية الإيطالية ، ونشاط أساطيلها فى البحر المتوسط ، وانتشار مراكز المال والأعمال فى أوربا الغربية فى خطى التجارة الخارجية التى أطلقت أشواق الناس للمكاسب والمال ، وأطلقت معها أشواقهم إلى الترف والكماليات المادية والفكرية ، ثم تضاعف ذلك حين فتحت الكشوف الجغرافية لأوربا الطريق إلى ثروات العالم

الجديد وتجارة المحيطات ، وانتقل الناس أو انزلقوا من تواضع وبساطة العصر الوسيط ووحدته المطمئنة إلى عصر النهضة بفورته واندفاعه إلى الاقتناء والاستمتاع وجرأته على الموت وعلى السلطة الدينية والمدنيـة ، وتعشقه للمعرفة وللمغامرة والتحدى ، وصار الناس حتى كبار رجال الدين منهم فكراً وخيالا وذوقا فى ردة ثقافية متحمسة لحضارة اليونان والرومان التى لم تكن تعرف الله ، وفشا فيهم ميل عام إلى الإعجاب بالإنسان وكل ما هو إنسانى ، وأخذ عقل الإنسان ينافس الوحى والتنزيل والمأثورات منافسة لينة محتاطة فى الظاهر ، عنيفة فى الخفاء ، وصار جسم الإنسان السوى وملابسه ودوره وأشياؤه الجميلة الأداة التى لا يستغنى عنها الفن حتى فى التعبير عن الآخرة وعن الله ذاته ، لأن القوم ـ على ما كانوا فيه من عربدة ـ كانوا متدينين جدا ، وإنما على طريقتهم هم ، بلغت حماستهم للدين أن تهافتوا على بناء الكنائس والأديرة بكثرة ونفقة غير مسبوقتين ، وتهافتوا على تعذيب أنفسهم ، بل على بذل حياتهم من أجل الدين ، وعلى تعذيب الآخرين وإحراقهم أو قتلهم إذا خالفوهم فى المذهب وقدروا عليهم ، كل ذلك دون أن تفتر حماستهم للدنيا التى أغرقتهم ورؤساءهم معهم فى الزنا والقصف والربا والرشوة ، وجعلتهم يستبيحون النهب والاغتيال ، لكن الدين لم يعد يقدر أن يضبط قلوب وعقول الرؤساء ، ولا قلوب وعقول الناس ، كما كان يضبطها فى العصر السابق ، وغادرت الحياة عامة وخاصة وحدتها ، إذ لم تعد الناس تعيش مبادئها بالقدر الكافى إلا الأقلون ، وهذا هيأ وسطا أخذ من ذلك التاريخ فى الامتداد والاتساع للفكر البشرى الذى لا يستند إلا إلى بشريته ، أى للفكر الشخصى لمفكرين وفلاسفة فى بيئات مختلفة ، لا خبرة لهم فى تدبير أمور الناس أن يقدموا للناس مشورات وحلولا وفروضا ونظرات عامة مجردة فى الدين وأسسه وفى المجتمع والدولة والإنسان ، فالأديان كلها مثلا واحدة فى الجوهر عند إرزم ومن شاكله ، وموضوعها الأساسى كلها هو الفضيلة والحياة الآخرة ، وقد صاغ بعض أهل الفكر من الانجليز فى القرن الثامن عشر من هذه الفكرة مذهب الدين الطبيعى ، وهو مظهر من مظاهر ولع ذلك القرن بالطبيعة ، كان يقابل فكرة العقل الطبيعى ومذهب القانون الطبيعى ، وكان يزعم

أن العقل بطبعه قادر على الاهتداء إلى الله وإلى الفضيلة ، بغير حاجة إلى وسيلة غير بشرية وغير طبيعية كالوحى ، ولا إلى بينة غير بشرية وغير طبيعية كالمعجزة ، وقد نشرت الماسونية التى أنشئت فى ذلك القرن هذا المذهب فى أوربا كلها ، وتحمس له ڤولتير ، وكتب تحت تأثيره كتابه المشهور فى التسامح ، ولم يطل العهد حتى ألّه زعماءُ الثورة الفرنسية العقل ، ثم عادت نسمة عارضة للدين هبت على أوربا بعد الكوارث والأحزان العامة التى انتهت بها حروب نابليون ، ولم تلبث أوربا أن غطتها موجة عارمة من الراديكالية ، فلم يكد ينتصف القرن التاسع عشر حتى كان معظم الفكر الأوربى منكرا للدين بكل أنواعه إنكاراً متطرفا مبالغاً فيه ، وثبت على هذا الاتجاه إلى اليوم ، ولا شك أن وراء هذا الواقع الكئيب توجد مبالغة الناس فى تقدير العقل ، وفى قدرة العلوم الوضعية ، وفى استعارة مناهج هذه العلوم فيما تصلح له وما لا تصلح ، ومبالغتهم فى تقدير كل ما ينتسب ومن ينتسب إلى العلم الوضعى ، والاستخفاف والاستهانة بكل ما لا ينتسب إليه ، وبهرجته وإطراحه على أنه متخلف وقديم لايصح أن يشغل به الإنسان العصرى وقته وعقله ، ذلك مع أن نيوتن وديكارت وباسكال وليبنتز ، وهم من أئمة العلم الوضعى ، ومن بناته ومؤسسيه كانوا مسيحيين مخلصين ، كما أن « كانت » نفسه كان مؤمناً إيماناً عميقاً بالله ، ولم ينتج عن جحود غالبية الفكر الأوربى لله وللدين من منتصف القرن التاسع عشر حتى الآن أى نمو فى شخصية الإنسان الأوربى ، ولم يزدد بسبب هذا الجحود حكمة ولا أمانة ، ولا عمقاً فى العاطفة ، ولا قدرة على التفاهم والتآخى ، ولا إحساساً بالتزاماته وتبعاته ، بل لعله قد صار أكثر تهالكا على الجنس وتهافتا على الكحول ، وأسرع تصديقاً واندفاعاً ، وأقل استعداداً لتبادل المحبة والود ، ثم هو بكل تأكيد لم يتخلص من الألوهية والتأليه ، لأن آلهته قد زادت عدداً وغموضا ، وهى فى ازدياد ما دامت الدعاية قادرة على صنع الآلهة وتهيئة الناس لعبادتها .

فى هذا الإطار المنكر للدين ، أعلن الفكر الأوربى الذى صاغ قوانين أوربا ودساتيرها ، أن جميع الحقوق والواجبات عامة وخاصة هى من الإنسان لخدمة الإنسان ، وأن الإنسان أو مجتمع الإنسان هو الذى يشرع الواجب والحق

والمباح والمحظور ، وهو الذى يجعل الصحيح صحيحاً والباطل باطلا ، فانطلقت يد الإنسان بلا قيد خارجي فى القانون وفى القانون الأخلاق ، ولم يعد الناس يرون أن فوقهم شيئاً تقف عنده أهواؤهم ، ولم يتأخر الزمن بأوربا حتى ووجهت بتقلص الواجبات ، وتداخل المطالب غير المشروعة فى المشروعة ، وانبهام الحدود بين ما هو خير وما هو شر ، وسقوط هيبة القانون والقانون الأخلاق ، وانتشار عدم المبالاة بين الجماهير التى كثر بينها وفيها الساخطون والناقمون ، والمستعجلون للهدم والمرحبون بالكوارث .

ولا شك أن البلاد الإسلامية التى نقلت أحكام دساتيرها وقوانينها الوضعية عن الدساتير والقوانين الأوربية لأغراض عملية روعى فيها ظروفها وحاجتها إلى المشاركة الجادة فى المجرى الرئيسى النافع للحضارة ، لم تنقل أبدا ذلك الإطار الفكرى الإلحادى الذى أشرنا إليه ، ولم تستجلب وتستأنس تلك الأحكام لكى تستغنى بها عن الدين جملة أو بالتدريج ، أو لكى تعتنق بها جملة أو بالتدريج فلسفة تحل محل الدين باعتباره صورة من صور التخلف مضى زمنها وانقضى ، لقد استوردنا هذه الأحكام كسلمين ، واستخدمناها وألفنا استخدامها وتطبيقها واستيلادها كمسلمين لعشرات السنين مشرعين ومنفذين وقضاة ومتقاضين ومتعاملين ، حالنا فى هذا يشبه حال مسلم اشترى داراً من نصرانى كان قد بناها لنفسه ، لا ضير على المسلم فى الاختيار ، لأنه هو الذى يقدر دواعيه وظروف نفسه ، ولا يمكن أن يقيده شراؤه باعتناق ما قد يجده فيها من بقايا صلبان وتماثيل ، ولا عليه إذا استخدمها كما يحسن بالمسلم فملأها قرآناً وصلاة وأذاناً يبلغ عنان السماء .

تقول : لا يوجد فارق عملى بين تطبيقاتنا لهذه القوانين وتطبيقات أصحابها الأصليين . وردنا : أن هذا موافق للغرض ومحقق له ، لأن المقصود هو الحلول العملية ، أما الروح الكلى العام ـ وهو ما يهمنا هنا ـ فما يزال كما كان ، ونرجو أن يبقى كما كان إسلاميا ، مازلنا ـ أعنى معظمنا ـ ننظر للأمور على أن الله عز وجل موجود فعال لما يريد ، وأنه حد نهائى يحدد بصورة ما أهواءنا ويصدها ، ويحفظنا

من تأليه أنفسنا وتأليه غيرنا من البشر ، وأنه تعالى محكمة عليا لنا بلا إجراءات ولا مهارات ، نسلم كلنا بولايتها علينا ، واختصاصها بنا ، بيضاً وسوداً ، فقراء وأغنياء ، أتباعاً ومتبوعين ، حكاماً ومحكومين ، لأننا نسلم بأننا لها مسلمون .

إن الله هو وحدة المسلمين الحقيقية ، هو وجودهم الحقيق الحى ، هو وحده تعالى الذى شد ويشد إليه مئات الملايين من الضعفاء والفقراء فلم تبتلعهم قوى هذا العصر الخطرة الشريرة ، ولن تبتلعهم إن شاء الله ، هذا شعور عميق غائر فى نفس المسلم فى كل مكان من الأرض ، والذى يقتل هذا الشعور يقتل الإسلام ، والعكس صحيح صحة مطلقة ، والأمر كذلك أيضا بالنسبة للحريات المدنية والسياسية والاقتصادية ، فهى جزء من النظام المدنى يفهم عادة فى البلاد الإسلامية التى تطبق النظم المدنية على معانيه الأوربية ، ولا يكاد يختلف تصور أهل السياسة أو القانون أو الاقتصاد أو أهل الفكر عموماً لحرية الرأى أو حرية الاعتقاد أو لأنواع الحرية الشخصية عن تصور الأوربيين لهذه المبادىء العامة ، وإنما يوجد دائماً ذلك الفارق الذى نبهنا إليه من قبل وهو أن معظمنا فى ممارسته وفهمه لهذه الحريات حين توجد لا يفارق الإطار العام للتدين ، مما يجعلنا من هذه الوجهة أقرب بعض الشىء إلى جو الحريات الأول فى الدستور الأمريكى والإطار الفكرى لواضعيه .

ذلك إلى أن المفهوم الأساسى للحريات هو كونها ضمانات من صنع الناس ، شرعوها وفرضوها على الحكام لحماية أنفسهم من افتئات وعسف هؤلاء حين تحدثهم أنفسهم بذلك وفى أيديهم قوة الدولة ، وهذا المعنى قد يجد فيه المسلم شيئا من المصادرة على المطلوب ، فضلا عن أن بديهته ترفض تصور الناس أرباباً ومربوبين .

ثم إن الحريات الوضعية كلها خارجية تتوخى إبعاد أنواع من العوائق والعوارض الخارجية ، أو التخلص من أنواع من القيود تقيد الإنسان من خارجه طبيعة أن القانون الوضعى كله لا شأن له بداخل الإنسان ، وأن ممارسة الحريات الوضعية لا تكون إلا فى صور تصرفات ووقائع خارجية قولية أو فعلية . أما صدق ممارسة الناس لهذه الحريات ، وصدق احترام الحكام لها فمسألة باطنية داخلية زائدة على معناها ، وهو ما يجعلها فى نظر المسلم الصادق الذى يأخذ الأمور بإخلاص

وتصديق مجالا سهلا للزيف والدجل . ثم إنها مع كونها ضمانات هى قيم اجتماعية ، وقوتها كضمانات تتركز فى كونها قيما ، وهى كقيم ليست ثابتة المنزلة ولا المكانة فى تقدير الناس ، بل مكانتها عرضة للتدهور مع الزمن ، وقد غلبها بالفعل المال والوطنية والمساواة والاشتراكية وغير ذلك .

وربما كان تصور الإسلام للمعنى الكلى الذى تشير إليه كلمة الحرية فى العصر الحديث أكثر عمقاً وأصلح لقيمة هذا المعنى ومكانته :

أولا : لأن مشكلة الحرية فى عصرنا ليست عند التأمل مشكلة سياسية أو اقتصادية بقدر ما هى مشكلة عاطفية عقلية ، فهى لا توجد إذا كنا جميعاً حاكمين ومحكومين متفقين على الصواب والخطأ ، ومتفقين فى الرغبات وفهمها ، وضرورة الاختيار بينها ، وتنظيم كيفية إشباعها ، وكنا جميعاً متفقين على معيار عادل ثابت للكرامة الشخصية لا يتأثر بقوة الفرد وضعفه ، أو بأهميته أو عدم أهميته بالنسبة لغرض معين أو مصلحة معينة ، وبعبارة أكثر دقة إذا كان المجتمع يمنح على الدوام قدرا كافيا من الكرامة والاحترام للفرد العادى باعتباره إنساناً ، ولا يعطى لأحد الحق فى ازدرائه أو إهماله أو إشعاره بأنه أدنى قدرا ممن هو أقوى منه بماله أو بعلاقاته أو بمهارته وكفايته .

ويبدو أن فى أساس فكرة الحرية تكمن ثورة قلب الآدمى على الذل ، وأن استيقاظ الشعور بالذل والقهر ليس إلا الوجه الآخر للشعور بالحرية والرغبة فى الحصول عليها ، فالحرية من هذه الناحية هى الحالة التى يجد فيها الإنسان نفسه غير ذليل ، الحالة التى لا يشعر فيها بالامتهان وهوان القدر . وفكرة الكرامة متداخلة تداخلا كاملا عميقاً فى فكرة الحرية ومختلطة بها إلى أقصى حد ، وهذا يضع قضية الحرية فى مكانها الصحيح فى ميدان المشاعر والعواطف أكثر منها فى ميدان المعقولات والمصالح التى يدبرها العقل ، فلا يثير القيد أو الإلزام مشكلة للحرية إلا إذا اعتبره الإنسان مُحطًّا ، أى أحس معه بالهوان والذل . كذلك الشأن بالنسبة لأى فارق أو تمييز بين البشر لا يشعر الناس بثقله إلا إذا تُرجِم إلى نتائج وتصرفات يعتبرها

الناس مُذِلة أو مهينة ، فيتحرك فيهم الشوق إلى التخلص من الفارق أو التميز ، وتوجد إذ ذاك قضية من قضايا الحرية .

فالحرية تبدأ وتنتهى فى دائرة الشعور ، وفى مجال القيم التى يزن بها الإنسان - من الناحية العاطفية الشعورية - حياته فى عين نفسه وعين الآخرين ، أما الحجج التى تستند إلى المصلحة فهى مبررات نعطى بها لعواطفنا التفسير الفلسفى أو العقلى لها ، وما لم يحمل القيد إلى الناس هذا الشعور المرير فإنهم لا يثورون عليه فى قلوبهم وإن كانوا يصانعونه ليحتالوا على مخالفته ، فقيود الرقابة على النقد لا تثير قضية حرية بالنسبة للمهربين ، ولكن قيود عقد الزواج قد تثير مشكلة حرية على يد الزوج الشرير إذا أحست الزوجة ذلها ومهانتها فى الخضوع لتلك القيود .

وواضح أن مشاكل الفوارق الاجتماعية فى العصر الحالى رغم كثرة وحدة الجدل الاقتصادى والسياسى الدائرين بشأنها ليست مشاكل فقر واحتياج مادى على الأقل فى البلاد الغنية ، وإنما هى مشاكل وضع مهين مذل ، بغض النظر عن كونه من ناحيته المادية يبلغ حد الكفاية ، بل حد الرفاهية بالقياس إلى أمثال هؤلاء الناس فى بلاد أخرى أقل ثراء وتقدما ، فقضايا الحريات العامة هى وقضايا المساواة كلها شعورية ، وهذا هو سر حدتها وقوتها - خطورتها ، وقد ثارت وتثور وستثور دائماً بمزيد من الحدة والشدة ، لأن العصر الحاضر فيما يبدو لم يصل بعد إلى اكتشاف قيمة عليا يكون لها فى نظره الصدارة والتقدم فعلا وواقعا على باقى القيم بحيث يجرى على أساسها توزيع الاحترام والكرامة والتقدير داخل كل مجتمع على نحو ينال رضاء وتأييد جميع المشتركين فيه باستثناء الصغار والشواذ .

والواقع أن فكرة الحياة الكريمة أو المستوى الكريم للحياة ليست إلا تصوراً منتزعا من عناصر مادية يحمل معنى التميز ، فالحياة الكريمة تتوقف على المسكن ونوعه وتأثيثه ، وعلى نوع المأكل والمشرب والملبس ، ونوع المدرسة أو المعهد ، وعلى أدوات وأجهزة الترفيه ووسائل الاتصال والانتقال ، وعلى المحيط الاجتماعى وفرص الحياة الاجتماعية فى أماكن لائقة بوسائل لائقة ، وكل عنصر من هذه العناصر يضيع الإحساس بقيمته إذا أصبح فى متناول الملايين ، أى إذا صار من

مألوف الحياة المعتادة بالنسبة لكثرة الناس ، وأصبح طرازاً شعبياً سوقياً ، فالحياة الكريمة بغض النظر عن الشعارات والنظريات هى فى عصرنا حياة مادية ، ترتفع وتختلف عن الحياة المادية السوقية السائدة بين ملايين المتشابهين ، هى مستوى مادى غير شعبى ، وهذا أصل من أصول شقاء الحضارة الحديثة .

لأنه ما دام أن المال ، أى الدخل أو القدرة الشرائية هو وسيلة الحصول على هذه الحياة الكريمة ، فإن المال يبقى كما كان هو القيمة الاجتماعية الرئيسية التى عليها يتركز اهتمام الناس ، ويتعين على الإنسان فى أى مجتمع أن يجتهد فى تحسين وضعه الاقتصادى ليزيد فى قدرته على الشراء ، وهذا يربط حتما بين نصيبه الفعلى من احترام نفسه واحترام المجتمع له وبين دخله ، وما دام ذلك كذلك فإن خطورة قضايا الحرية والمساواة لن تخف بزيادة الدخول المختلفة ، ولا بتقريبها بعضها من بعض ، ولا بجعل العلة الوحيدة لاختلافها اختلاف الناس فى الكفاية ، لأن ذلك كله لن يغير من وجود مئات الملايين من البشر فى نوع من الحياة المتشابهة الباهتة السوقية ، يشعرها شعورا حادا بأنها فى مركز أدنى من سواها وفق معايير المجتمع ، ويجعلها تحس بالنقص والمهانة .

والواقع أن الإنسان العادى فى زماننا لا يستطيع أن يشعر وهو منفرد وبعيد عن التكتل ، وعن النقابة أو الحزب أو اللجنة بأنه مساو تماما ومن كل وجه جدّى أساسى للغنىّ ولصاحب القوة أو السلطة أو الجاه إلا فى الخبرة الدينية الصادقة حين يعرض نفسه على أقوى وأعلى سلطة فى العالم ويحتكم إليها ، لا على مقدار دخله وقدرته على شراء السلع ، ولا على حسب رأى الرؤساء والباعة والنساء فيه ، وإنما على قدر إخلاصه وصدق ولائه للحق والخير ، وينال من تلك السلطة التقدير والمنزلة المعترف بهما من المؤمنين ، لا بسبب كونه حاكما أو مديرا أو صاحب عمل أو مال ، ولا لأنه أنيق أو ممتاز أو لبق ، بل فقط لأنه إنسان نظيف من الداخل ، وهذا الوصف القلبى هو دائما وصف شخصى فردى لا يمكن أن يصبح طرازاً شعبياً أو سوقياً .

ومعلوم أن رغبات الإنسان لا تنفد ، وكل رغبة تجاب يتولد عنها رغاب

جديدة، ومحاولة إرضاء الرغبات بالإشباع المادى وحده يزيدها نهَماً ويستولدها مطامع أخرى لا تجد كفايتها من الإشباع، فالعالم من هذه الناحية فى حلقة مفرغة خبيثة لا يعرف كيف يحطمها، لا سيما والصناعة الحديثة تتوقف على القدرة الشرائية وتنميتها بتنمية الدخول العامة والخاصة، وإلهاب الرغبات لإنفاق الدخول، فنحن - أهل هذا العصر - نمثل نوعا من الإنسان لا يكفى فى تعريفه أنه حيوان ناطق أو عاقل أو عارف، لأنه أولا حيوان مشتر، وملايين البشر ليست إلا قطعانا من المشترين بالفعل أو بالقوة، بعضهم يمارس حياة الشراء، وبعضهم تملأ شهوة الشراء قلبه وتقعد به قلة المال، ذلك إلى أن الاهتمام بإشباع الرغبات المادية يحصرنا حصراً شديدا فى دائرة إرضاء أنفسنا، ومن هم فى حكم أنفسنا من زوجة وولد، فيدخل علينا السأم من كل باب، وهو ما يحاول الناس فى هذا الزمن طرده بالمزيد من الكحول ومن الجنس ومن الميسر، فلا ينطرد إلا مع الحرية واحترام النفس.

فلا بد أن يقلع العالم عن احتفاله بالأشياء المادية، وعن استخفافه بالاعتدال وضبط النفس وتنظيم الرغبات، وأن يقاوم التيار الحالى الذى يسوقه إلى الإسراف فى الرغبة والشره والأنانية - غير معقول فى فوضى الرغبات والشهوات وغمرة السأم أن توجد حرية أو عدل أو خير أو رقى - أى نظام يمكن أن يستمر بنجاح إذا كان كل إنسان يريد أن يحكم غيره لا نفسه؟! ويسره أن يكون له ما فى يد غيره، وأن يأخذ من الدنيا ولا يعطى بالعدل والذمة ثمن ما يأخذ، وإذا كان الناس يهربون من سأم الحياة ومللها بالمخدر أو بما يشبه المخدر.

إذن فالحرية التى يحتاجها العصر، ويفلتها من يده باستمرار، هى التحرر من استبداد واستعباد رغباتنا ومطامعنا والسأم الذى يقتل حماستنا للحياة.

ألا وإن همّ الإسلام الأول هو توفير الحرية الداخلية النفسية للمسلم بتحريره من ضغط الرغبات والمطامع، وما تجلبه عليه من حاجات ومخاوف، وتخليصه من الاستعباد الروحى والنفسى الذى يحدث له من طغيانها وسيطرتها على فكره وسلوكه

وتحكمها فيهما وفى مصيره ، لأن تزعزع هـذه الحرية الداخليـة النفسية وضياعها مقدمة ضرورية لكل شر وضلال ، وما من ظالم إلا وأداته إنسان تستعبده مطامعه وشهواته ، وما من استبداد أو طغيان اجتماعى أو سياسى أو اقتصادى يمكن أن يوجد إلا إذا كانت الناس قد فقدت حريتها الداخلية وصارت ناضجة لكى تستعبد أيضاً من خارجها .

والشعور بالحرية الداخلية شعور ملىء بالوقار والطمأنينة لا يعكس الظروف الخارجية ، وإنما يرتسم فيه إيمان المسلم وسيطرته على نفسه وضبطه لها ، وإحساسه بتأييد الله عز وجل ، وبالقوة والرضا اللتين يولدهما ذلك عنده ، فالمسلم الصادق يكون حراً وهو مسجون ، وحراً وهو رقيق ، وحراً وهو فقير ، وحراً وهو مغمور حرية أعمق أو أشد من حرية الكثيرين من الطلقاء والسادة والأغنياء وذوى الجاه المشهورين . وهذه الحرية تجلب له سعادة ، وغالبا ما تصونه عن الحقد وتملؤه بالهدوء ، وهى تصونه دائما عن أن يظلم أو أن يعين ظالماً ، وتمنعه دائما عن إفساد حياة الناس أو المشاركة مع غيره فى إفسادها ، وهذا وحده خير عظيم .

ثانياً : إن هـذه الحرية الداخلية التى يطلقها الإسـلام فى قلب المسلم الصادق ليست عدم مبالاة ولا سلبية ولا بلادة ، وهى لا ترجع إلى زهد فى الدنيا وانصراف عن شئونها ومساعيها ، وإنما هذه الحرية هى مزيد من الفهم والثقة والنظر إلى الحياة من مستوى أعلى ، وهى نتيجة لشعور المسلم المعتنى بدنياه وآخرته بعبوديته لله وحده ، وأن لله وحده المثل الأعلى فى الدنيا والآخرة ، ولا يمكن أن يشعر المسلم الصادق بعبوديته لله وحده إذا كان فى رق أهوائه ، أو إذا كان فى قلبه خوف من مخلوق أو طمع فيـه ، أو كان لا يحس أنه محاسب ، فالعبودية لله معنى غيور لا يقبل إشراكا ولا اشتراكا ، فلا يتصور المسلم الصادق وجود مخلوق وراء قدرة الرب جل وعلا ، ولا خارجا عن سلطانه ومشيئته ، ولا وجود مخلوق أولى من الرب بالطاعة والولاء ، ولا أحق منه بالثقة وحسن الظن ، ولا وجود مخلوق يمكن أن يكون أحب إلى المسلم من شىء يحبه الله ، ولا أبغض إليه من شىء يبغضه الله تبارك وتعالى ، والمسـلم الصادق يتصور أن الموت نفسه مخلوق بنص الكتاب ،

لا يهابه من دان بالعبودية لله وحده ، وأن الوجود كله بكل ما فيه ومن فيه صغير ذليل تحت قهر الله عز وجل ، وهو لا يرى فى أية قوة تطاول قوة المولى ، إلا طيشها وسخفها وضآلتها ، فهى لذلك لا تبهره ولا تهوله ولا تزعجه ولا تهز ولاءه ولا تزعزع طمأنينته ، هذه العبودية العجيبة مليئة بالحرية مفعمة بالخلاص ، وهى سر سيطرة المسلم الصادق على رغباته ، وسر تماسك نفسه ووحدتها وعدم تفرقها وتشعبها فى الأمانى والأطماع ، وهى سر وقارها وعدم اضطرابها وقلة مخاوفها وهواجسها وسكينتها فيما يسر ويحزن ، وهى أيضا حساسية قلب المسلم للمسئولية والتبعة .

ثالثاً : لا يتصور الإسلام بطبيعة الحال حرية اسمها حرية ترك الإسلام ، فإن الإسلام ليس انتماء إلى حزب أو ناد ، وليس برنامجا سياسياً أو اجتماعيا يلغيه الإنسان أو يرفضه متى أراد بلا معقبات ، لأن إمكان الإلغاء والرفض مفروض فى نفس عملية الانتماء للحزب أو النادى ، وإنما الإسلام أخوة فى الله أبدية فى الدنيا والآخرة ، وولاء لله وبيعة له تعالى أبدية فى الدنيا والآخرة ، ونوع حياة لها وجهها الفردى والعائلى والجماعى ، فيها الاستمرار عنصر أساسى ، إذ يتسلمها الأبناء من الآباء ، ليتسلمها منهم أبناؤهم وهكذا ، فحرية البقاء فى الإسلام أو تركه كأنه الفندق أو الخان سخافة لا توجد إلا إذا كف الإسلام عن أن يكون ديناً ملزماً لأهله ، والارتداد عن الإسلام إذا وقع - والعياذ بالله - ليس ممارسة لحرية ، وإنما سقوط وخيانة .

رابعاً : إن الإسلام لا يحترم الرعونة ولا الحماقة ، ولا يتصور أن يكون المسلم إلا عاقلا ، ولا يعرف ولا يعترف بحرية الطيش والحماقة ، ونحن نخلط بين الحرية والحماقة أحياناً فى مباذلنا وملاهينا ، وأحياناً فى يأسنا وفشلنا ، ففى الأولى نتصور أن الحرية تنسى وقارها وخطورتها لتحقق وتحمى نزغات ونزوات وأهواء بعض فارغى الرءوس فى اللبس والزينة والتسلية ، وهى أشياء لا يحميها كونها من حرية الإنسان الحديث بقدر ما يحميها إقبال الناس عليها ومشاركة الكثيرين فى سخفها ، وأن منعها لا يساوى المضايقة التى تتخلف عن إجراءات المنع والقمع .

ونحن فى اليأس والفشل كثيراً ما نتصور أن المصلحة يخدمها التهور وأحياناً الجنون ، فنقدم عالمين عامدين على تصرفات نعلم أنها مخالفة للعقل ، لأننا نظن أننا أحرار فى استعمال العقل وعدم استعماله ، وأن هناك مواقف لا تصلح فيها الحكمة

وضبط النفس يجب ـ حتى نتجنب الملامة والانتقاص ـ أن نواجهها بالجنون والاندفاع لا من باب التظاهر ، وإنما مؤمنين بالجنون والمجانين ، وحين نمر بهـذه الحال الغريبة نعتبر الذين يصرون على التعقل والاعتدال خصوما لنا وللحرية ، لأنهم يقاومون هوسنا الذى نريد أن تكون له الكلمة العليا ، ويشيعون حوله ترددا وشكوكا . والناس حين ترفع راية الهوس وتوليه فى حياتها هذه المكانة ، تغير اسمه المألوف وتخلع عليه أسماء أخرى ذات بريق ، ويساعدهم ذلك على الاستمرار فى تلك الحالة ، وعلى نسيان كيف دخلوها ، ويشعرهم بالزهو لوجودهم فيها كما يجتذب إليهم غيرهم من الشواذ الذين يسعون وراء فرص للتعبير عن آفاتهم وهم آمنون من الخوف والعار ، ونحن حين نختار الهوس والجنون لا نعلم أين يؤديان بنا ولا أين يقفان ؟ وليس لهما حساب يمكن معرفته مقدما أو ضبطه ، ومتى سيطرا فلن يتخليا عن السيطرة تلقائيا عند ما تدعو المصلحة ، ثم إن النـاس تعتاد الحمق بالممارسة ، ويتعذر عليهم أن يقلعوا عنه رغم فداحة ما يصيبهم من جرائه . إن إقدامنا على اختيار الجنون ورفض العقل دليل نقص هائل فى حريتنا الداخلية ، وعجز تام عن ضبط رغباتنا ومخاوفنا ، وتصدع عميق فى ولائنا لمثلنا ، وكل ذلك لا يمكن أن يوجد فى قلب مسلم صادق لأنه رد فعل يائس ، لأنه حكم غير معقول نصدره ضد عقولنا ونحن فى قبضة الشعور بالفشل واليأس ، لأنه مجرد ميل بدائى مخرب يدفعنا بلا بينة جدية إلى تجربة الوجه الآخر المضاد للعقل ، وإلى إطراح دفة السفينة كرد فعل غاضب على فشلها فى عبور العاصفة .

نقول لأهل التقريب وغيرهم من أصحاب الدعوات الإسلامية : إن هذا الذى قدمناه مع وضوحه فى ذاته ليس واضحا ولا قريباً من الوضوح عند معظم الناس فى عصرنا ، وإن من أكبر ما يصادف الدعوات الإسلامية من صعاب أن الناس لا يريدون أن يصدقوا أن حرصهم على الحرية الداخلية أمر أساسى لحياتهم وللحريات العامة التى يتباكون عليها ، وإنه مع عدم توافر هـذه الحرية الداخلية فى نفوسهم لا يمكن أن تعيش بينهم حريات عامة سليمة مصونة مثمرة ، وإن الحرية لا يمكن أن ينهض بها ولها الشرهون الخائفون العابدون لكل قوة ، العاجزون عن الإخلاص ، الذين يملأ قلوبهم الشك ، ولا يشغلها إلا أمر الجيوب والبطون .

— ٥ —

التقريب لا يعادى المال ولا يواليه ، ولا يقترح على خصومه ولا على أصحابه وأنصاره ، لأنه ليس تقريباً بين المذاهب الاقتصادية ، بل تقريب فى الله بين إخوة فى الله ، لكن المال يلفت إليه دعوة التقريب من جهة آثاره على الأرواح باعتباره قيمة قد تنافس الدين ، وباعتباره عنصراً فى معنى الواقع ، وباعتباره وسيلة من الوسائل فى خدمة الحاجات المادية اللازمة للدعوة الدينية ، وباعتباره أداة للتعبير عن العواطف بعامة وعن عاطفة التدين بصفة خاصة .

والمال فى مجتمع يخدم المال قوة ليس لها فى نظر الناس حدود ، إذ هو يمثل قوة المجتمع حين يطيع المجتمع ويخدم ، قوة المجتمع مركزة يسهل للآدمى أن يستعملها فى تحقيق آلاف الرغاب والأغراض ، ومن هنا جاء تعلق الناس به كل هذا التعلق وتقديمهم له على الحياة نفسها ، ومبالغتهم فى قدراته ، وتصورهم أن الآلهة نفسها يمكن شراؤها بالمال ، وأن صاحب المال يستطيع أن يبتاع الآخرة كما استطاع أن يقتنى الدنيا ، والتصارع على المال أو بسببه هو لا شك صراع من أجل القوة فى أصغر وأيسر صورها ، والمال فى كل الجماعات حتى الماركسية فى مقدمة القيم من قائمة القيم فعلا وواقعا ، وتفوق المال على القيم الأخرى ، وهو ما يسمى فى اللغة الجارية بالمادية ، أو بالطابع المادى أمر أكثر ظهوراً عند السوقة والمحتاجين وأهل الفقر والكتل بصفة عامة نتيجة الشعور بالاحتياج والضيق وشدة التطلع إلى الراحة منهما ، وكون الفقر أولا وأخيراً فقراً إلى المال واحتياجاً إليه ، وضيقاً سببه قلة المال أو افتقاده مصحوباً بتطلع إلى الفرج الذى يجىء مع مجىء المال ، وعين الفقير غالباً ما تتعاظم المال حتى القليل منه ، وهو لأنه يرى المال بعين الخيال والاشتهاء ، ومن بعيد يجسم لنفسه شأن المال وقدراته وأعاجيبه ، ولذلك لم تستطع الأديان حتى فى عنفوانها أن تحطم مكانة المال فى قلوب الكتل الفقيرة وإيثارها فى الغالب العاجلة على الآجلة فى سلوكها وردود أفعالها .

بيد أن الكتل الفقيرة لا تعطى المجتمعات طابعها عبر التاريخ ، إذ المجتمع يستمد طابعه دائماً من الطبقات التى تعلو القاعدة ، كما هى الحال فى الأبنية عموما ، فإن

شكل البناء وطابعه هو الأبعاد والمساحات التى يقتطعها من الفراغ فوق الأرض ويحتازها من الأفق ، فالطبقات التى تعلو القاعدة ، ولا تعانى باستمرار ضغط الاحتياج والفاقة ، هى التى يمكنها أن تقف من المال موقفا فيه شىء من الهدوء يسمح لها بالتأمل وعقد المقارنة بينه وبين سواه من القيم وترجيح قيم أخرى عليه والبلوغ فى هذا الترجيح إلى حد الاعتقاد الجازم ، والإيمان الذى ليس بعده شىء ، وهى التى يمكن أن تفطن إلى أضرار المال وأخطاره وقدرته الشيطانية على التسرب إلى الروح وإتلاف الضمير وإصابتهما بالضمور والشلل ، ألا ترى أن البدو فى الصحراء لا سبيل إلى إقناعهم بمضار الماء الذى لم يعتادوا أن يروا منه إلا القليل وأنه لا يتوجه عليهم النصح بالاعتدال فى استخدامه ، لأن الماء إذا آذاهم عادة فإنما تؤذيهم قلته ، وما تؤدى إليه قلته من اعتراكهم واقتتالهم على الأوشال . لكنه يتوجه على أهل الخصب ممن حباهم الله بالأمطار الوفيرة التى لا تغب ، أو الأنهار العظيمة التى لا تكاد تنقص .

فى هذه الطبقات يمكن أن يتقابل الدين كقيمة مع المال مقابلة فيها صراع ، ولا نعنى بالدين ما يؤدى من العبادات اعتيادا وشكلا لجلب المنافع ودفع المضار ، وإنما نعنى به مايدين الإنسان من صحة العبودية لله وحده ، وصحة الولاء لله وحده ، ومن الدفاع عن الحق والتزام الشجاعة والتجرد والغيريه ، أى إيثار الغير على المصلحة الشخصية .

يحدث بين الدين بهذا المعنى وبين المال صراع ، فإذا فاز الدين انخفضت مكانة الغنىّ بالنسبة للفقير ، وتراجع شأن المال ، وقل تهافت الناس على الثراء ، ولم تعد تشح النفوس به ، وسهل البذل على الجرىء وغير الجرىء ، وتقرب الناس ببذل المال فى الصدقات وأنواع البر سراً وعلانية ، ولم يعد الفقر من المال نقصا يغض من قدر الآدمى فى عين نفسه أو فى عيون الناس الذين يعتد برأيهم . كما لم تعد ملكية المال تزكى قدر صاحبها ، بل لعلها تتحيف قدره ، وخفّ بهذا جانب مهم من جوانب الصراع على الدنيا ، وتسربت أنداء ذلك وأرواحه إلى القاعدة ، أى إلى الكتل الفقيرة ، فلطّف من حدّة ما تعانيه ، وبعث فيها الميل إلى تقليد من فوقها

بعض العفة والقناعة ، وجال بين زواياها نسيم من الرقة والرحمة يخفف لوافح الطمع والقسوة وعدم المبالاة التي لا ينقطع هبوبها حيث تعيش الكتل وتتصارع على العيش .

وعملية رفع الدين إلى رأس قائمة القيم هي في الدرجة الأولى عملية خفض لمكانة المال وسلطانه يتعرض فيها الجانبان للتطارف ، فالغنى في بعض النصوص لا يمكن أن يدخل الجنة ، أو أن يدخل رحاب الله ، أو ملكوت السماء ، والمراد الغنى الشرير بطبيعة الحال ، لأن الله عز وجل قد يعطى الآدمى الدين والدنيا معا ، وقد يمنح الغنى الشجاعة والتجرد والرحمة مع المال ، وقد يتعلق قلب الغنى بالحق سبحانه ، وبالولاء له وبنصرته أضعاف أضعاف تعلقه بماله ، وليس قولنا إن المال محبوب مرادفا لقولنا إنه المحبوب الوحيد ، أو إنه أحب محبوب .

وكل منا يحب ربه ونبيه ، ويحب الولد والزوج والصديق ، ولا يجد في حبهم جميعا معاً وجهاً للإشكال ، وإنما يوجد الإشكال عند قيام سبب للتعارض الجدى مع استحالة الجمع والتوفيق ـ يلزمنا بالاستغناء عن محبوب من أجل محبوب آخر ، فإذا تعارض طريق الله مع طريق المال ، وإذا لزم لشراء الدنيا أو الاحتفاظ بها أن يتخلى الرجل منا عن ولائه لله عز وجل ، فإنه يكون قد خان وباع دينه بدنياه ، وامتنع عليه دخول رحاب الله ، بهذا لا يكون غنيا .

وليس من السهل ـ ما دام الناس بتكوينهم العقلى والعاطفى الذى هم عليه حتى الآن ـ أن يبقى الدين لمدة طويلة على رأس جدول القيم فعلا وواقعاً ، لا نظراً وكلاماً فقط ، لأن ذلك يحتاج إلى قدر من ضبط الغرائز وقمع النوازع لا يصبر كل أنواع البشر على معاناته إذا لم يكن معهم شيء آخر خلاف عقولهم ونفوسهم وعوائدهم أقوى منها ، كالخبرات الدينية العنيفة ، أو العاطفية القوية ، وهذه بطبعها لا تمكث إلا لأمد محدود ولا سبيل لإحداثها وإثارتها حسب المشيئة ، بل هي لا تحدث إلا في ظروف غير عادية على أيدى أفذاذ غير عاديين ، ويبدو أن تصدر الدين قائمة القيم في نفوس الناس لا يجيء إلا كرد فعل في أعقاب نوبات الكلب والسُّعار على الدنيا : تلك النوبات التي تجتاح المجتمعات عند ما يبلغ فيها الشغف بالمادة والاقتتال

على متاع الدنيا ذروتهما ، فى عقب هذه النوبات أو فى نهاياتها تكون الفرصة ملائمة للخبرات الدينية العميقة العنيفة على النطاق الواسع ، ومواتية للموهوبين الموفقين المختارين المكلفين بتعجيل حدوث تلك الخبرات على الوجه المراد لها فى الأزل .

وقد بينا فى مقال سابق فى الإشارة إلى طابع الحضارة الحديثة كيف أن الدين قد تصدر قائمة القيم فى غرب أوربا فى العصر الوسيط قرابة قرن من الزمان ، ثم بدأ المد المادى من القرن العاشر ، واستمر فى الارتفاع ، وهدأ بعض الشىء فى آخر القرن السابع عشر ، ثم صادف دفعة هائلة فى القرن الثامن عشر نتيجة استخدام البخار فى الصناعة ، ووصلت هذه الموجة الجديدة إلى ذروتها فى منتصف القرن التاسع عشر ، واستقرت المادية فى الفكر الحديث باستقرار مكانة العلوم الوضعية وعلم الاقتصاد وفروعه ، فالمذاهب الاقتصادية رأسمالية أو اشتراكية أو نقابية أو تعاونية كلها تنويعات فى ذلك الاتجاه المادى تؤكده على اختلاف فى الأسلوب والشكل الذى يجرى به ذلك التوكيد ، وقد زاد القرن العشرون ذلك المد المادى دفعتين:

الأولى : باستخدام الكهرباء فى الانتاج الصناعى على أوسع نطاق .

والثانية : باستخدام الطاقة الذرية ، وبإطلاق شغف خرافى فى العالم أجمع إلى التصنيع والإنتاج الصناعى ، أى إلى إيمان بالماديات والمزيد منها ، وقياس المستوى الحضارى بمستوى المعيشة المادى ، ومستوى الدخل المادى .

وفى زماننا ـ كما فى أزمنة سابقة ـ يتسنم المال قمة القيم فعلا وواقعا ، رغم ضجيج الاعتراض والاحتجاج ـ المال مملوكا ، والمال مشتهى ، والمال مسخوطا عليه ـ والناس فى البلاد الجديدة تستبق من أجل المال مملوكا ، وهم يصرفون معظم حياتهم ونشاطهم فى التفكير فى المال المشتهى ، وقلما نجد فيها من يشغلهم المال مسخوطا عليه ، أما فى البلاد القديمة حيث يبدو مجال الحصول على المال والثراء محدودا ، وحيث يضعف الميل إلى المجازفة والمغامرة ، فإن المال لا ينزل عن مرتبته فى رأس القيم ، ولكنه يتخذ صورة الشىء المتحسر عليه أو المسخوط عليه باعتباره مفتاحا للسعادة يفتقده غالب الناس ويجده قلتهم القليلة ، والتعلق بالمال بهذا المعنى الأخير ، أى باعتباره مفتاح السعادة المفقود هو الشعور الحقيقى الدفين الكامن وراء

الحركات والمذاهب الاجتماعية الحاضرة ، فجمهورها برغم العبارات والشعارات ليس جمهورا زاهداً فى المال راغبا عن مناعم الحياة المادية ، بل هو جمهور متعطش لها ، ناقم على الفائزين بها دونه ، ومن هنا جاء سعى هذه المذاهب جميعا إلى الحصول على السلطان السياسى ، لأن السلطة السياسية هى جهة العطاء الأساسية بالنسبة لكل شىء مادى ، ولأن مشيئتها نافذة فعالة فى الأموال والدخول والأعمال التى تدر الأموال والدخول .

ويجب أن يلتفت أهل التقريب وغيرهم من أهل الدعوات الإسلامية الأخرى ـ فى نظرهم ـ إلى تأثير المال ، يجب أن يلتفتوا إلى دَوْرِ الخامة البشرية ، ودور الكسل البشرى ، والخامة البشرية ـ أى مجموعة الاستعدادات والقدرات والخصال التى لدى الإنسان ـ تختلف من جماعة إلى أخرى ، كما تختلف بين أجزاء الجماعة الواحدة ، وتختلف كذلك باختلاف الأزمنة والظروف ، وهذا الاختلاف فى الخامة البشرية ترك ويترك آثاره الحتمية على تاريخ الأديان وكيفية نموها ، وعلى آثار صراعها مع المال والقوى المادية ، وهو يحدد مع غيره من العوامل مستقبل أية دعوة إسلامية قديمة أو جديدة ، وهبوط الخامة البشرية شىء حدث ويحدث فى كثير من الجماعات ، وهو يترجم عن وجوده فى صور خلل مزمن فى عمل الأنظمة ، وفى ذهول عام ينتشر بين الناس ، وإعراض عن الاهتمام بنجاح النظم ، وفى فقد الغيرة على الخير العام ، إذ الناس لم يعودوا يحتفظون بالصفات النوعية التى كانت غالبة فيهم من قبل ، وحين يستحكم هذا الهبوط ويستشرى فى الجماعة كلها يصبح من غير الممكن معالجة الأنظمة ذاتها بالتعديل والتغيير ، وبنقلها من أيدى فئات إلى أيدى فئات أخرى مادامت الفئات كلها يغلب عليها الشر والجبن والأنانية وقلة المبالاة ، بل يتعين أن يتوجه عِلاج المعالج المخلص لا إلى تغيير النظم مباشرة ، بل إلى محاولة تغيير النفوس لإعادة الخامة البشرية نفسها إلى المستوى الضرورى اللازم لنجاح النظم ، وهذا لا يمكن أن يتم بتملق خلق الله وإرضاء غرورهم وكسلهم .

وفى هذا الصراع بين الدين وبين المال على نفوس الناس وأرواحهم وجوانب نفوسهم وأرواحهم ، لم يدرس المسلمون الكسل دراسة كافية ، ولم يتنبهوا إلى دوره

الخطير فى تاريخهم ، ولا إلى الصلة الوثيقة بينه وبين المغالاة والتطرف والجمود ، والكسل فيما يبدو أمر نفسى وعقلى ، وهو خوف وإعراض عن تصور موقف جديد يدفعنا إلى الهرب من تغيير ما هو موجود ، وهو بعيد عن أن يكون بجرد كراهة وإعراض عن بذل المجهود فى ذاته ، فإن الآدمى فى كل لحظة حتى فى نومه يبذل مجهودا ، وحياته الفسيولوجية والنفسية سلسلة متصلة من الجهود المبذولة التى لا تتوقف إلا إذا توقفت الحياة نفسها ، ولكن الكسل فيه أمر زائد على بجرد رفض المجهود ، هو رفض الجديد المقصود به إحداث تغيير فى تصوراتنا أو مواقفنا ، ونحن حين نتخذ موقفا جديدا أو تصوراً جديدا ندخل فيما يشبه المغامرة ، فإذا أقلعنا عنها وارتددنا إلى موقف أو تصور قديم ألفناه نكف عن هذه المغامرة المنهكة ، ونتوقف عن بذل الجهود النفسية والعقلية التى يقتضيها تغيير ما ألفناه واعتدنا عليه ، وهو ـ أى هذا التغيير ـ أمر ضرورى لتثبيت كل موقف أو تصور جديد ، فمثلا : الموجة المادية التى بدأت تظهر بين المسلمين مع الفتوح فى أواخر عهد عمر رضى الله عنه ، ثم علت وامتدت بعد ذلك ، كانت فى جوهرها موجة كسل بالمعنى المتقدم ، أى إعراضا ورفضا من جانب عامة المسلمين الذين لم يروا الرسول ولم يشهدوا المشاهد معه لتغيير حياتهم تغييراً شاملا على النحو الجاد الذى يتطلبه تطبيق الإسلام تطبيقاً صحيحاً كاملا ، إذ المسلمون فى إطار ذلك الرخاء الذى جاء بعد الفتوح أفزعتهم جسامة التغيير المطلوب وسعته وعمقه ، وتهيبوا تطبيق الإسلام الكامل المجهِد ، وغلب على أمرهم الاسترخاء النفسى والعقلى والروحى ، واكتفوا بتطبيق الإسلام تطبيقاً فيه مصالحة ومواءمة يقف فيه التغيير والمجهود النفسى والعقلى الذى يستلزمه عند حدود وأجزاء معينة من حياتهم أسلموها للإسلام ، وبقى لهم معظم أجزائها الأخرى بعيداً عن ضبطه وربطه ، متأبيا على ذلك التغيير الكلى الذى هو هدف الإسلام الأساسى ، وما يزال هدفه إلى أن تقوم الساعة ، ومثل ذلك حدث ويحدث فى كل حركة دينية أو اجتماعية تتغيا إحداث مثل هذا التغيير الكلى فى حياة الناس ، فإنها لا بد أن تصطدم بعد وقت يقصر أو يطول بمقاومة حائط الكسل البشرى ، هذا الحائط الذى يفسر قصر عمر العصور المثالية فى تاريخ الإنسانية ،

إذ المثالية تخضع الماديات للمبادىء والقيم غير الحسية ، فإما أن يرفض الناس بدافع هذا الكسل وما ينطوى عليه من نفور وخوف ، المضى فى طريق المثالية ويرتدوا إلى ما كانوا عليه قبلها ، وإما أن يرفضوا ـ مسوقين بذلك الكسل نفسه ـ تجاوز ماقطعوه من طريق المثالية ، ويتشبثوا بالجزء الذى بلغوه لا يفارقونه ويرفضون سواه ، وبذلك يقعون فى قبضة الجمود والتعصب ، وحينئذ يتخذ الكسل عندهم صوراً غريبة من المبالغة والعناد تقاوم أى مجهود يبذل من أجل المزيد من الفهم والتقدم ، ذلك على حين أن عصور المادية فى تاريخ البشر طويلة ، لأنها تستظل بحائط الكسل الفطرى وتحتمى وراءه ، والتاريخ لمن يتأمله هو حتى الآن تاريخ محاولات متفرقة يفصل بين بعضها وبعض أحقاب وعصور تحاول فيها البشرية القفز فوق حائط الكسل ، تنجح فيها قلة ، ويخفق فيها الأكثرون .

ويزداد حائط الكسل كثافة كلما ازداد نفوذ الكتل والعامة ، ونفوذها فى العصر الحاضر جسيم ، وهو لا يرجع إلى الفكر والنظر الفكرى ، لأن الفكر مهما تساهل وتسامح لا يسلم للعوام فى قيادة البشرية إلا بدور ثانوى ، إذ الفكر لا يستطيع أن يتجاهل الحدود والظروف التى تقيد قدرات العوام الفكرية والروحية ، ويبدو أن مكانة الكتل فى زماننا إنما ترجع أساساً إلى دورهم فى الصناعة والتجارة الحديثتين ، فهما على النطاق الواسع الحديث تحتاجان إلى الكتل والعامة كعمال وعملاء على حد سواء ، وأى آدمى مهما كان حظه من القدرة الفكرية والخلقية يمكن أن يقرأ صحيفة ، أو يقود سيارة ، أو يركب طائرة ، أو يقتنى ثلاجة ، أو يلبس ثوبا أو حذاء ، أو يشاهد فيلما ، أو يسافر على سفينة أو قطار ، أو ينزل فى فندق ، أو يملك سهما أو سندا أو أرضا أو مبنى ، والصناعة والتجارة فى شراهتهما إلى العملاء والمستهلكين وإلى الاستزادة منهم لا تكفان عن مغازلة الجماهير والكتل ، تدفعانهم دفعا إلى المقدمة ، وإلى الاستكثار من القوة والنفوذ اللذين يخولانهما المزيد من القدرة على الشراء والانفاق ومزاحمة الخاصة فيما كانت تستأثر به فى الأزمنة السالفة من وجوه الشراء والاقتناء والممارسة والتعاطى ، فالصناعة والتجارة هما القوتان الخفيتان اللتان تسوقان الكتل إلى مساواة الخاصة فى الرغبات والشهوات والمطالب والحقوق ، وفى كل ساعة

تحاولان إثارة وخلق رغبات جديدة لدى العامة ، وتقريب وجوه الترف إليها ، فليس بعجيب ما نشاهده من شدة الروح المادية لدى الكتل ، وظهور الأنانية والغرور ، وضعف الشعور بالواجب ، وقلة ضبط النفس والاتزان ، أما العقائد والسياسات والمبادىء العامة التى تشيع بين الكتل فى عصرنا فى بلاد العالم فإنها إنما ترقص على أكتاف العامة لتزيد من تلبيتها لمطالب الصناعة والتجارة ورغبتهما التى لا تهدأ فى تحويل البشر كلهم إلى مشترين ومستهلكين ، وليس عبثاً أن تتخذ القدرة على الشراء مقياساً لمستوى الحياة فى أى بلد ، وأن ينظر عصرنا فى عناصر هذه القدرة إلى الأشياء التى تستطيع أن تقتنيها الكتل من السلع والآلات الشائعة فى زماننا .

ولكن هل يمكن أن تصبح الأشياء المادية أغلى وأثمن من الآدميين فى مجتمع متحضر ؟ نعم ، يمكن حينما نغفل أمر الآخرين فى تفكيرنا ، حين نبعدهم عن دائرة اهتمامنا ، حين لا نرى إلا أنفسنا وأغراضنا ، وحين لا نرى إلا حسن تخطيطنا لأغراضنا ، وإلا نجاحنا فى تنفيذ هذه الأغراض ، عندئذ يصبح الآدميون بالنسبة لنا إما مجرد عوامل مساعدة نستخدمها فى أغراضنا ، أو معوقة نتخلص منها ، وإما مجرد أسماء أو كائنات فرضية ليس لها فى واقعنا مكان ولا معنى لها بالنسبة لنا ، ولا نحس بوجودها أى إحساس حقيق ، هذا لا بد أن يحدث حين نقول إن الإنسان هو سيد مصيره ، وإنه لا توجد جهة عليا يجب عليه أن يخضع لمشيئتها أغراضه ، ويخضع لها تخطيطه وتنفيذه لهذه الأغراض ، جهة عليا تفرض قداسة قيمة كل آدمى كآدمى ، وتفرض على الكل احترام قداسة قيمة كل آدمى فى كل تخطيط وكل تنفيذ وكل غرض .

ولا شك أن تصورنا للواقع يدخل فيه فى الغالب المال والمادة من عدة مداخل ، لأنه ليس تصوراً مبناه النظر الفلسفى ، وإنما مبناه تواطؤ الناس واتفاقهم واصطلاحهم وعرفهم ، فالشىء المحسوس هو الواقع ، والشىء المحسوس المقوم بمال هو قمة الواقع ، ونحن حينما نسعى للحصول على هذا الشىء نعتبر أنفسنا واقعيين فى الدرجة الأولى ، كما نعتبر أنفسنا غير واقعيين حينما نعرض عنه من أجل شىء

آخر غير محسوس وغير مقوم بالمال كالعلم والفضيلة ، بل إننا فى أغلب الأحيان لا نكاد نلتفت إلى مالا يجتذب حواسنا ، أو ما لا نستطيع أن نحتازه أو نملكه بصورة حسية ، فلا نلتفت إلى الصحة إلا عند المرض ، ولا إلى الحرية إلا عند التقييد أو الاعتقال ، وخارج هذين البلاءين نعتبر الإنسان الصحيح الذى يهتم بالصحة ، والإنسان الحر الذى يلتفت إلى الحرية إنسانا غير واقعى يشغل نفسه بأمور احتمالية نظرية خلاف الواقع المادى الملموس المحسوس الحاضر الذى يقيمه المال أو يتقوم بالمال .

وحال الدين فى هذا الصدد كحال العلم والفضيلة والصحة والحرية ، ولعلنا بحاجة شديدة إلى محاولات جادة نبذلها باستمرار لمعرفة المسافة التى قطعناها فى طريق ذلك الواقع المضلل مبتعدين عن الله عز وجل ، لا أشك أننا جميعا نريد خيرا كثيراً لديننا ولإخوتنا فى الدين ، ولكننا نتردد ونحجم عن دفع ثمن هذا الخير الكثير الذى نريده ، لأننا فى إطار ذلك الواقع المشار إليه لا نحب الإسلام والمسلمين قدر حبنا لأنفسنا ، ومن هم فى حكم أنفسنا ، ولمصالحنا وأموالنا ، ولأننا برغم الأقوال والابتهالات لسنا واثقين من وجهتنا ، ولا يخلو معظمنا من استرابة قليلة أو كثيرة فى وعد الحق ، وحسب أغلبنا أن يسأل نفسه : هل يثق فعلا فيما عند الله تبارك وتعالى ثقته فى البنك الذى فيه ودائعه ، أو فى شركة التأمين التى أمّن لديها على حياته وماله ، أو ثقته فى وعد الحاكم ورضاه ؟ إن العقود والعهود التى نعقدها مع الله عز وجل معظمها كلام وأحلام ، لأننا نخاف أن نصف أنفسنا ويصفنا الناس بأننا غير واقعيين وغير عمليين ، ولأننا نفر من تحمل المضايقات أو المشاق أو التضحيات ولا سيما المادية منها ، من أجل أشياء تبدو لعين الحرص ظنّية نظرية مع كونها هى هى وحدها حق الحق ، وسواها الذى نظن أنه الواقع المادى هو هو الوهم والباطل وقبض الريح .

واتصال الدين بالمال اتصال انتفاع واستخدام شىء حتمى ليس منه مفر ، إذ الدين لا ينفك عن استخدام المال ، ولا تنقطع حاجته إلى استخدامه ، ولذلك كانت الزكاة من أركان الإسلام ، وكانت الصدقة من أوكد وسائل التقرب إلى الله

سبحانه وتعالى ، والتقرب إلى الله بإنفاق المال طريقه الرئيسى فى عنفوان الدين هو الفقراء والمحتاجون والغارمون ، فمن أجل هؤلاء يقترض الله بنص الكتاب من القادرين ، لأن الدين فى عنفوانه يحمل على عاتقه أعباء ومشاكل الفقر والفقراء ، ويكون من هذه الناحية ، وفى هذه الخصوصية دين الفقراء والضعفاء ، يجبر كسرهم وينصر ضعفهم ، ويسد خلتهم ، وهو يتبنى حاجة الفقراء والضعفاء ، ويجعلها مفضلة ذات صدارة وأولوية وتفوق بين وجوه إنفاق مال الله ، لا يتخطاها سواها من الأغراض الدينية الأخرى ، ولكن حين يجاوز الدين عنفوانه ، وحين يعود المال إلى مركز الأهمية والتصدر فى النفوس ، ويكون الأمر إلى مشيئة أصحاب الأموال فى توجيه صدقاتهم وحبوسهم وأوقافهم ونذورهم كثيراً ما يتوخى هؤلاء تخليد الذكر وبقاء الأثر المادى ، وكثيرا ما يضنون بأموالهم أن تستهلكها أولا بأول حاجة الفقراء والضعفاء ، ويفضلون إنفاقها فى الآثار الباقية من المساجد الفخمة ، وتهيئتها بالفرش الغالى والتحف النفيسة هى وما يلحق بها من مكاتب ومدارس وسُبُل ، فيُمازِج تأثير الدين ويخالطه فى أذهان الناس وخيالهم فخامة البناء وقوة المعمار ، وروعة الفنون والصناعات الزخرفية والتشكيلية ، وقد ألفنا وألف آباؤنا ذلك من قرون عديدة ، وصار بذل المال من أجل هذه القرب الدينية الصرف أياً كان مصدر المال ووسيلة الحصول عليه وجمعه طريقاً أكيداً مقرراً للتعبير عن التدين ، واكتساب تقدير جماعة المتدينين ، وهذا كما قلنا واقع قديم عميق الجذور كثيف الفروع ، يستحيل على أهل التقريب وغيره من الدعوات الإسلامية أن يتجاهلوه ، أو أن يعنفوا بالناس فى شأنه أو من أجله ، ولكن عليهم محاولة تلطيفه وتخفيفه بمحاولة نقل جانب من اهتمام الناس من هذه القرب الموضعية المحصورة التى حظيت بكفايتها وأكثر إلى المزيد من الاهتمام بقضايا الأمة الإسلامية ، وإلى المزيد من رصد الأموال والقدرات لخدمتها ، والتقرب إلى الله بنصرتها .

ليس يجدى أن نحاول رد المسلمين الآن إلى بساطة الحياة التى كان عليها المسلمون الأوائل إبان عنفوان الدين ، فالحق الذى لا يمارى فيه إلا مكابر أن غالبية المسلمين من قرون عديدة لم يعودوا قادرين قدرة آبائهم الأوائل على تذوق المعنويات والتنبه

إليها والانفعال بها إلا فى إطار مادى حسى جذاب ، فالمصلى المسكين ، والكتاب ذو المظهر المسكين ، والقبر المسكين ، والبيت المسكين ، والزى المسكين ، كل أولئك لا يمكن أن يوحى بالقداسة لخيال معظم الناس ، ولذا انصرفوا - كما قلنا - إلى الاحتفال والمبالغة فى العناية بتزيين المصاحف والمساجد والمزارات والقبور وغيرها من الأماكن والأشياء العزيزة عليهم ، أو ذات القداسة عندهم ، وربما كان مرد ذلك إلى أن الحضارة الإسلامية قد مرت بما مر به غيرها ، فغلب عليها فى البداية الاهتمام الشديد بالمعنويات ، وما يلازم ذلك من تعلق بالبساطة التامة ، وازدراء للمظاهر المادية ، فكانت ذات طابع روحى غامر قاهر ، ثم تناقص هذا الطابع مع الزمن حتى جاء وقت تساوى فيه مع الطابع الحسى ، لجمعت حياة الناس بين الطابعين الروحى والحسى فى اتزان بعيد عن المبالغة ، ثم ازداد بندول التاريخ انحرافا نحو الحسيات فتقلص الطابع الروحى ، وتغلب الطابع الحسى على حياة القوم فلم يعودوا قادرين على تصور المعنويات والروحانيات وتذوقها إلا فى إطارات حسية ، وأملنا فى الله أن يعود بندول التاريخ راجعاً إلى الاتجاه الآخر .

على أن هذا باب - كما قلنا من قبل - دخلت وتدخل منه الفخامة والقدرة المادية والأبهة إلى الدين والأشياء المتعلقة به كما يتصورهما الناس ، ودخل ويدخل منه كثير من الاحتفال بالمظهر والمنظر والسمت والهيبة المرئية ، وخيف ويُخاف دائماً منه على الدين أن يصير سُدّة تحمى المكانة والهيبة لمهمين عظماء عالين فى الأرض ، بدلا من أن يكون كما أراد الرب روضا سمحا للفقراء والضعفاء ، وقلعة لهم تأوى حيرتهم وغربتهم وضعفهم ، وتمنع ظلمهم ، وتعينهم على بلائهم وزمانهم .

وهاهنا تطل مشكلة من مشكلات العصر النفسية والاجتماعية ، هى شدة وعمق الشعور بانقسام الناس انقساماً حاداً إلى مهمين وغير مهمين ، وما ينبنى عليه من تقسيمات فرعية توجد ما يشبه الهرم ، يتسنم قمته أفراد قلائل منهم تتدرج الأهمية نازلة درجة درجة حتى تبلغ أرض المجتمع حيث تنعدم أهمية الأفراد كأفراد ، وحيث كل شىء يشعر الفرد العادى بأنه رخيص فى عين نفسه ، وعين أمثاله ، وعين من هم فوقه وفوقهم ، وعين الدنيا التى تقاس فيها أهمية الإنسان الفرد بالمال

والنفوذ ، وبالكفايات التى توصل للمال والنفوذ . وعصرنا على كثرة ما استحدث لم يوفق إلى وسيلة تساعد الإنسان الفرد العادى على تقبل هذا الشعور المرير بالرخص وعدم الأهمية ، وتعينه على قبول الإحساس بأنه صغير جدا وتافه جدا ، وأن أناساً آخرين يراهم ويعرفهم كبار جدا ، وحياتهم غالية ثمينة جدا . ولا شك أن اعتياد الإذعان للأمر الواقع لا يمنع الناس من النظر إلى من فوقهم وما فوقهم ، ولا من عقد المقارنة ، ولا من عدم الاقتناع وعدم الرضا الذى قد يبلغ فى بعض النفوس مبلغ الحقد والتطلع إلى التدمير . هذا يبدو نتيجة طبيعية كئيبة ليس منها مفر حين تقاس أهمية الإنسان بمقاييس تستند إلى قيم مادية يؤدى تطبيقها حتما إلى اعتبار الأغلبية الغالبة لخلق الله غير مهمين كأفراد وآحاد ، وتدرجهم فى عداد المثليات كأنهم حبات الرمل أو قوالب الآجر . والله عز وجل لا يقبل هذا ولا يرضاه ، ولا يمكن أن ينقسم الناس فى نظر الإسلام إلى مهمين وغير مهمين ، لأنهم جميعاً مهمون فى عين الرب عز وجل حتى العصاة منهم ، كلهم مهمون لا كمجاميع وإنما كآحاد وأرواح كل منها طائره فى عنقه ، فكل إنسان إيا كانت نظرة الدنيا إليه ، وأيا كان مكانه أو مكانته فيها يستطيع أن يضع يده المسكينة فى يد الرب مالك الملك الكبير المتعال ، فلا يتركها الرب قط إلا إذا سحبها صاحبها فى ساعة شقوة ، وكل إنسان مهما كانت خصاصته وضعفه يستطيع أن يصحب الرب مالك الملك الكبير المتعال متى شاء أين شاء ، لا يكلفه ذلك إلا أن يوجه قلبه إليه تبارك وتعالى ولن يتركه تعالى إلا إذا انصرف قلبه هو عن الله فى ساعة شقوة ، وفى وسع الشحاذ فى أسماله البالية أن يطرق بلا استئذان باب الله فى أية لحظة من النهار أو الليل ، وأن يخاطب الله فى أية لحظة من النهار أو الليل فيسمع منه الله ويلتفت إليه الله ولا يتخلى عنه الله . إن الرب لا يرى الفوارق بين القصر والكوخ ، وإنما يرى الفوارق فى قلوب من يسكنونهما . لا يوجد فى القرآن إلا مصدر أساسى واحد لأهمية الإنسان فى عين نفسه وعين المسلمين الصادقين هو التقوى والولاء الصادق لله عز وجل وحده بلا شريك ، وهذا شىء فى مقدور كل مكلف لا دخل فيه للمال أو الجاه أو المهارات أو الصلات . إن كل مسلم يساوى كل مسلم آخر فى نظر الله ،

لا يتميز عليه بما معه أو عنده ، وإنما بما فى قلبه من الولاء لله والوفاء والمحبة والرحمة للمسلمين ، وكل مسلم صادق يعرف ويوقن أن القيمة الكبرى فى حياته هى ولاؤه لله هذا الولاء ، وأن ما عدا ذلك باطل وظل زائل ، وأن تعلقه بولائه لله هو القمة التى منها يمكنه أن ينظر من علٍ إلى هوان أمر الذين يريدون علواً فى الأرض وإلى حقارة شأنهم وسخف مسعاهم .

إننا كمسلمين ننسى ذلك كله أحياناً كثيرة ، وننساق وراء الطابع الحسى السائد فى هذه الدنيا ونتأثر بالفخامة والأبهة والقوة والاقتدار الماديين ، ولكننا برغم هذه الحجب مازلنا نسمع فى أعماقنا أصوات آبائنا الأولين ، وما زالت نفوسنا عند المقارنة تؤثر نماذجهم الفريدة الغالية الزاخرة بالقوة المترفعة فى فقرها ، المتعالية المتأبية على المال والمادة والسلطان المستند إلى المادة والمال . إن أيدينا قد تصفق كما صفقت أيدى آبائنا من قبل للفخم الضخم الذى يذهل ويبهر بعزه وأبهته ، ولكن قلوبنا وقلوب آبائنا من قبلنا وأبنائنا من بعدنا إلى آخر الزمان تخفق إعزازاً وإجلالا للرجل الذى لم يخجل من الفقر ، ولم يخف منه ، الذى حين ولى أمور الناس حمل فقره معه وحوله فى حياته الخاصة والعامة ، وجابه به الدنيا بأسرها فى وقار بعيد عن الصلف ، وطمأنينة خالية من الادعاء ، وعفة عنيدة مجردة من الزهو الذى كان له من هيبة الصدق فى العبودية لله والإخلاص والشجاعة فى الولاء له تعالى وللمسلمين ما أغناه عن استيلاد الهيبة من الأبهة الذى أخذ من الناس أقل ما يأخذه الناس بعضهم من بعض ، وأعطاهم أكثر ما يعطيه فرد للناس ، الذى لم يميز الناس بيته عن بيوت الناس ، ولا أهله وأولاده عن أزواجهم وأولادهم ، الذى لم يزاحم الناس لنفسه أو لمن يحب على شىء من دنيا الناس ، الذى لم تكن حياته ولا حياة أهله أغلى عليه قط من حياة الناس وأمنهم ، الذى تفه فى فمه طعم السلطة ومرّ فى فى طول التعب والسهر وانشغال العقل والقلب وإيثار راحة الناس ومصلحتهم على راحته وراحة من يحب ، الذى اشتراه الناس إذ بايعوه ، وتملكوه حين ملكوه ، الذى لم يحتشم من الناس بشىء إذ لم يرتكب مايحتمى منهم بسببه ، ولم يستأثر دونهم بشىء يحتاط لأجله منهم ، الذى قتله الناس وهو أفضل الناس لكى يعطى فرصة الموت من أجلهم فتتم آية الله فيه .

وكما يتصل الدين بالمال فى القربات ، وفى التعبير عن التدين والعواطف الدينية يتصل به كذلك اتصالا وثيقا فى توفير الخدمات الدينية . والإسلام فى أول عهده لم يحمل الجماعة الإنسانية نفقات خدمة دينية متخصصة متفرغة ، بل لعله كان معرضا عن ذلك ، لأنه حرص من البداية على جعل العلم فرض كفاية على المسلم ، وندب كل مسلم حاز القدر الكافى من العلم بأحكام الدين أن يقوم بالخدمات الدينية العادية لنفسه ، ولمن يحتاج لمعونة من أهله وإخوانه داخل المسجد وخارجه ، فصار كل مسلم بهذا الاعتبار من رجال الدين ، وصار عدد رجال الدين من المسلمين نسبياً أضعاف أضعاف عددهم عند الملل الأخرى ، لأنه صار مساويا تقريبا لعدد البالغين من المسلمين الذين كانوا جميعا مجندين للدعوة والخدمة ، ذلك إلى أن دين المسلم اتصالٌ مباشر بلا واسطة بينه وبين ربه ، ومعتبر جزءاً غالياً من آدميته ، وعبادة المسلم لا يحل فيها محله سواه ، ولا تتوقف على سواه ، ولا تجوز فيها الإنابة إلا فى أحوال مستثناة للضرورة ، كل ذلك كان من شأنه تأخير ظهور التخصص والتفرغ فى الخدمة الدينية ، ولكن اتساع رقعة بلاد الإسلام وانتشاره إلى بلاد كثيرة مختلفة اللغات والعادات والظروف ، وانصراف اهتمام الغالبية من المسلمين إلى شواغل الحياة العادية ، ذلك كله أوجد الملايين من المسلمين المحتاجين لمن يؤمهم ويؤذن لهم ويعظهم ويفتيهم ويلقنهم ويحفظهم الكتاب والسنة ، إلى غير ذلك من الخدمات المتعلقة بالدين ، وظهر التخصص والتفرغ لهذه الخدمات تحت أسماء وألقاب كثيرة فى كل بلد إسلامى ، والتفت الحاكم السياسى من قديم الزمان إلى أولئك المتخصصين أو المتفرغين ، وعنى بتنظيم أمورهم وأرزاقهم ، فوجدت المناصب ذات الطابع الدينى الصريح ، وصارت الخدمات الدينية فى زماننا فى كثير من البلاد عملا مهنيا من الأعمال العامة للقائمين بها حياتهم الوظيفية ومستقبلهم فى الوظيفة كما لغيرهم من الموظفين القائمين بالخدمات التعليمية أو الطبية أو القضائية ، وهذا التفرغ للأمور الدينية أو التخصص فيها أدى بغالبية الناس وهما وكسلا إلى إلقاء كل أمور الدين وتبعاته على عاتق أولئك المتفرغين والمتخصصين ، فحمّل

عامة المسلمين فى كل العهود المتفرغين للدين والمتخصصين فيه إلى جانب مسئولياتهم العادية عن الخدمات الدينية والعناية بأمر القرآن وتعليمه وتعلم أحكامه وعلومه والمعارف المتصلة بعلومه ـ مسئوليات أكبر منهم بكثير ، هى مسئوليات التحدث باسم الإسلام ، وتمثيل الإسلام ، واستقلال الإسلام ، ومكانة الإسلام فى مواجهة القوى السياسية والاقتصادية والاجتماعية الفعالة فى العصر ، وهى تبعات جسام ـ لا يمكن أن ينهض بها هؤلاء وحدهم مع وضعهم الوظيفى الذى أشرنا إليه ـ تقع فى الدرجة الأولى على عاتق الأمة كلها ، والمسلمين كلهم ، وعلى الرأى العام الإسلامى كله الذى عليه أن يعين بيقظته واهتمامه وتأييده الجاد كل من ينتصر بحق للإسلام وكل من يغار بحق على استقلال الإسلام ومكانته فى حاضره ومستقبله .

وبعد : فينبغى ألا نتصور أن تفوق المال والمادية وتصدرهما وتسلطهما ، يطرد المثالية من الأرض ، فإنها أكثر منهما حيوية وأقوى سببا ، وهى إن ذوت تذوى ولا تموت ، وتحتجب لتبقى كامنة البذور فى آمال الناس وخيالهم وقلوبهم تحت تراب الماديات والحسيات ، فإذا انهلت أمطار الرحمة والفضل ـ من لدن الرحيم الفضيل ـ عادت فنبتت ونمت وأينعت وأزهرت وأثمرت وملأت الأنفس نماء ورجاء .

على أنه يلزم أن يلتفت أهل التقريب ـ خاصة ـ إلى مثالية الكراهية ، فإنها مثالية سقم ومرض يشتبه أمرها بالمثاليات الصحيحة فى بعض المظاهر والظواهر ، لكنها تختلف عنها وتعارضها ، بل وتعاديها فى الجوهر : فمثالية الكراهية آفة من آفات العصور المادية ، تتولد باستمرار من تراكم المشاكل العاطفية والمادية وغلبة استعصائها على الحل وتفشى اليأس فى نفوس الناس من إمكان حلها ومن قدرة الأنظمة على حلها ، وانقطاع رجاء الناس فى تحسين أحوالهم تبعا لذلك ، واعتيادهم على اتهام بعضهم بعضا ، ولعن بعضهم بعضا ، وتبشيع بعضهم لبعض من جراء ذلك . ومثالية الكراهية ألوان وصور من عبادة الإنسان الحائر اليائس ، يتعبد بها إلى ذاته ومصيره ـ عن طريق العداوة ـ بعد أن فقد مقدرته على أن يعبد

الله عز وجل عن طريق المحبة ، ولذلك تجتمع مثاليات الكراهية كلها على تمجيد الكره وما يتصل بالكره من المشاعر ، كالقسوة وعدم المبالاة وسوء الظن والغضب والخصام واللدد والعناد والحقد والتشفي والالتذاذ بالألم والتدمير ، كما تجتمع على ازدراء الرحمة وحسن الظن والمودة والمسالمة والتفاهم والإنصاف والاعتراف بحقوق للغير ، واحترام الحقيقة والحق . وفيها كلها شغف هائل بالتحدى للشرائع والأخلاق والعادات ، والاستهانة بحاضر البشر ، بل وبالفطرة البشرية نفسها ، وهى لا تعيش إلا على عدو ، تتغذى وتتربى على عداوتها له ، وتنمى هذه العداوة وتقويها باطراد ، وتجهد نفسها فى بحث ودرس وإعداد وترتيب كيفيات ووسائل تدمير هذا العدو ، وهى مع ذلك تشارك غيرها من المثاليات ـ وهذا موطن خطورتها على الدعوات الإسلامية ـ فى أن المتعلقين بها المتحمسين لها ، يبذلون من أجلها كل شىء ، ويقدمونها على الأهل والأصدقاء والمواطنين ، وعلى المصالح الشخصية ، ويصبرون فى سبيلها صبراً غريباً على الشدائد والمشقات والتعذيب ، ويسترخصون من أجلها الحياة ، ولا يبالون بالموت ، ويجتذبون بالإصرار والاستبسال الأنظار إليهم ، ويحملون الناس على احترامهم واحترام دعاواهم ، إذ النفوس تقرن غالباً بين الإصرار والاستبسال ، وبين الصدق والحق ، ولكن لا يمكن أن يوجد بين الإسلام وبين مثاليات الكراهية أى اشتراك ، أو أن يحدث بينه وبينها أى التقاء ، فالإسلام استسلام كامل تام شامل للمحبوب الأوحد عز وجل ، ومحبة مخلصة للخلق من أجل محبتنا لله الودود الرءوف الرحمن الرحيم ، والإسلام وفاء لله ولعباد الله ، وحسن ظن بالخلق وإيثار للرحمة ، وهو تعلق بالصدق والنصفة وصلة للرحم والجوار ، وهو رعاية للحقوق وأداء للأمانات ، وهو سلامة من المسلم للناس أجمعين .

— ٦ —

لا يكف عقل الآدمى عن معاناة ثلاثة أنواع من الأمور :

أولها : أمور يجد العقل ويرى أنها تناقضه وتنازعه وتعاديه ، فيحكم عليها بالبطلان والفساد ، ويجد نفسه منساقا إلى مقاومتها ومحاولة القضاء عليها ، فى داخله وخارجه .

وثانيها : أمور يرى العقل أنه لم يدركها ، ولم يسيطر عليها بعد ، رغم أنها فى نظره قابلة للفهم والإحراز والسيطرة ، ويجد أنه مشوق إلى تجربة قدراته فيها وموالاة غزواته عليها مباشرة ، أو من طريق غير مباشرة ، بغية التملك والفتح والإخضاع والسيطرة .

وثالثها : أمور يفطن العقل إلى وجودها ، ويفطن فى ذات الوقت إلى أنها وراء قدراته الغلابة ، وقبضته المتملكة ، وأنها ليست مجالا لغزواته ، لأنها فى نظره غير قابلة للإخضاع والتملك والسيطرة ، وأنه مع ذلك مرتبط بها بروابط أساسية يشعر بوجودها ولا يملك التعبير عن وجودها وعنها ، ذلك التعبير الذى يجعلها محرزة مفهومة تماما ـ كما هو الشأن فى أمور النوع الثانى ـ والعقل يفطن أنه لا يستطيع أن يهمل أو يغفل هذه الأمور التى تقع وراء مرمى أسلحته ، لأنه يراها موجودة لازمة لحياته ونموه وتفتحه ، ويفطن إلى أن سبيله مع هذه الأمور ليس الغلبة وليس الخدعة وليس المهارة فى الاستدلال وحدة الذهن فى القياس والاستنتاج ، فهو ـ أى عقل الآدمى ـ يحس بوضوح أن هذه الأمور أقوى وأوسع حيلة ، وأكثف أستاراً من ذهنه المحلل المقسم المستنبط ، وأن سبيله معها : هو التحبب والتقرب والمسايرة وتخلى النفس عن الأنانية والرياء والخداع والرغبة فى الإحراز والسيطرة وتمييز الذات ، ذلك التخلى الذى ينطوى تحت كلمتى الإخلاص والولاء ، وقد يغير العقل ـ تبعاً لنمو كفايته ودرجة تفتحه وترقيه ـ ما يدرجه من المسائل تحت هذا النوع أو ذاك من الأنواع الثلاثة المتقدمة الذكر ، فيقتنع مثلا بصحة أمور كان من قبل يراها باطلة معادية له أو العكس ، وقد يتم له غزو أمور كان

يرى من قبل أنها وراء قدراته وبعيدة عن مرمى أسلحته ، ولكن نوعية هذه الأنواع الثلاثة ـ رغم قابلية بعض ما يندرج تحتها للتغيير ـ ثابتة دائمة ، لأن العقل البشرى أبداً لا يكف عن معاناة أمور تعاديه ينساق إلى القضاء عليها ، وأمور تجتذب أسلحته وقدراته ، فيحاول غزوها وإخضاعها والسيطرة عليها ، وأمور يرى أنها وراء مرمى أسلحته أقوى وأوسع منه حيلة ، وتحت هذا النوع الثالث تقع معظم مسائل الدين ، ومعظم الركائز المستورة للبصيرة والحكمة والإلهام والذوق ، تلك الركائز التى تبرز منها ما نسميه : بالمواهب والعبقريات والنعم والنفحات والمواجيد والكرامات .

والذين يرفضون الدين باسم العقل ، ينسون هذا النوع الثالث من الأمور التى لا يكف العقل عن معاناتها ، وينسون أن العقل هو الذى تفطن ويتفطن إلى وجود هذا النوع ، فى ارتداده ـ أى العقل ـ إلى نفسه ورؤيته لحدود نفسه ، ومراجعته لقدراته ، واجتهاده فى معرفة أصله أو مصدره الذى يتجاوز نفسه حتما ، هؤلاء الذين يرفضون الدين باسم العقل يحاولون حصر مسمى العقل فى النوعين الأول والثانى من الأنواع الثلاثة سالفة الذكر ، وقصره عليهما ، دون النوع الثالث ، إما بزعم أن هذا الثالث ليس له إلا وجود متوهم متخيل غير حقيقى ، أو أنه حتى مع افتراض أنه موجود ، فإن وجوده غير المفهوم ولا القابل للفهم ، لا فائدة لنا منه ، ولا يستحق منا الالتفات ، وأن الحياة الفكرية أو المادية للإنسان لا تخسر بل تستفيد من إغفاله والاستغناء عنه . ولعل المتأمل يلاحظ أن هؤلاء من حيث لا يشعرون ، يستبعدون كل ما لا يمكن للعقل السيطرة عليه وإحرازه من دائرة الواقع والوجود ، وهم فى ذلك لا يستبعدون مسائل الدين فقط ، بل كل الركائز المستورة للبصيرة والحكمة والإلهام والذوق ، وكل المواهب والعبقريات فى النوع الإنسانى ، لأنها كلها آحاد فذة مجهولة المصدر ، غيبية الأساس بالنسبة لسيطرة العقل ، الذى لا يحرز ولا يسيطر إلا على ما هو قابل للتكرار والإعادة .

ومسلك هؤلاء ، لا يجعل حياتهم وحياتنا أكثر وضوحا ، لأنه لا يقلل بحال الأسرار التى لا حصر لها التى تكتنف الحياة والكون ومصير الإنسان ومستقبله :

مصير الإنسان الذى وجد بالفعل ، ومستقبل الإنسان الذى لم يوجد بعد ، هؤلاء مع كل الحجج التى يدلون بها ، يرفضون أن يستعملوا من قوى العقل وملكاته ما سوى الذهن ، وهذا يتقاضاهم أن يعيشوا حياة فكرية وروحية ، عوراء منكمشة متقلصة محدودة فى حدود معارفنا المحسوسة ، أو التى يعتقد أنها محسوسة ، وهى معارف ضئيلة وقاصرة جدا بالقياس إلى سعة الحياة والكون ، وإن كانت تبدو لنا كبيرة جداً الآن بالقياس إلى تاريخ جهلنا فى الماضى ، وهى بعد معارف ليست قطعية بالدرجة التى يتوهمها المتعصبون لها . على أنه وراء مسلك هؤلاء - يوجد فيما يبدو ، وعلى خلاف ما يتصورون فى أنفسهم - نقص واضح فى إيمان العقل بقيمته ، أى فى شعور العقل بالوقار والقيمة نتيجة إحساسه بقيمته بالنسبة إلى نفسه وإلى الوجود ، وشعور العقل بالوقار والقيمة ، هو فيما نعتقد سر إخلاصه وصبره ، إذ الإخلاص والصبر صفتان للعقل ، وهما - فى الأكثر - أثران لإيمان العقل بقيمته وشعوره بوقاره . والعقل حين يفقد إيمانه بقيمته يفقد وقاره ، يفقد معهما فضيلتى الإخلاص والصبر . والملاحظ أن العقول الجديدة ليست فقط أكثر حدة ونفاذا ، ولكنها أيضاً أكثر إخلاصاً وصبراً ، لأنها أكثر إيماناً بقيمتها وإحساساً بوقارها وكرامتها ، وهذا يبدو لنا ظاهراً باهراً فى المسلمين الأوائل . والعقل يفقد إيمانه ووقاره حين يستمرىء النوم والهرب من المجهود ، وحين تطول غفلته وينسى نفسه فيها فتغرقه الغفلة الطويلة فى الهزائم ، فإذا صحا - لفترة - وجد كل ما فى داخله وحوله خرائب وأتربة وأنقاضا ، وقرأ - أى العقل - فى الهزائم وترابها وأنقاضها وخرائبها قصة تفاهته وصغاره وهوانه على الحياة والوجود ، فداخله اليأس من نفسه وفارقته الجرأة والشجاعة ، وصار يرى نفسه عقلا يائسا ضيقا كارها رافضا متبرما بالحياة والأحياء ، لا يجد القدرة على أن يكون - كما كان - عقلا مخلصا صابراً مستبشرا .

ونحن فى الأغلب الأعم من أحقاب وعصور طويلة ، نعيش بهذا العقل اليائس الضيق الكاره . وقد أمعن هذا العقل اليائس الضيق الكاره سيراً فى طريقه المنهزم ، نحو الصغار والاستصغار والهوان والاستهانة ، فأصبحت السخرية من نفسه ومن

الآخرين ، والازدراء لنفسه وللآخرين ، غذاء يشتهيه ويثبت به وجوده لنفسه وللآخرين ، وأصبح الإخلاص والصبر مشكلة من المشكلات المعقدة فى حياتنا الفكرية والروحية ، إذ صار العقل فى ضوئه الشاحب الغارب ينظر إلى الإخلاص والصبر نظرة لا تخلو من السخرية ، ويرى الإخلاص والصبر من صفات النفس والخلق لا من صفاته هو ولوازمه وتوابعه الضرورية ، بل أصبح يتصور إمكان وجود الإخلاص والصبر ، حيث لا يوجد العقل ، أو حيث لا يوجد العقل إلا بصورة ضعيفة ناقصة غير مكتملة ، ومن ثم يرى أنه يحق له ألا يقيد نفسه بالإخلاص والصبر ، وأن يعبث بذقنهما متى أحب ، وهكذا انقسم العقل على نفسه وانفصل خلق الناس عن عقولهم ، وباتت أرواحهم غير متصلة بعقولهم ولا بأخلاقهم ، وصارت السخرية لغة للعقل المنفصل وأداته فى التعبير عن انفصاله وتعاليه وابتعاده عن الخلق وعن الروح .

ويبدو أن أخطر أنواع الازدراء والسخرية أثرا على أرواحنا وسلوكنا هو ما نمارسه منهما فى الخفاء فيما بيننا وبين أنفسنا ، وما نتظاهر بإخفائه وكتمانه وحجبه عن الناس ، فى أستار وصور من التكلف والتصنع ليس لها آخر . . ولكن هل من حقنا أن نزدرى فى الخفاء ـ وفيما بيننا وبين الله ـ عباد الله ؟ إذا ادعينا هذا الحق فلن نعرف لقائمة من نزدريهم حدا ، ولو أعطانا الدين هذا الحق لأعطانا كل الحق فى هدم نفسه ، لأن ازدراء الناس سراً هو الخطوة الأولى الأساسية إلى كل تعصب وكل كبر وكل رياء ونفاق وغش وكل لدد وفجور فى الخصومة وكل دسيسة وخيانة . وهو لذلك الخطوة الأساسية إلى كل ظلم وبغى وطغيان وجبروت وكل افتئات ونكران وبهتان ولا مبالاة ، هو الخطوة الأساسية التى تبعدنا ـ دون أن نشعر ـ عن الولاء لله عز وجل ، والتى نبدأ بها الطريق المخوف الذى ينحدر بسالكه كل لحظة إلى المزيد من البعد عن الله ، وإلى المزيد من الاقتراب من الهاوية ، إننا لا نستطيع أن نمارس ولاءنا لله ، إلا مع الإخلاص والصبر ، وذلك مستحيل بدون الاعتراف الكامل المخلص بعباده ، أى الاعتراف بوجودهم على أنه وجود حقيقى فعلى مماثل لوجودنا تماماً ، وليس مجرد وجود شكلى مبهم قابل

للمحو والحذف والتغيير ، والتشكيل أدنى من وجودنا نحن وأقل منه ثباتاً وواقعية وأهمية ، ونحن لا نستطيع مع الاعتراف الكامل المخلص بوجودهم وقيمتهم على هذا النحو ، أن نستخف بهم ونجاذف بمصائرهم طمعاً أو عناداً أو طيشاً ، كما لا نستطيع أن نصبر أو نسكت على ظلمهم وإرهاقهم وشقائهم دون أن نقع فى التناقض الذى يكذب إخلاصنا وصدق ولائنا لله عز وجل . نعم ، حين نحرك عباد الله على هوانا ، وننقلهم من حال إلى حال ، ومن جانب إلى جانب كالبهائم أو اللعب أو الحجارة أو القمامة قد نكون ماهرين أو دهاة أو أقوياء حسب الاصطلاح ، ولكننا لا نكون قط أوفياء لعهد الله ولا قريبين منه عز وجل ، لأننا بذلك نمسخ عباد الله ونحولهم إلى مخلوقات كثيبة جديرة بالمزيد من ازدرائنا لها . . والمسخ قد يكون مسخا لباطن الآدمى ، فتبقى الصورة إنسانية وداخلها داخل خنزير أو قرد أو داخل حجر أو قمامة ، وحسب الآدمى أن يتعرض وقتا كافيا لتأثير الهوان والإذلال والخوف والقسوة ، أو لتأثير الإفساد والكذب والزيف والتضليل والجهالة والإهمال والقذارة المعنوية والمادية ، حتى يألف ذلك ويسكن إليه وينكمش ، ويصير هذا الشر بالنسبة له جزءاً من نظام الحياة يتشبث به بعناد وغباء ويصعب عليه أن يفارقه ، ومع ذلك لا يفرحنّ من يظن أنه قد أوتى القدرة على التأثير فى الناس وتحويلهم إلى ما يشتهى ويريد ، لأن الناس حين تستحيل فى داخلها إلى قردة وخنازير وحجارة وقمامة ، لا يبقى فى داخلها مكان لولاء حقيق لأحد ، ولا إخلاص حقيق لشىء .

ونحن حين نطوى جوانحنا على ازدراء الخلق ، نطويها على يأس عميق غائر من مستقبل البشر ، وعلى قنوط هائل من إمكان إقامة شىء باق بقاء حقيقياً حيا يستمر بعد أن نموت ويزداد مع تعاقب الأجيال نماء واكتمالا . إننا لا يمكن أن نزدرى الناس ونحن نعتقد أن لهم مستقبلا أفضل من حاضرهم ، ولذلك نحن حين نزدريهم نجردهم فى أعيننا من كل مستقبل وكل أمل فى الارتقاء ، ونحكم بسوء المصير عليهم وعلى نوعهم ، وهذا الضرب من الازدراء كامن متغلغل فى عصرنا فى كل سياسة وكل تنظيم يستهدف تحريك الناس واستخدامهم فى القضايا العامة ،

إذ كل سياسة فى عصرنا موقوتة ، وكل تنظيم وقتى - وعصرنا المتشائم ، ليس لديه من الأمل والإيمان القدر الكافى لرسم شىء دائم ينوى كتلة الناس تحقيقه شيئاً فشيئاً من طريق حياة فاضلة يحيونها ، كلما ازدادوا فهما ومعرفة وتمسكا بالخير والحق ، نحن فى هذا العصر - كما سبق أن قلنا - نؤمن بالأشياء المادية وبالإنجازات التى تتم فى الأشياء المادية ، ونضع ثقتنا التامة فى الآلات وتقدمها وترقيها ، ونتنافس على تسجيل أمجادنا فى ماديات نحفرها ونشيدها ونركبها ونصنعها ونخترعها ونكتشفها ، نحاول أن نصنع ونقتنى آلات أدق وأقوى وأسرع وأكثر كفاية ، ولا نحفل بإعداد بشر أفضل وأكثر توازناً وفهماً وشجاعة وأكثر استمساكا بما هو خير وحق ، ذلك إلى أننا لا نزدرى الآخرين إلا بفضل مبالغتنا فى قيمة أنفسنا ، ونتيجة أننا نصر - بلا سند - على أن نكون نحن أداة القياس التى تقاس بها قيمة الآخرين من خلق الله ، أى نصر على أن تكون أحكامنا على من حولنا وما حولنا أحكاما شخصية تمثل أفكارنا وأذواقنا ، وما نحب وما نكره ، لأننا - حتى ونحن نظن أنفسنا فى دائرة الدين - لا نسلم - فى داخلنا - بوجود محكمة أعلى من أنفسنا يمكن أن تستأنف إليها أحكامنا على الناس ، ومعظمنا يجد عند التأمل أن عدد من نزدريهم ، ومن لا نثق فيهم دائماً فى ازدياد ، وعدد من نحترمهم ونطمئن إليهم دائماً فى تناقص ، ومن هنا جاء التباين أو التفاوت الشديد فى أحكامنا نحن أهل هذا الزمان فى شأن الموضوع الواحد ، ثم غلبة السطحية على أحكامنا وتأثرها الشديد بالأهواء والمصالح ، وقابليتها لإشعال نار الانفعال والتعصب ، وشيوع التوجس وإساءة الظن وعدم الثقة والتفتت والعجز عن التماسك والتعاون الصادق ، وأمواج الكراهية الطاغية التى تغطى العالم أو تكاد تغطيه ، لا نذكر هذا كله فى حديثنا عن معالم التقريب ، إعلاناً ليأسنا من استجابة البشر ، وإنما لنقول : إنه على قدر ما يكون الناس من الغباء والغفلة والشر ، تكون حاجتهم إلى العلاج والمعونة ، وإن الشر والغباء هما الذراعان اللتان ترفعهما البشرية - على غير وعى منها - نحو السماء تعلن بهما فشلها فى معالجة نفسها بنفسها ، وتستعجل بهما تدخل الله عز وجل ، وإلا فأى دعوة إلى تدخل الطبيب أشد من اشتداد العلة على المريض ، ونحن لا نخدم قط قضية

الله حين نيأس من الناس ونلعن عنادهم وفسادهم ، كما لا يخدم المرضون مهمة الطب حين يلعنون سلوك المرضى وقذارتهم وجهلهم .

ومع تغلب السخرية والازدراء على نظرة العقل المتشائم الكاره الضيق العطن لاندرى أين وكيف يوجد الصبر والإخلاص ، وهما قبل كل شيء وضعان ومظهران وأثران للعقل اليقظ المزود بالإيمان بقيمته وبالشعور بوقاره ، إذ كيف يستجيب العقل الذى فقد إيمانه بقيمته وشعوره بوقاره - إلى التكليف بالصبر أو الإخلاص ؟ ولذا يتواصى الناس فى زماننا بنوع من الصبر يكاد يكون منفصلا عن العقل ، ونوع من الإخلاص لا يتوقف على العقل بل لا يكاد يرتبط به ، أى يتواصون بتعويد النفس على التحمل والاستسلام والرضاء بما هم عليه ، وقمع الرغبة فى البحث والفهم وتوجيه الأسئلة ، وبتعويد النفس على مداومة حب الأشياء التى تعلقت بها ، والأشخاص الذين تعلقت بهم ، وتعويدها الثبات على ذلك ، وعدم الإذن لشىء بتغييره ، لأن هذا الإخلاص فى الحب لا يقبل المراجعة مهما حدث أو ظهر ، وتعويدها على استدامة عداوتها لما كرهت ومن كرهت من الأشياء والأشخاص بلا . وية تسمح بإعادة النظر ، لأن التفكير فى المراجعة وإعادة النظر قادح فى هذا الإخلاص فى العداوة الذى يمعن فى العمق كما أمعن فى العمى ، هذا معروف مشهود لدى معظمنا ، فنحن لا نمارس فى معظم أوقاتنا صبر العقل الرزين ، وإنما رضوخ النفس التى انطفأت حاستها بانطفاء العقل ، ولا نمارس عادة إخلاص العقل المعتز بقيمته المؤمن بها ، وإنما تعصب النفس التى لا تثق فى عقلها فلا تسمح لشىء بأن يغيرها فيما أحبت أو كرهت ، وأخطر ما فى هذا أننا الآن محتاجون إلى قدر هائل من الإخلاص ، لا سيما إلى الإخلاص أو الأمانة مع النفس ، لأن كل ما حول المسلمين يطرح عليهم أسئلة خطيرة وكثيرة ، وكل إجابة تكون نسبة الأمانة فيها ضعيفة ، تكون حتما إجابة مضللة تضللنا نحن قبل أن تضلل غيرنا ، وتبعدنا نحن عن الصواب الذى نحتاج إليه ويجب أن ننشده مباشرة بشجاعة وباستقامة ، هذه من أخطر مشاكلنا وما أكثرها ، وخطؤنا فيها أننا معتزون جداً بالعاطفة كما نحسها ، غير حريصين على فهمها ، لأن حرصنا عليها خال من الوعى ، لا يدرك ولا يحاول

أن يدرك ما ينفعها وما يضرها على المدى الطويل ، بل معظمنا يتصور أن الفهم المادىء للعاطفة الذى يخلصها من حدتها وطابعها الانفجارى المندلع يقضى عليها ، إذ هو يحسب أن جوهر العاطفة ليس إلا هذه الحدة الانفجارية المندلعة ، وهو تصور يمعن فى وضع العقل فى موقف العداء من العاطفة ، ويجعل عواطفنا تكره الفهم والعقل وتنفر من الاعتدال ، لأنه قائم على الفهم والعقل ، وتنفر من حكم العقل ، أو حتى من الدخول معه فى أية مناقشة ، ويبدو أن العالم الذى يحيط بنا نحن المسلمين ، لا يسمح لنا بهذا النوع من السرف ، ولا يعطى لعواطفنا نفس القيمة الغريبة غير المفهومة التى نعطيها نحن لها ، بل هو يسقطها من حسابه حتما كلما بدت له ، وكثيراً ما تبدو مستعصية على الفهم ، وهذا يفسر بعض الشىء ما يلازم اتصالنا بالعالم من تفكير حافل بالاسترابة والنفور وفرض الاحتكاك والنزاع والصدام .

ومن جهة أخرى يبدو أن العقل حتى عند ما نتصور البدائى ، لا يفتر عن محاولة التنظيم والربط والتعليل ، لأن العقل فى جميع أطواره ، هو نظام وعملية تنظيم ومنظِّم ومنظَّم فى ذات الوقت ودائماً ، وارتقاؤه هو اتساع فى الكفاية والدقة والمدى ، والفوضى المطلقة الخالية من الروابط تماما هى مجرد لفظة ليس لها معنى بالنسبة للعقل الذى يستحيل عليه أن يعرف ولو بصورة جزئية غامضة شيئاً خالياً تماماً من كل نظام ، مجرداً من كل الروابط والصلات ، إذ لغة النظام والروابط هى لغة العقل الذى يدرك بها نفسه وحياته ويتصل بواسطتها بالوجود ، وهو يفترض فرضا لا يقبل إثبات العكس ، أن هذه اللغة مشتركة بينه وبين الوجود .

وليس فى المقدور أن يمنع أى إنسان نفسه من شىء من مثل هذا التفلسف منعاً كلياً ، وإن كان فى المقدور إضعاف هذا الميل باعتياد الإعراض عن النشاط العقلى كلية ، أو بالنسبة لمواضيع معينة، فقدَ الاهتمام بها أو لا يوجد لديه ما يدعوه للاهتمام بها ، ولكن ليس فى مقدورنا أن نمنع عقولنا من الاشتغال بالمسائل التى تهمنا وتستثير عواطفنا ، ويستحيل علينا أن نبقى هذه المسائل بعيدة عن مجال التفلسف ، لأنه يستحيل إبقاءها بعيدة عن مجال التفكير ، هذا قد حدث فى الماضى بالنسبة للمسائل الدينية حين اهتم الناس بالدين ومسائله ، وهو يحدث الآن وفى

المستقبل ، فى كل مكان يحظى فيه الدين بأى اهتمام ، فالتفكير فى المسائل الدينية والتفلسف فيها أمارة أكيدة على أن هذه المسائل محل اهتمام ، سواء من القائم بالتفكير أو من الجمهور الذى لفت نظره هذا التفكير ، والسؤال الأساسى المبدئى هو : إلى أى حد يهتم المسلمون الآن بالدين ؟ وكيف يعبرون عن هذا الاهتمام ؟ وما درجة اهتمامهم بالدين بالقياس إلى اهتمامهم بالمسائل الأخرى ؟ هذا السؤال لا يرد على الخاطر إلا نادراً جداً ، ومع ذلك إذا سألنا أنفسنا : كيف وفى أى اتجاه يهتم المسلمون بدينهم ؟ وجدناهم يلتفتون إلى الدين من أجل تدبير شئون الآخرة ، وتزويدهم بمجموعة من الأفكار والتصورات والصيغ تعينهم على تحمل الآلام والأحزان والشقاء والكوارث الخاصة والعامة ، وإمدادهم بوسيلة للنجاح والتوفيق والنماء والازدهار ، والمحافظة على الأعزاء من نفس وولد ومال ، وتنشئتهم على الأخلاق الفاضلة وتنميتها لديهم ، أما قضية تدبير شئون الآخرة فهى عند معظمنا قضية آجلة لا تبدو مهمة فى زحمة الحياة الحديثة وشواغلها ، ولا تأخذ صفة الاستعجال إلا عند ما نوشك أن نفارق الدنيا ، وأما قضية تحمل الآلام والارزاء فهى فى الغالب ليست محل التفات منا ما دمنا بعيدين عن هذه العوارض المؤلمة ، وأما قضية النجاح والتوفيق والمحافظة على الأعزاء : فإنها عملية نفعية ، بها نضع أنفسنا ومصالحنا الشخصية العزيزة علينا فى مركز الصدارة مسلّمين ضمنا بتفوقها على الدين الذى نستعمله كأداة ووسيلة لحماية المصالح الشخصية ورعايتها ، وأما قضية غرس الأخلاق الفاضلة فتوقفة على مرتبة الأخلاق الفاضلة فى جدول القيم السائدة بيننا ، ولا يستطيع أحد أن يزعم أن التدين يعود اليوم على صاحبه بالمكانة والتقدير عند غالبية مسلمى هذا الزمان ، بمثل ما يمكن أن يعود به عليه الثراء أو المنصب العالى أو المكانة السياسية أو المركز الفنى أو المهنى .

ولكن للدين - وللإسلام بالذات - وظيفة خامسة أساسية هى أهم وظائفه ، ينساها الناس عادة أو يتناسونها ، لأنها تتقاضاهم جهداً مستمرا لا يفتر ، ذلك أن الدين يعطينا الفرصة لنكون أنظف مما نحن عليه عادة ، لكى نغسل أنفسنا من الداخل ، لنتخلص من استرقاق المصالح الشخصية ، من استعباد الزوجة والأولاد

ومن الذل للمال وللملك ، ومن الخضوع للطمع والشره والرغبة فى السيطرة على الآخرين ، للخلاص من حقارة الكذب والزيف وقبولها والرضاء عنهما ، ومن ضيق وصفاقة الأنانية التى نسميها حقاً لأنفسنا ، وهى عند الله باطل . هذه الوظيفة الخامسة للدين تعطينا الفرصة لنكون - بإخلاص - أرقى من مجرد أسماك شرهة نهمة تتنافر وتتخاطف ويأكل بعضها بعضا فى بحر واسع غبى لا يحفل بالمآسى التى تجرى فيه بلا انقطاع ، إنها تعطينا الفرصة الأكيدة لكى نعطى لحياتنا معنى فيه شىء من الكرامة يعوض عن معناها التافه الحقير الذى يخلعه عليها باستمرار غرورنا وتفاهتنا ورياؤنا وجبننا وخوفنا من الألم والخطر والعزلة ، وحبنا للسلامة واستعدادنا للتسليم لغير الله عز وجل ، هذه الوظيفة هى وحدها التى تستطيع أن تنقذ الإسلام من ارتخاء قبضته على عقول أتباعه ، وهى الوظيفة الأولى التى بدأ بها الإسلام وجوده ، وهى وحدها التى يمكن أن يجدد بها الإسلام وجوده فى كل عصر مهما اختلفت ثقافة وحضارة العصر وتفاوتت ، لأن الحاجة إلى الإنسان النظيف من الداخل - لا تنقطع قط - واحترام هذا الإنسان والإعجاب به ، لا يتأثران بتغير الثقافات والحضارات ، وتطور الأفكار والمعارف ، والتقدم العلمى والتكنولوجى بنى ويبنى أشياء هائلة ، وخرّج ويخرّج علماء وفنيين فائقى الاقتدارات والمهارات ، ولكن الاقتدار والمهارة فى حاجة ملحة إلى ذلك الإنسان النظيف من الداخل ، وهما حين يصادفانه لا يسعهما إلا أن يحنيا الرأس له ، لأن وجودهما من غير وجوده شر محض وخطر محقق عليهما وعلى الإنسانية كلها .

إن الإنسان النظيف من الداخل هو حجة الإسلام الباهرة فى وجه العلم الحديث والثقافة الحديثة والحضارة الجديدة المبنية عليهما . وعلى الجماعات الإسلامية الإكثار من إنتاج هذا الإنسان إذا أرادت أن تستنقذ نفسها ودينها من خطر الفناء الذى لا تستطيع أن تنجو منه بالكلام والصيغ مع قعودها الواضح عن إنتاج مثل ما تنتجه الجماعات الأخرى التى تسهم إسهاما جادا فى التيار الرئيسى للحضارة .

والدعوات الإسلامية - ومنها التقريب - تكون مغالية فى حسن الظن إذا تصورت أن فى مقدورها أن تحول كتلة المسلمين فى كل بلد إسلامى إلى التمسك

بهذه الوظيفة الخامسة ، بل يجب أن يكون فى حسابنا جميعاً أن كتلة الناس ستظل تعبر عن تدينها ، كما كان يفعل آباؤهم وأسلافهم بالمحافظة الظاهرة الآلية على أداء الفرائض ، وإنما حسبنا وحسب مستقبل الإسلام أن يتحول إلى الاهتمام بهذه الوظيفة ، عدد من الشباب يوفقه الله جل وعلا إلى ذلك ، يسترهم الله حيناً فى ستر القلة حتى يزدادوا قوة وعددا ، ويزداد بهم الإسلام إشراقا وإمعاناً فى طريقه المطرد إلى خير العالم .

هذا الشباب ، المأمول الذى نرجوه سيتنفس عندئذ إسلامه ويعيشه كما نتنفس نحن الآن ونعيش مصالحنا الشخصية ومخاوفنا ومطامعنا ، لن يتقيد هذا الشباب المرجو بما نفرضه نحن أو نفترضه من حدود ، لأنه سيأخذ إسلامه فى يده من الله عز وجل مباشرة ، ومن كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وسيكتنب فى الحياة الإسلامية بحياته ككل أى بتفكيره وثقافته وعلمه ومعارفه وأذواقه وعواطفه واندفاعاته وتفلسفاته تماماً كما اكتنب المثقفون والمتعلمون والدارسون فى القرون الثالث والرابع والخامس والسادس الهجرية ، ومن يدرى فقد يخلع الزمن على آثار هذا الشباب المتحمس المفكر الجائش العاطفة قداسة كتلك القداسة التى نحيط نحن بها الآن آثار مثقفى ومتعلمى ودارسى تلك القرون .

ولا ننتظر بطبيعة الحال ، أى مطابقة حقيقية بين ما سيقوله أو يكتبه أو يحاوله أبناؤنا حين يهتمون بالإسلام هذا النوع من الاهتمام ، وبين ما قاله أو كتبه أو حاوله آباؤنا رضوان الله عليهم ، أو بين ما قلناه أو كتبناه أو حاولناه نحن . ويبدو ـ والله تعالى أعلم ـ أنهم سيكونون على الجملة أفضل إسلاماً منا ، لأنهم ـ على التحقيق ـ سيكونون أكثر إخلاصاً وفهماً واندماجا فى روح الإسلام الباقى الدائم وفى روح زمانهم منا ، وسيوفقون ـ إن شاء الله ـ إلى ما لم نوفق نحن إليه من العيش فى الإسلام كدين كله حى فى حاضر كله حى ، وليس كجزء من ماض فى حاضر لم ولما يمتزج معه ، إنهم سيرون بفهم وشجاعة ما لا نقوى نحن على الاعتراف به حتى فيما بيننا وبين أنفسنا ، من أن تراثنا الإسلامى معظمه أبحاث عقلية فى نصوص الكتاب المجيد والسنة المطهرة ، وأن ذلك التفلسف الماضى الواسع النطاق إذ يمثل حكمة آبائنا

وعلمائنا رضوان الله عليهم يصوّر أيضاً أفكارهم ومعارفهم ومعلوماتهم وفروضهم ونظرياتهم وعواطفهم وميولهم وأذواقهم وظروفهم والقيم والعادات السائدة بينهم ، وأن ذلك كله من هذه الزاوية نسبي الحجية عكس ما نعتقده نحن . على أن هذا الشباب المأمول سيفطن - إن شاء الله - إلى أن قيمة هذا التراث المجيد ليست فى إلزامه وتقييده لعقول جديدة ونفوس جديدة مزودة مع الإسلام بزادها من علوم عصرها ومعارفه وأفكاره وأذواقه ، وإنما قيمة هذا التراث المجيد فى أنه خطوات جليلة خطاها المسلمون سبقوا بها زمانهم وعالمهم ، نحو المزيد من الاستنارة والمعرفة والعلم ، يجد فيها المسلم المستنير الذكى المحب لدينه - فى معظم الأحيان - ذلك الروح العظيم القابع الكامن من خلف الفكرة والغرض والنظرية والتفسير وال... والفتوى ، الذى يدفع المسلم إلى الله والحق ، وإلى المزيد من الالتصاق بهما والإخلاص لهما .

على أننا نحن ، فى زماننا هذا نكثر من إعلان ولائنا لكتب آبائنا وعلمائنا رضوان الله عليهم ، ونتصور أننا نفهمها كما فهمها أصحابها تماماً ، وهذا لا شك فيه شيء من التجوز أو الوهم ، لأننا نقرأ تلك الكتب القديمة لا محالة بعقليتنا نحن ، ونديرفيها أفهامنا نحن لكى نفهمها ونكسوا خلال ذلك ألفاظها وعباراتها بمعانى أمثالها لدينا ، أى بما يوافق أفكارنا وأذواقنا ، فهناك عملية تقريب دائبة دائمة تجرى دون أن نشعر بها مصاحبة ومقارنة لعملية الاستيعاب ذاتها ، وفى هذه العملية نحن لا نستعمل إلا مفاهيمنا ومعاييرنا وتصوراتنا للقيم ، بما فى ذلك معنى القداسة نفسه الذى ترسمه عقليتنا نحن لا عقلية الأقدمين .

هذا وينبغى أن نلتفت إلى أن الدين لا يستطيع أن يعيش طويلا على مجرد الإلزام والقسر ، كما يفعل القانون فى أحيان كثيرة ، وإذا كان خيار الناس قلما يتحاكمون إلى القانون استغناء عنه بالمودة والمروءة والفضل والخلق الحسن وحسن الذوق ، فإن المسلم اليقظ لا يستطيع أن يستغنى عن دينه لحظة ، إذ لا يقوم مقامه الفضل وحسن الخلق ، ولا تجزىء عنه المودات والمروءات . وأيقاظ المسلمين إنما يتوادون فى الله ، ويتفاضلون فى الله ، ويتخلقون بالخلق الحسن فى ظل الله

وفضله ، ومن هنا كان رضاء الناس عن دينهم رضاء حقيقيا ، جانباً أساسياً من جوانب إيمانهم وأمراً ضروريا لحياة دينهم وحياتهم فيه ، وشرطا جوهريا لتبادل الفائدة بينهم وبينه ، ونعنى بالرضاء الحقيق ذلك القبول العقلى الداخلى ، لا اللفظى ولا الشكلى الصورى الخارجى الظاهرى ، أى قبول عواطفهم وعقولهم وعاداتهم وأذواقهم للدين قبول الموافق الوامق المرحب المؤتنس ، لا قبول المبتئس المتبرم المتكره أو المتكلف المتصنع ، وكان تجاهل أمر هذا الرضاء وقيمة المحافظة عليه ، وتوفير أسباب وظروف اكتماله أو الإغضاء عن شواهد وأمارات تقلصه ونقصه من أخطر ما يتعرض له الإسلام فى زماننا ، إذ أصول ديننا على قوتها التى لا تعدلها قوة أصول دين آخر ، لا تحفظ نفسها آليا وتلقائيا ، ولا تحقق غاياتها فى الناس بقوة صيغها كالعزائم السحرية ، وإنما تحفظ وتحقق غاياتها بفضل توفيق الله ، بإخلاص من يعتنقونها ويتبعونها ويعيشونها ويحولونها فى كل لحظة من قول إلى عمل ، ومن مجرد صيغة لفظية إلى سلوك حى ، ووراء الرضاء عن الدين وقبوله هذا القبول الذى وصفناه ، يوجد لاشك صور من التأثر به ، والحساسية له ، والانجذاب نحوه ، والتعاطف معه ، أى ردود أفعال ذات أنماط وكيفيات وأشكال بالغة الكثرة والتعقيد تختلف حتما - أردنا أو لم نرد - باختلاف الأزمنة والظروف والعقليات والأذواق ، وهو ما يجعل مهمة الذين يعنون بالمحافظة على استدامة رضاء الناس عن دينهم ، مهمة لا تخلو من الدقة والمشقة ، إذ عليهم أن يحققوا أسباب ذلك الرضاء دون أن يخضعوا الدين لأهواء الناس وشهواتهم وتقلب أذواقهم ، ودون أن يبتذل الدين أو يمسخ أو يسخف . والسبيل إلى هذا لا يكون فى اقتراح صيغ دينية جديدة ، أو فى تأكيد جديد على صيغ دينية قديمة ، وإنما سبيله أن ينجح بعضنا فى أن يثبت بسلوكه وحياته الخاليين من التصنع والادعاء والتزمت ، أنّ الامتزاج بالدين ومعايشته والأنس به شىء قابل لأن يحدث فى هذا الزمن دون ابتذال أو مسخ ، علماً بأن الدين أولا وأخيراً حركة روح وكيان ، وليس مجرد حركة لسان وشفتين وجوارح .

على أن هذا يجب أن يحفزنا إلى تقصى أسباب ما نشهده من تناقص هذا الرضاء

الحقيق فى كثير من بلاد الإسلام ، هناك مثلا انعدام أو قصور فى التربية الدينية فى بعض الأوساط ، وهبوط فى مرتبة الدين فى جدول القيم فى المجتمعات الإسلامية التى فشت فيها مظاهر الحضارة الحديثة ، ولكن هناك أيضاً أننا لم ننجح حتى الآن فى تقديم الإسلام تقديماً خلصاً عميقاً إلى الشباب المسلم المتعلم تعليما جاداً عالياً ، فنحن ما زلنا نخاطبه فى ضجيج لفظى عال ، ومن عالم آخر ليس بينه وبين عالمه اتصال صحيح أكيد مثمر ، بصيغ معظمها معتم قد فقد ارتباطه بأسبابه وظروفه .

نعم يبدو أننا حتى الآن لا نهتم فى الدعوات الإسلامية اهتماما خاصا كافيا بالشباب المتعلم تعليما جادا عاليا ، اكتفاء منا بالتوجه إلى عامة الشبان وكتلتهم ، وعقد الصلات بهم فى المساجد والندوات والمطبوعات الدينية التى تقدم أحكام العبادات وفصولا من السيرة ، ومن تاريخ المسلمين الأولين ، وهو لاشك عمل مفيد لكنه محدود ، وهو عرضة للفتور بل وللانتكاس ، ما دام الشباب المتعلم تعليما جادا عاليا بعيدا عن الاهتمام بالإسلام ، متخذا حياله أحد موقفين : إما موقف المتباعد عن أمر يظن أن عقله لا يقبله قبولا صادقا عميقا ويتحاشى مصارحة قومه وبيئته بذلك ، ويسايرهم فيما هم عليه فى حدود المراسم والمظاهر والمجاملات ، وإما موقف الذى يظن أن ليس للدين مهمة فى هذا العصر ، وأن الاشتغال بقضاياه مضيعة وانصراف عن الالتفات للمشاكل الحادة الحالة للإنسان فى هذا الزمان . ولا شك أن بين هذين الموقفين تقارباً أو تداخلا مصدره أنهما يمثلان جوانب لإعراض العقول الشابة القوية المزودة بزاد مهم من العلم والثقافة الحديثين ، وهو إعراض خطر ، لأنه من جهة قابل للسريان والامتداد والانتشار ، ومن جهة أخرى لأنه يحرم الإسلام من العقول القادرة على تحقيق اشتراك الإسلام فى التيار الرئيسى لحياة العصر ، أو على اشتراك هذا التيار الرئيسى فى حياة الإسلام ، وعلى إنقاذ الإسلام من جانبيته أو عزلته الحالية وما يصاحبها من عقد وحساسية لدى أهله مشهودة فى تصرفاتهم أفراداً وجماعات . ولإقناع هذا الشباب المتعلم بضرورة الاهتمام بالإسلام ، وبأن له وظيفة حيوية حقيقية فى العالم الحديث لا يكفى أن نصف لهم الإسلام بأوصاف الكمالات التى هو جدير بها دون شك ، ولا أن نقول

لهم ونكرر أن الإسلام يستطيع أن يطب كل داء ومشكلة فى كل زمان ومكان .
فإن هذا بعيد عن أن يجتذب عقولا تعودت المنهج التجريبى والمنطق الاستقرائى .
وإنما أحسب أن هؤلاء الشباب فى حاجة إلى بعض نماذج تلفت نظره ، نماذج
واقعية فعلية استطاع فيها مخلصون عاشوا فعلا فى هذا العصر ، أن يحلوا بالفعل
وليس من طريق الكلام ، مسائل فردية وجماعية ، يمكن أن يوجد مثلها لدى
غيرهم ، حلولا موفقة فريدة أساسها الإخلاص فى تطبيق دينهم والتمسك به وحسن
فهمهم له ، من حق هؤلاء الشباب أن يجدوا إلى جانب صولة بعض المتعبدين
وفصاحة بعض المتكلمين ، أن هنا وهناك مكانة واضحة للإخلاص والشجاعة
وإنكار الذات فى حياة المسلمين الجارية العادية دينية ومدنية ، فبدون ذلك يصعب
أن نتصور كيف يترك هؤلاء الشبان إعراضهم أو عدم مبالاتهم .

وعلى كل حال يبدو أن علينا أن نحتاط ونقتصد فى استعمال الصيغ الفقهية ،
فى محاولتنا توصيل حقيقة الإسلام إلى قلوب وعقول الشباب ، فإن هذه الصيغ
أداة طبيعية ومفيدة جداً فى دور القضاء ومناقشات رجال الفقه والمهتمين بالعلوم
الدينية فيما بينهم ، ولكنها فى مناقشة المسائل الحيوية الكلية فى الدين مع الشباب
تعطى من يستعملها إحساساً كاذباً بالتفوق يبدو معه كلامه أكثر مهارة وذلاقة ،
وأقل عمقاً وصدقاً وواقعاً ، وهذه الصيغ لا تقبلها عقول الشباب فى الغالب
إلا بتحفظ يصاحبه انكماش فكرى ونفسى لدى سامعها وقارئها ، على حين أن
المطلوب هو أن ينشرح عقله وينبسط ليتحقق الامتزاج الذى منه يتولد الاهتمام .
ويخطىء هدفه غالباً من يحاول أن يشرح الحب والمحبة بلغة القانون ومصطلحاته .
وبين الدين والمحبة تشابه من جهة الاتصال الوثيق بالقلب والعاطفة والإخلاص
وحسن النية ، أعمق وأندى بكثير من الظاهر الفقهى الجاف الذى تلخصه وتحفظه
فى جفافه الصيغة الفقهية ، علما بأن وراء الأحكام الفقهية توجد بلا شك حقيقة
الإسلام الحية ، وهى وحدها التى تجعل الفقه مقبولا لدى من يحس ويؤمن بها .
ونواة هذه الحقيقة الحية ـ فيما أعتقد ـ هى الولاء التام لله عز وجل ، ولاء إذا
تحقق لا يبقى معه محل لقلق أو لهفة أو جزع أو جبن . الولاء التام لله عز وجل

فيما يسر المسلم وما يكرهه ، ولاء المسلم لله فى عباد الله ورؤيته تعالى بعين البصيرة لا البصر ، فى إخلاص كل مخلص فى كل نية طيبة صادقة وكل ائتلاف واتحاد على الخير وكل معرفة صحيحة وكل زيادة فى نور العقل الإنسانى ، فى رؤية كل ترق وكل تقدم لقلب الانسان وعقله ، فى كل نصر يحرزه الإنسان على معوقاته ونقائصه وبقايا تاريخه ، وفى سقوط كل ظالم يسقط ويسقط بغيه وتقتلع شوكته ، وفى إزالة كل فساد وزيف وضلال ، وفى انقشاع سحب الشك والاسترابة وعدم الثقة ، وفى انقضاء كل جهالة وحماقة وغرور ، وفى كل ميلاد وكل موت فينا وفى الكون الباهر الهائل الذى لم يؤت من العلم به وبحكمة الله فيه إلا قليلا .

وكثيرون منا يخافون على الدين من العلوم الوضعية الحديثة ، ويخافون على شباب المسلمين من الانجذاب إليها والاشتغال بها ، وهو خوف لم يعد له مكان ولا ترجى منه فائدة ، فلا سبيل إلى صرف العقول عن هذه العلوم التى تدين لها الحضارة الحالية بكل ما فيها من نافع وضار ، والتى انتشرت فى بلاد الإسلام ، وبدونها لا تستطيع بلاد الإسلام أن تعيش فضلا عن أن ترتقى ، على أن منهج هذه العلوم أخلاقى سديد . إذ يقوم على الأمانة التامة فى البحث والعمل ، والإخلاص التام للحقيقة . مع التسليم باحتمال الغلط والنقص والقصور ، ومع التسليم بضرورة المراجعة وإعادة النظر باستمرار لاستبعاد مايتبين فساده ، وتصحيح مايتبين خطؤه أو نقصه . وينبغى ألا يخيف هذا المنهج الأخلاقى الإسلام - وهو دين الحق والحقيقة - لا على مبادئه ولا على عقول شبابه ونفوسهم ، إنما الذى يخيف والذى ينبغى التوقى منه ، هو التمسح فى العلم الوضعى ، لترويج المذاهب والعقائد والسياسات بقصد الانتصار فى المعارك المذهبية والعقائدية والسياسية ، بتسخير قليل مما هو حق لتحقيق كثير مما هو باطل وزائف وبعيد عن روح العلم الوضعى وعن منهجه الأخلاقى الرفيع . يزيد هذا الخطر أن عامة الناس فى عصرنا قد شاع بينها الإيمان بقدرة العلم الخارقة ، فلا تكاد تقرأ صحيفة أو مجلة ، أو تسمع إذاعة أو حديثاً خاصا إلا وتواجهك : « قوة العلم المحررة » ، « الكلمة الأخيرة للعلم » ، « الحتمية العلمية » « العلم هو دين المستقبل » ، « التنظيم العلمى للحياة » ، « التنظيم العلمى للمجتمع »

« الوحدة بين العلم والحياة » ، « الأجناس العلمية هى التى تسيطر » هـذه العبارات وغيرها كثير منتشرة انتشار الغبار فى الجو تهيء الناس لقبول الأباطيل باسم العلم والمنهج العلمى . ويزيد هـذه البلوى أن مصطلحات العلوم الوضعية فيها الكثير مما يستهوى بغرابته وجرسه الآذان والنفوس ، ومما يختطفه ويستعمله للاستفادة من وقعه وتأثيره القائمون على أجهزة الدعوات المذهبية والسياسية لإقناع العامة بأن بأن تقريراتهم ودعاواهم وفروضهم يساندها العلم الوضعى ويزكيها . وقولنا الإيمان بالعلم ، فيه لا شك تناقض واضح ، إذ العلم الوضعى معناه المعرفة الواضحة المحددة المنصبة على الظواهر القابلة للتجربة والقياس نتيجة كونها قابلة للمشاهدة والملاحظة ، وكل ذلك لا مدخل فيه للإيمـان ولا يستعمل فيه الإيمان بحال ، ثم إن العلم ليس واحداً ، وإنمـا هو عدد عديد من المعارف المتفرقة لم تصل ولا يمكن أن تصل قط فى أى مستقبل إلى وضع نهائى جامد لا يتغير . وهى بعـد لا تتناول إلا جزءاً ضئيلا جداً من الحياة والكون ، وقد قام بالكشف عنها وصياغتها ألوف من الناس فى بلاد مختلفة فى أزمنة مختلفة ، بعضهم معروف ومعظمهم غير معروف ، فتصور العلم الوضعى على أنه شىء خلاف هذه المعرفة الجزئية التى كشف بها بعض الناس عن بعض ظواهر الوجود ، شىء أكبر وأقوى يتحرك من تلقاء نفسه بقوته الذاتية وإرادته ليبسط سلطانه على الناس ويغير حياتهم ويتصرف فى مصائرهم ، هـذا التصور خرافة كبيرة ، واعتماد العامة من أهل هذا العصر فى تحسين أحوال حياتهم وإسعادهم ، على الأمل أن يعرف بعض الناس ممن نسميهم العلماء المزيد من بعض ظواهر الكون والحياة ، مجازفة لا تستند إلا إلى الأشواق والأمانى . وأكثر من ذلك إمعانا فى الشطط اتخاذ بعض المعارف العلمية المتواضعـة مطية لتنبؤات عن مصير الناس والكون ، ودعامة تبنى عليها من طريق التشبيه والمجاز والاستعارة والتحليل نظريات سياسية ومذاهب اجتماعية لا أول لها ولا آخر ، ذلك إلى أن هذا الإيمـان الخرافى بالعـلم ، وانتظار كراماته من شأنه أن يعنى به سواد النـاس أنفسهم من اهتمام بالسعى لتحسين أحوالهم ، وربما أضعف شعور الآدمى بمسئوليته عن مستقبل نفسه ومستقبل الجماعة التى ينتمى إليها : لأن هـذا الإيمـان العجيب

بالعلم وقوته الخارقة لا يكلف صاحبه الاكتتاب بشيء لتحقيق سعادة البشر أو للعمل على تحقيقها ، ثم إن صاحبه ليس مكلفاً بشيء تجاه العلم الذى سيقوم بكل شيء والذى له خدمة هم العلماء . فانتشار هذا الإيمان الخرافى بالعلم يطوى تحته استمراء واستجابة للكسل والميل إلى الهرب من المسئولية الشخصية والواجب . هذا الإيمان الساذج لا أثر له فى تقدم العلوم الوضعية التى تدين بتقدمها لإيمان الباحثين فى العلوم بقيمة الأمانة والنزاهة والصدق والإخلاص فى البحث عن الحقيقة ، أى بنظام أخلاقى فوق المعارف العلمية نفسها يتوفر به للباحث الحرية والتصميم واحترام النفس والشعور بالمسئولية ، أى بتلك الأمور الأساسية التى لا غنى عنها لأى مسعى إنسانى له قيمة .

والغاية الأساسية التى يتغياها العلم الوضعى هى أن يقدم للبشرية المزيد من الفهم مع المزيد من المقدرة لكى يتحقق بهما معاً المزيد من الرقى للإنسان نفسه ، ورقى الإنسان لا يمكن أن يكون إلا رقياً لملكاته واستعداداته وميوله ، أى رقياً معنوياً ، أما عبارة « الرقى المادى » فعبارة مضللة تنطوى على تناقض ، لأن زيادة القوى والوسائل المادية المتاحة للبشر عددا وكفاية وسهولة شيء ، وترقى مقومات الإنسان الداخلية شيء آخر . والهمجى لا يصير متحضرا إذا استطاع أن يركب سيارة أو طائرة ، أو أن يأكل الأطعمة المحفوظة ، أو أن يستعمل الحبوب المنومة ، أو أن يحرق أمثاله بقنبلة ، والوحش لا تضعف وحشيته بإلقاء المزيد من اللحم امامه . فالعلم ليس همه ولا مقصوده أن يسهل على البشر استدامة واستبقاء نقائصهم والاحتفاظ بميولهم الوحشية والهمجية ، ولا أن ييسر لهم إشباع هذه النقائص والميول البدائية ، ولا أن يعفيهم من مجهود الفهم واليقظة والالتفات والتصميم والمثابرة والتعلم ، أو من الشعور بالضمير والمسئولية لكى يصبحوا باستمرار أكثر آلية ويسلموا باستمرار المزيد من أنفسهم لتحكم الآلات وسيطرة العقاقير التى تدين بوجودها للعلم وتطبيقاته . وحين يستخدم العلم وتطبيقاته فى ذلك الاتجاه المدمر من أجل تنمية حب الآدمى للراحة وزهده فى المجهود ، ولإفساح المجال أمامه للكسل وعدم المبالاة ، ولإعفائه من تربية ضميره وتقوية ضوابطه ، ولتمكينه من أن يحيا

حياته بدون احتياج إلى الفهم والاهتمام والانتباه والالتفات واليقظة ، حين يستخدم العلم وتطبيقاته فى ذلك الاتجاه ، تهب حتما رياح الموت لاعلى الدين وحده بل على العلم نفسه وعلى مستقبل الإنسانية كلها .

وهاهنا من المفيد أن نتأمل دور اليقظة كما تصوره الإسلام ، ونفكر بمزيد من العناية فى خطر العوامل والأسباب المضعفة لليقظة من قديم وفى عصرنا الحديث. إن لب الإسلام هو اليقظة لله وفى الله ، والقرآن والسنة المطهرة لايتصوران المسلم إلا قلباً لا يغفل عن ذكر الله ، أى عقلا دائماً يقظاً لله وفى الله . وفى هذه الصورة يجوز أن تنام عين المسلم ولكن بغير أن ينام عقله أو قلبه نوما يتخليان به عن يقظتهما الدائمة لله وفى الله ، ولا يحسبن أحد أن هذا يقال على المجاز أو التهويل ، فإننا بالفعل ننام غارقين فى شواغلنا الخاصة ونصحو غارقين فيها ، تغمض عيوننا ولا تغمض قلوبنا وعقولنا عن هذه الشواغل التى تستغرق حياتنا ، والاسلام إنقاذاً للمسلم من مثل هذا الضياع ، أراد ويريد أن يكون شاغل المسلم الأول والأكبر والأهم - الذى يصغر إلى جانبه كل شاغل آخر - هو الله عز وجل ، وكون الله عز وجل هو الشاغل الأول والأكبر والأهم لقلب المسلم وعقله ، ليس معناه الشرود والذهول والإظلام والغيبوبة عن الحياة والأحياء ، وإنما معناه رؤيته تعالى ، مخاطبته تعالى ، وابتغاؤه تعالى ، فى ممارسة الحياة ممارسة كاملة مثمرة ، وأداء مطالبها الخاصة والعامة كلها ، ليتحقق بذلك لهذه الممارسة وهذا الأداء حظهما الأوفى من العدل والشجاعة والأمانة والرحمة والمودة « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » . وليس يسوغ للمسلم اليقظ أن يعتذر لدرء مسئوليته - بالغفلة أو الهزل - وربما كان هذا من أسرار الشريعة الغراء فى عنايتها الفائقة بالعبارة فى التصرفات واهتمامها بأخذ القائل بعبارته إلا ما استثنى ، ولا نشك فى أن يقظة قلب الآدمى وعقله لما هو أكبر وأبعد من مطالب حيوانيته وأنانيته هو الطريق الوحيد المفتوح أمامه إلى الترقى ، وكل ترق دائم لا يمكن أن يكون بالنسبة إليه ، إلا مزيداً من اليقظة أو مزيداً من الاقتدار عليها أو الاستعداد لها ، فكل ما يضعف استعداد الآدمى لليقظة واقتداره عليها ، يهبط به ويؤخره ويبعده

عن طريق الترقى ، ويمكن لحيوانيته وأنانيته فى المزيد من السيطرة عليه وتعريضه لمزيد من المخاطر والمهالك . أما تبرير إشاعة أسباب الغفلة ووسائل إضعاف اليقظة بحجة تخليص الناس من المخاوف والهواجس وتعذيب الذات ، والشعور بالنقص والذنب ففاسد ، لأن هذه الأمور ليست من علل العقل الملتفت اليقظ ، وإنما من أعراض التشويه العاطفى والفكرى ، وهى موجودة ومتفشية لدى أقل المستويات يقظة وتعليما . ذلك إلى أن التعليم والتربية يتوقفان على حظ الانسان من الالتفات واليقظة ، ولا يستطيع الآدمى أن يتعلم إلا إذا انتبه أو التفت ، وكل خبرة لا تعطيه مزيداً من الالتفات واليقظة والاقتدار عليهما والاستعداد لهما لا تعلمه شيئاً ، ولا تنقله أى خطوة إلى الأمام .

على أن الشباب الذين يطلبون فى المسائل الدينية الكبرى أن يقرءوا لغة كلغة العلم التطبيقى ، أو العلم الوضعى ذات أرقام أو ألفاظ فى دقة الأرقام ، يطلبون شططا ، لأن لغة العلم التطبيقى ، كلغة الحياة اليومية العادية ، هى لغة تفصيلات وتحديدات لصيقة بظواهر الكون مما يقبل المشاهدة والتصنيف والحساب والإعادة يخل بها ويفسدها عدم الوضوح الكامل ، فنحن نحتاج فى وصف عمل فنجان من الشاى أو القهوة لنفس اللغة الواضحة التفصيلية الخالية من الظلال التى نحتاج إليها فى صنع البنسلين . أما لغة النظر والتأمل والعلم النظرى أو فلسفة العلوم أو لغة الفلسفة فشىء آخر ، إذ هى دائماً وفى كل مكان لغة خاصة تخاطب الحاضر والمستقبل فى انتقالها وتحركها ، وتحاول نقل أفكار ومعان وتصورات كلية ضرورية لحياة الإنسان الروحية والفكرية عبر القرون . يفسدها تجميدها فى صورة أو صور معينة محدودة جامدة المعالم ، تلك لغة مهمتها الأولى الإيحاء والاشارة ، وشد انتباه القارىء أو السامع إلى تلك الأمور الكلية لضمان انتباهه والتفاته إليها ، إنها فى كل الأحوال نداءات موجهة من أجل الاهتمام والالتفات والمزيد منهما ، وكلما زاد الانتباه والالتفات زادت المواضع التى يمكن أن يتصل فيها عقل الانسان ووجدانه بتلك الكلمات أو المعانى ، وزاد إدراكه لها عمقاً وسعة وزاد رصيده من الحكمة ، ذلك أن الانسان كان وسيظل إلى ما شاء الله ، بالنسبة لهذه الموضوعات الكبرى ،

لا نقول فى ليل دامس يخبط ويتخبط على غير هدى ، وإنما فى المرحلة التى تقع بين إدبار الليل وطلوع النهار ، حيث يوجد قدر من الرؤية الميسورة غير المتجانسة وهى رؤية ليست كاملة ولا صريحة مهيأة لكل عين ، فيها يشترك مع البصر الحدس والفراسة ، لأن هناك ظلالا تتحرك باستمرار وفى كل اتجاه ، وأملا دائماً فى مزيد من الرؤية ، ومجالا واسعاً للارتياد ، ونوافذ عديدة تجذب العقل والروح للتحديق خلالها واختبار قدرتنا على تمييز الأشباح وأبعاد الظلال والتعرف على ماهو حقيقى ، والتفطن لأقصى ما نستطيع التفطن إليه من جوانب الحقيقة الكبرى الكثيرة الأستار ، الكثيفة الحجب . وليس بعجيب أن تكون مفردات وتراكيب لغة هذه الرؤية التى تجرى فى ذلك الفجر أو ما يشبه الفجر غير ناصعة ولا منبسطة بل ذات أعماق فيها تجتمع ظلال وأضواء ، وأن أعماقها وظلالها تبدو فى أحيان كثيرة أكثر من سطوحها المكشوفة . إنها ستبقى دائماً لغة خاصة شديدة القدرة على الإيحاء ، غنية بالصور حافلة بتداعى المعانى وتزاوجها واستيلادها . أما لماذا لم يخلق الله عز وجل هذا الآدمى ، بحيث يستطيع أن يصنع ما يشاء من الحكمة والإيمان والفضيلة والمصير السعيد ، بنفس البساطة السطحية والدقة التفصيلية التى يصنع بها لنفسه فنجانا من الشاى ؟ فهو سؤال يسأل صاحبه : لماذا لم ينشىء الله جل وعلا عقل الإنسان ووجدانه كاملين تامى النضج الذى ليس بعده نضج لكل الناس دفعة واحدة ومن أول لحظة ؟ ولماذا قضى سبحانه أن يكون للعقل والوجدان بداية متواضعة يبدآن منها نموهما حالا بعد حال وزمناً بعد زمن ؟ ولماذا أراد عز وجل أن يكون لهما فيهما ماض وحاضر ومستقبل ؟ ولماذا خلق الماضى والحاضر والمستقبل فى وجدان الآدمى ؟ أى لماذا خلق الحياة على الصورة التى خلقها عليها ؟ فالسؤال إذن فى حقيقته اعتراض على الحياة ذاتها ، والحياة هى كلمة الله الكبرى التى عن طريقها أمكن ـ والله تعالى أعلم ـ أن يتجلى المطلق غير القابل للوصف ولا للتصور ، لشىء محدود صغير معين يمكن أن يعرفه معرفة فريدة ذكية . هذا الشىء هو عقل الإنسان ووجدانه . فلغة الدين والنظر لغة ذات ثلاثة أبعاد : طول وعرض وعمق ، وفى العمق ـ ذلك البعد الثالث الذى يميزها عن لغة العلم التطبيقى

ولغة الحياة الجارية العادية ـ يكمن مخزونها الهائل الذى لا يفرغ من المتعة والجاذبية والطرافة والاستبصار .

ولا شك أن الإسلام دين ثرى ثراء ضخما ، فهو خلال أربعة عشر قرنا من التطبيق فى جماعات واسعة مختلفة السلالات والعقليات والأذواق والظروف قد اختزن خبرات هائلة كثير منها مدون ، ومع التسليم بأنه من غير المقبول أن نحاول تطبيق خبرة قديمة مختزنة ـ على موقف جديد ـ بغير تعديل ، فإن هذا المخزون الهائل من الخبرات يمكن أن يجعلنا بالأقل أكثر وعياً وحكمة ورشادا فى اختيار ما نحاول أن نحل به مشاكلنا ، متى صادف هذا المخزون دراسة واعية دقيقة تتجاوز الطريقة التقريظية السطحية التى اعتدنا أن نتناوله بها . ثم إن فى طيات هذا المخزون شيئاً كثيراً من الرُطب النديّ القريب إلى القلب والعقل معاً مما لا يحتاج إلا إلى مجهود قليل يزيل عنه الغبار ، لكى يصلح للتناول ويطيب فى الأسماع ويشد إليه اهتمام شبابنا المتعلم : إن تراثنا البديع فى التعبير عن الإيمان العميق وجوانبه ، وبخاصة جانب الطمأنينة فيه ، يستحق أن يعاد عرضه بعناية على شبابنا المتعلم الذى يفترسه القلق والذى يخاف معظمه من الإيمان العميق فى حماقة تشبه حماقة الذين يخافون من اكتمال الصحة والعافية .

ذلك ومن حق الشباب علينا أن نلفت نظره إلى أننا اليوم قد نكون مبالغين أكثر مما كان آباؤنا فى قيمة الذين يكتبون الكتب والرسائل والمقالات ، ونعطيهم عادة من النفوذ علينا والتأثير فينا أكثر مما ينبغى . نحن إذا أنكرنا على من يتعرض فى حديثه لما لا يحسن أو ما لا يعرف ـ لا ننكر ذلك بهذا القدر على أى كاتب ، ربما لأننا نجمع دون أن نشعر ـ بين الكتابة وبين المعرفة والذكاء ، بل ونقرنها فى الغالب بالحق والصحة . والواقع أننا حين نكتب نكون فى مستوى من الذكاء أعلى من المستوى المألوف العادى الذى نمارس حياتنا اليومية فى حدوده ، ويزداد حال الكتابة حظاً من الالتفات مع ازدياد شعورنا بأهمية الموضوع الذى نكتب فيه وحاجتنا فيه إلى شىء من التجويد والاتقان ، وقد نصل فى ذلك إلى مراق وآفاق تصبح بها المسافة بعيدة بين موقفنا ومستوانا فيما نكتبه ، وبين

موقفنا وبين مستوانا فى حياتنا الفعلية العادية ، وهذا يفسر الخيبة التى يصادفها من يقابل مؤلف الكتاب الجيد أو العمل الفنى المهم ، ويشهد فى حديثه وسلوكه وحياته المعتادة مستوى هابطا لا يرتفع على مستوى العاديين من أبناء بيئته وطبقته ، والأمر مع ذلك ليس أمر تصنع ورياء ، وإنما أمر التفات وانتباه ، ونحن حين نكون أكثر انتباهاً والتفاتاً نكون أكثر ذكاء ، فإذا تناولنا موضوعا ما بمزيد من الالتفات رأينا أو لمحنا علاقات وصلات ومقابلات وإمكانات وفروقا كانت خافيه محجوبة فى غبار الإهمال الذى يصاحب تفكيرنا وحديثنا فى مجراهما العادى المألوف فى حياتنا اليومية ، فالذين يكتبون ليسوا دائماً أفضل الناس ، وهم لا يصبحون أفضل الناس لأنهم كتبوا فى الفضائل أو فى الدين أو فى الحكمة أو فى الحرية أو فى العدالة أو فى الجمال أو فى الفن . ونحن عادة نخلط بين ما نملكه حقيقة وبين ما نعرفه فقط ، ونحن حين نكتب نتعرف على أفكار وقيم ومعان لا يعرفها الآخرون عادة بهذا القدر فيعطينا شعورنا بمعرفتها والقدرة على التحدث عنها شعوراً إضافياً بأنها صارت فى ملكيتنا ومن توابعنا وخصائصنا وهو وهم ، لأنه رغم ما يتداخلنا بعد الكتابة مثلا عن العدل أو عن الإيمان أو عن الإخلاص ، من الشعور بحيازتنا لهذه المعانى يظل سلوكنا وعاداتنا وتصرفاتنا ، بعيدة عنها بعد المشرقين ، فليس أفضل آبائنا إسلاماً هم الذين كتبوا وألفوا ، وليس أفضلنا إسلاماً هم الذين يتصدون للتأليف والكتابة ، وليس هؤلاء ولا أولئك أكثر المسلمين معرفة بحقيقة الإسلام وأشدهم خوضاً لبحره وتوفيقا فى السباحة فيه والتفطن إلى مواضع أمنه وخطره ، لأن الإسلام أولا وأخيراً حياة وممارسة ومكابدة ومعاناة ، وليس كلاماً قد ينفع به الله أحياناً وقد يضر به الناس أنفسهم أحيانا أخرى . ذلك وقد زاد فى زمننا خطر الكاتبين بكثرتهم ويسر أدوات النشر وسعة مداها ، وزاد فى هذا الخطر الزائد انعزال حياة من يكتبون الكلام عن حياة من يعيشون الواقع ، واتجاه الكتابة إلى المجردات والنظريات ، وازدراء الواقع المحدود القابل للتناول الفعلى ، ومحاولة فلسفة الواقع بعموميات ومصطلحات فضفاضة تلتصق عباراتها وصيغها وشاراتها وشعاراتها اللزجة بخيال الناس ، فتغطى على فطنتهم وتفسد فطرتهم ،

وصار من حق كل من جلس إلى مائدة ما دام لديه ورقة وقلم ومطبعة تطبع أن يبنى ويهدم فى نظام المجتمع والحياة ، لتصبح هذه وذاك أكثر اتساقا مع ما احتشد فى رأس الكاتب من زوابع وأعاصير . هكذا تهطل فى زماننا مشاريع واقتراحات إصلاح الحياة والمجتمع كالمطر من ملايين المصلحين الذين يظنون أنهم نيطوا بهذه الرسالة ـ التى ليس لها صاحب ـ لكى يزيدوا أهل هذا الزمن حيرة وفرقة وتمزقا .
لا مراء أن لكل عصر غروره الذى يتمثل فيه رأيه فى أفضلية نفسه وتفوق معارفه وأذواقه على معارف وأذواق ما سبقه من العصور ، كما يتمثل فى عجزه عن تصور أن أذواقه ومعارفه سيلحقها القدم الذى لحق سواها ، وفى اعتقاده ـ بغير أساس ـ اللهم إلا تمجيداً للذات أنه قد بلغ فى الفهم والذوق الغاية التى لن يتجاوزها أحد ، وغرور زماننا يبدو على أشده فى تعلقه بمحاولة فلسفة واقعة بتلك العموميات والمصطلحات الفضفاضة التى تحشى بها الكتب والمطبوعات ، والتى تشيع الانقسام والخصام والشك واليأس فى كل مكان ، والتى يتراءى فيها كلها ذلك الطابع العام الملازم للحضارة الحديثة من التركيز على ما هو خارج الإنسان ، أى على الأشياء سواء كانت أشياء مادية أو نظما أو مجتمعات أو بيئات يعطيها أهل زماننا حكم الأشياء من حيث القابلية للدراسة الموضوعية والاخضاع للفروض والنظريات والقوانين ، ويعتقدون أنها وحدها هى التى تشكل وتوجه داخل الإنسان ، وتتصرف فى مصيره ومستقبله . وهو ما يجعلنا فى هذا الزمن نلتمس أسباب الصلاح والإصلاح وأسباب التقدم وأسباب الهناءة والسعادة من خارج الإنسان وليس فى داخله .

هذا ولا شك أن الشباب يستطيع أن يعبّر بقوة عن ولائه فى العبادات ، كذلك فى المعاملات ، حينما يحرص فيها على الشرف والأمانة ، وفى سلوكه عند ما يجتهد فى أن يكون موافقا للقانون الأخلاقى ظاهراً وباطناً ، ولكننا نثبت ولاءنا لله ونؤكده لأنفسنا ونحفره على قلوبنا وكياننا بأسره ، بوقوفنا إلى جانب الله حين يتقاضانا الوقوف إلى جانبه تضحية غالية ، عندئذ نكتشف أنفسنا ونكتشف أننا قادرون فعلا على الوفاء بما تشهد به ألسنتنا فى كل صلاة ، هنالك نحس بذلك

الشعور الفريد الذى يملأ وجدان المقاتل الواقف إلى جانب قائده ، لصيقاً به حتى النهاية ، بأنه صار إلى آخر الدهر أوثق وأكثر معرفة وارتباطاً بقائده ومراد قائده ونكتشف كذلك أننا كسرنا السور الكثيف غير المنظور الذى يحبسنا فى قيود وحدود حياتنا المألوفة المبتذلة السطحية بشواغلها الصغيرة وأنانيتها الكثيفة الشرهة وارتفعنا وارتفعت قيمتنا بالاتصال بحياة أرق وأعمق وأكثر امتلاء بالرضا والفهم ، هذا الشعور الثمين يصبح قوت أرواحنا ، لأنه أريج ولائنا الذى نجح وجاز الاختبار ، وشهادة ميلادنا الجديد . وصفقة البيعة الحقيقية التى عقدناها مع الله فى المحنة ، والتى لا نرضى أن تضيع منا فضلا عن أن نفرط فيها نحن ـ باختيارنا فى لحظة غفلة أو حمق ـ من أجل مال أو سمعة أو جاه أو مكانة أو منزلة يمنحها إيانا ذلك العالم الرخيص الذى كسرنا أسواره . هذا هو بعض المعنى الكلى الكامن خلف فكرة الجهاد فى الاسلام ، وهو معنى لا ينقضى ولا يبطل قط ، لأن قضية الله أبدا قائمة تدعو أبناء الأرض إلى راية السماء دعوة باقية إلى آخر الدهر ، وفرص الجهاد مفتوحة وستبقى دائماً مفتوحة لكل قلب يوفقه الله إلى الوقوف إلى جانبه وقبول التضحية من أجله عز وجل ، ولا جدال فى أن صور المواقف والتضحيات التى تناسب المواقف لا حد لها ، وهى تتغير بتغير الظروف والأزمنة ، ولكن معنى الوقوف إلى جانب الله وتأكيد الولاء له بالتضحية الغالية ، معنى ثابت باق وهو هو الذى يملى علينا المواقف الواجبة المناسبة ، ويختار لنا التضحية التى علينا أن نقدمها ، فلسنا مقيدين بالسيف للمجاهدة فى مواقف لا ينفع فيها السيف ، وإنما ينفعها التضحية بالمطامع والأمجاد وبالاعتزاز العنصرى أو الطائفى أو التضحية بالمصالح الشخصية العزيزة على النفس أو بالأحقاد والشعارات التى يهون على الرجل فى سبيل شفائها الموت نفسه . هاهنا نرى جهاداً أو صوراً من الجهاد تعود علينا مع توكيدها البالغ لولائنا لله ، بمزيد من الحكمة والرحمة والمحبة والأخوة والإنسانية والمقدرة على فهم الآخرين والاتصال بهم ، وبمزيد من الإخلاص الخصب المعقول فى خدمة الله وحده تبارك وتعالى . نعم ليس فى جهاد المسلم إلا ولاؤه لله تعالى وحده ، ليس فيه فرصة لشفاء وإشباع وتمجيد ميول الآدمى العدوانية والتميز

بسببها ، فإن ذلك من الجاهلية وقد طرحه الإسلام ورفضه حين طرح ورفض الجاهلية . وما أشد بغض الإسلام للجاهلية وما أعمق عداوته لها ! . والجاهلية - كما يعرف كلنا - ليست مرادفة للجهل ، والمسلم قد يمر عليه وقت يكون فيه مسلما وجاهلا ، ولكن يستحيل أن يكون فى أية لحظة مسلما وجاهليا معاً ، لأن الجاهلية هى عبادة الذات والعشيرة والقوة المادية وحب التغلب وعشق العدوان والاعتزاز بسفك الدم وقهر الرجال والقسوة على الضعفاء وازدراء الرحمة والمحبة والاعتدال والرفق والمحاسنة والتفاخر بهضم الحقوق وعدم الإذعان للنظام ، ولأن الجاهلية حياة خالية من الولاء لله عز وجل منصرفة إلى تأليه القوة والبطش والتغلب ومشاعر العدوان وإذكائها وإضرامها ، وهى من هذه الزاوية ليست وقفا موقوفا على عرب الجزيرة العربية فى ذلك الزمن القديم ، وإنما هى حياة شريرة توجد حتما فى أى مكان يتخلى عنه الرب فى أى زمن ، وعداء القرآن لها وبغضه إياها يتبعانها ويلاحقانها حينما تكون وأيان توجد .

هذا وإن فهم المسلم لمعنى الجهاد ، هذا الفهم لا يتم إلا إذا صاحبه الشعور القوى بكرامة الانتماء إلى الله ، فهذا الشعور عنصر جوهرى ثمين فى الإسلام . والعزة كلها لله صاحبها ومصدرها ، والعزة لرسوله الذى اهتدى وهدى الناس للاعتزاز بالانتماء إلى الله ، والعزة للمؤمنين المعتزين بالله ورسول الله . إنه شعور هائل بالنبل والشرف يضع المسلم اليقظ فوق تهافت المتهافتين وحقارة الحقراء وصغار الصغار ، هو الإطار الذهبي الذى تلمع داخله فضائل الاسلام ، وحياة المسلم كلها إذا ضاع هذا الإطار - نتيجة فقدان الشعور بكرامة الانتماء إلى الله - انماعت وانبهمت فضائل المسلم وتعطلت فاعلية الحياة الإسلامية فى إيقاظ همة المسلم وتنبيه حيويته ، هذا الإطار أمر فريد خاص بالإسلام لا يشاركه فيه غيره ، وهو وحده الذى يمكن أن يفرق بصورة نوعية واضحة بين المسلمين وبين أتباع الملل والمذاهب والعقائد الأخرى دينية أو غير دينية . وهذا الشعور بالنبل الذى يشعر به المسلم السوى ، أبعد الأشياء عن الغرور والصلف والغطرسة والاستعلاء على الخلق وتجاهل الكون وازدراء الوجود ، إنه رفض تام لهوان الروح والعقل ، ومقاومة

كاملة شاملة للتعفن الداخلى - وإيجاباً - هو المسار الطبيعى الذى لايوجد مسار آخر سواه ، لولاء العقل والروح لله بإخلاص وشجاعة ولإصرارهما على هذا الولاء وشعورهما الدائم بهذا الولاء . هذا الشعور بالفعل هو ممارسة ومعايشة الإحساس العميق بالله فى حياة المسلم كلها ، أو هو التعلق المشغوف بهذا الإحساس العميق بالله فى الحياة كلها ، إنه هو هذا الولاء التام الفعال للمولى عز وجل يهتف باستمرار بصوت يزداد ارتفاعا فى وجدان المسلم بأن الدين عند الله الإسلام ، ليدفع وجدان المسلم السوى بعيداً عن الكبر والأنانية والانتصار للذات والبغى والظلم والشر ، ليجمعه على توابع الولاء لله ، أعنى الرحمة والتواضع والشجاعة والنصفة والحق والخير ، حيث لاتعصب ولا سرف ولا يتصور وجود التعصب أو السرف .

هذا الشعور بالنبل لا يفارقه قط النفور من السخف واللغو ، ومن الاستهتار وعدم المبالاة ، وهو نفور فطرى إلهى يشعر به العقل حين يمتلىء بقيمته وبإخلاصه للحق جل وعلا ، هو نفور يسميه الإسلام حياء ، يصد العاقل المسلم عن أن يصدر منه شىء عن عدم إخلاص أو عدم رشد ، أو عن ابتذال مقصود أو غير مقصود لنور العقل ونزاهته ، أو عن غفلة مقصودة أو غير مقصودة عن حضور الله ونظامه فينا وفى الكون كله . هذا النفور الفطرى الإلهى نعمة من نعمه عز وجل تختلف فيها حظوظ العباد وتتفاوت أرزاقهم منها . ومن حرم منها كلية لا إسلام له ، إذ لا قيد عليه من داخله ، وهو بعد مهجور مطرود متروك وشأنه يصنع فى نفسه ما يشاء ما دام لا يستحى ، كما جاء فى الأثر .

إن هذا ينقلنا إلى ميدان فسيح أهمله العلم الوضعى حتى الآن ، وهو ميدان الحكمة ، أعنى تلك اليقظة إلى العناية بالأمور الأساسية فى حياة الإنسان التى تقع نظراً لثباتها ، خارج مجال اختلاف الأذواق والمشارب والآراء والأفكار ، تلك اليقظة الهادئة التى يعطينا إياها الوعى والالتفات إلى قيمة الإنسان ومسئولية الإنسان والحرص على التعامل والتعاون ، بفهم وإحساس مع الحياة باعتبار الحياة شيئاً جليلا باقياً بعدنا إلى ما شاء الله عز وجل . فى ميدان الحكمه يتلاقى الحس والحدس والبرهان ، ويمتزج العقل والقلب ، وتتعايش الأخلاق والمعارف

والقيم والقضايا والمبادىء والحلول والسلوك والفكر ، ويسترد الإنسان وحدة وجدانه التى يشتتها ـ بعيداً عن الحكمة ـ الاستسلام للانقسام والانفصال والاعتراك والتصارع .

وزماننا وإن كان غاصا بالمعتقدات والمصدقات ، إلا أن معتقداته ومصدقاته ليست صوراً وكيفيات للتعلق بالحكمة والإيمان بقيمتها وتقديسها ، بل هى فى الأغلب صور وكيفيات لابتعاده عن الحكمة وكفره بها ورفضه إياها ، تغذى لدى الآدمى وتشجع وتستكثر وتنمى الفجاجة والغرور والاندفاع والحول وتوقف النمو العقلى والعاطفى وبغض هذا النمو والسخرية منه والاستهانة به

ليس من حقنا كسلمين أن نرفض زماننا ، ولا أن ندير ظهورنا إلى الحضارة الحالية ، ولكن من واجبنا أن نفهم ـ بإنصاف ـ مواضع النور والظلمة فى ذلك ، يجب ألا يفوتنا أن هذه الحضارة عنيدة وفيها ميل هائل نحو العناد والإصرار ، وهذا الميل فيها يزداد وضوحا كلما ازدادت انتشارا بين الكتل والجماهير . إن الحضارة الحالية تحب العناد والإصرار وتشجع العناد والإصرار وتدعو إلى التنافس فيهما ، هى تنظر إلى الهزيمة على أنها نقص فى العناد والإصرار ، وإلى الانتصار على أنه زيادة وتفوق فى العناد وفى الإصرار على الرغبة فى الانتصار ، إنما تؤمن بأن العناد والإصرار لا يقف دونهما شىء ولا ينبغى أن يقف دونهما شىء ، وهذا هو مكمن الخطر الذى يتهدد مصير الإنسان . فإن هذا الإيمان المتزايد بالعناد ، مع قوى التدمير العلمية التى أصبحت بين أيدى الناس ، يجعل هلاك الأرض ومن عليها خطراً حالا ، ويجعل الحكمة وإشاعة الحكمة وإعادة واهتمام الأفراد بها والالتفات إليها ، ضرورة بل مسألة حياة أو موت للناس أجمعين . وأى شىء غير الدين ـ إذا وفق الله أهله ـ يمكن أن يرد إلى الناس الإحساس بالفارق بين الثبات ، وهو الحكمة حين تميز الحكمة ما هو أساسى مهم عما هو عرضى ثانوى . وبين العناد المتهوس الغافل الذى يرفض أن يبصر ويرفض أن يستبصر ، ويتوقع أن يغلب بإصراره على عناده ، نواميس الوجود وينقض قوانين العقل .

ونحن نساعد هذا الميل إلى العناد الملازم للحضارة الغربية ـ بخداع أنفسنا وخداع بعضنا بعضا ـ فى دوامة الدعايات التى تملأ علينا أوقات اليقظة ، نحن نسمى الغرور كرامة ، والاندفاع انطلاقا ، والحول العاطفى والعقلى تطورا ، وننعت الحكمة والروية وضبط النفس بالجمود والاستسلام ومعاداة التقدم . لن تكسب الدعوات الإسلامية الحديثة شيئاً من الدخول فى تلك الدوامة المدمرة التى تقدم العلف للغرور والمزيد من اللهب للاندفاع ، والتى توقظ وتوهج الخلافات القديمة والحديثة لزيادة الحَوَل والفجاجة العاطفية والعقلية . هذا التلبيس الكثيف يجرى فى خط مضاد ومعارض للخط الرئيسى للدين ، وهو لا يتورع مع ذلك عن استغلال مصطلحات الدين ومعانيه بعد تحريفها عن مواضعها ، فيصف العناد بالإيمان ويصف الإصرار غير البصير وغير المستبصر بالإلهام !! .

ولكن الدعوات الإسلامية ينبغى ألا يداخلها أدنى شك فى أن هذا التلبيس برغم تفشيه وكثافته وطغيانه ، لا يمكن أن يغير حقائق الأشياء والوجود ، ولا أن يعدم نهائياً شوق الإنسان للنمو والنضج ، ولا أن يميت حنين الإنسان إلى الحكمة . إن أى آدمى متى تحقق له الهدوء الكافى ، ووجد من يثق فيه ويأتمنه ، قمين أن يسمع فى أعماقه هتاف ذلك الشوق ، وقمين أن يلبى هذا الهتاف ويستجيب له . إن مشكلة النفوس فى زماننا وفى كل زمن سابق أو لاحق ، هى دائماً مشكلة ثقة وأمانة وتنمية الثقة والأمانة ، وعلى الدعوات الإسلاميه الحديثة ومنها التقريب أن تواجه هذه المشكلة مباشرة وبغير مواربة ، وأن توقن أنها ستكسب حتما ويكسب معها الإسلام إذا أبعدت نفسها عن ذلك التلبيس وتلك الدوامة بوضوح وصراحة ووقفت بوضوح إلى جانب الحكمة وإعلاء كلمة الحكمة ، ودعوة الشباب إلى التعلق بها والحرص عليها بما تشهدهم من نماذج إنسانية إسلامية حية موجودة بالفعل تحقق فيها النمو والنضج العقلى والعاطفى ، واجتمع لديها الصبر والروية والاعتدال وضبط النفس والإخلاص لما تعتقد أنه الحق والخير ، وأعلنت على الملأ بسلوكها الناضج المخلص الحكيم . أن « من يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » .

يسر الإسلام وسماحته

للأستاذ عبد السميع البطل
عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - بالقاهرة

القرآن أساس الدين المتين :

نزل القرآن الكريم على نبي أمي ، فى أمة أمية ، بلسان عربى مبين ، فكانوا يعتمدون فى فهمه على ما لديهم من ملكة البلاغة ، وسلامة الذوق ، وعلى بيان الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - لهم بالقول والعمل ، وهو ما نسميه : بالسنة المحمدية ، والهدى النبوى ، سواء فى العقائد ، أو الأحكام العملية .

فأما العقائد فكانت آيات الكتاب العزيز تنزل فى بيان صفات واجب الوجود من الوحدة والقدرة والإرادة ، والعلم والحكمة ، والسمع والبصر ، وهذه الصفات تذكر فى حشد من الآيات البينات ، فتغذى التوحيد ، وترتقى بأهله درجات من السمو الروحى ، وناهيك بذكر أسمائه الحسنى ممزوجة ببيان الأحكام الشرعية من الطهارة والإرث والأموال ، وبحكمة الخالق فى الخلق والتدبير ، وسننه فى طبائع البشر ، ووضع كل اسم من أسمائه تعالى فى موضعه من الآيات ، ولا سيما ختامها من علم وحكمة ، وقدرة وإرادة ، وحلم وعفو ومغفرة ، وحب ورضا وما يقابل ذلك ، دع ما سرد منها سردا لجذب الأرواح العالية إلى كماله المطلق ، وفنائها فى شهوده عن شهودها ، بله أهوائها وشهواتها كما تراه فى سورة الحديد : « سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . له ملك السموات والأرض يحي ويميت وهو على كل شيء قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » وكما فى آخر سورة الحشر : « هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن

العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » فهذه الأسماء الإلهية هى ينابيع الحياة الروحية فى القلوب ، ومشرق أنوار المعارف الإلهية على العقول ، ومنها استمد العارفون ، والأئمة الربانيون ، تلك الحكم السامية ، والكتب العالية ، فى معرفته تعالى وأسرار خلقه .

وهذا هو الغرض الأول من أمر القرآن المؤمنين بذكر الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ليكون الله تعالى غالباً على أمرهم ، فيمقتون الباطل والشر ويكون حظهم من الحياة الحق والخير .

كان الصحابة - رضوان الله عليهم - يتلون هذه الآيات ويتدبرونها ، فتهتز مشاعرهم لهذا الجلال ، وتفيض قلوبهم بالإيمان والإذعان والتسليم .

وهذه الطريقة - طريقة القرآن فى الاستدلال - أقرب إلى الفطرة ، وأقوم فى مخاطبة العقل ، وأرسخ فى النفس ، من طريق البراهين الفلسفية ، والأقيسة اليونانية التى فتن بها المتأخرون مع أنها تبعد عن القلب التأثر بآيات الله وصنعه فى خلقه ، فياليتنا نحييها من جديد ونجدد بها سنة السلف فى درس التوحيد .

وعلى هذه السنة فى إثبات صفات الله ممزوجة بأدلتها العقلية التى يلمسها من ينظر إلى سنن الله فى خلقه نظر تعقل وتدبر يثبت القرآن عقيدة البعث والجزاء ، وهو فى ذلك لا يبعد بالفكر فى أجواء سحيقة حين يتحدث عن الحياة الثانية ، بل يخاطب العقل بما لا يستطيع إنكاره ، فالذى بدأ الخلق أول مرة يقدر على إعادتهم ، لأن الإعادة فى العادة أيسر من البداية ، وإن كان كل شىء على الله يسيرا ، يقول تعالى : « كما بدأكم تعودون » ويقول : « أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى ، وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » ويقول : « بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب . أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد » وهكذا نرى القرآن يردد هذا المعنى

فى عشرات الآيات ، ليقتلع عقيدة إنكار البعث التى استكبرها الناس وظنوها ضرباً من المحال .

وهاتان العقيدتان : عقيدة إثبات الوحدة لله ، وإثبات الحياة الآخرة بعد الحياة الدنيا ، ليلقى فيها كل جزاءه ، هما أساس دين الله الذى بعث لأجله الرسل وأنزل الكتب ، وشرع الشرائع ، وهما اللتان ضل فيهما أكثر الناس ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك .

هذه طريقة القرآن فى عرض العقائد ، وهى طريقة سهلة لا تعقيد فيها ، يفهمها البدوى راعى الغنم ، ويقبلها الحضرى الذى لم تلوث التقاليد والعقائد الموروثة فطرته ، ولا يمارى فيها الفيلسوف الذى لا يؤمن إلا بالعقل والنظر ، لذلك سرت فى الأمة العربية مسرى الماء المنحدر ، وأخرجتها فى زمن وجيز من جمودها وتحجرها وإسفاف عقلها إلى باحة الحرية ، وسماحة النفس ، ورجاحة العقل ، وصحة الحكم ، ولا يرفع الإنسانية من وهدتها مثل معرفة الله والإذعان بأنه وحده المؤثر فى الموجودات كلها ، وليس له شريك ولا مشير ، الخلق كلهم عبيده ، وهو صاحب النهى والأمر والتصرف الكامل ، وأن الرسل والأنبياء ، وفى مقدمتهم خاتمهم عليه وعليهم الصلاة والسلام لا يعلمون غيباً ولا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعاً ولا ضراً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا .

هذه العقيدة هى التى هونت الحياة على المسلمين الأولين ، فباعوا نفوساً تموت غداً ، بنفوس تحيا أبدا ، وهى سر عظمتهم وهيبتهم ، فكانوا ينصرون بالرعب ، قبل أن ينصروا بالسيف والرمح .

هذه الطريقة فى فهم العقيدة هى أرسخ العقائد وأقواها ، لا تزعزعها هوج الرياح ، ولا تميل بها أعاصير الأباطيل ، يفهمون النصوص على ظواهرها بلا تأويل ويمرون على ما تشابه منها مرورا ، مفوضين حقيقتها إلى الله الذى « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » « ولم يكن له كفواً أحد » ويقولون : « آمنا به كل من عند

ربنا ، وبذلك لم يضيعوا وقتهم سدى ، ولم يردوا مورداً لا يحسنون الصدور منه ، فسلمت لهم عقيدتهم ، وبقيت لهم وحدتهم .

طريقة فهمهم للعبادات :

وأما فى العبادة فكانوا متبعين لعمل الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يعملون ما يعمل ، ويتركون ما يترك ، وكان يعلمهم بالعمل والقول ، فيقول : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » ويقول : « خذوا عنى مناسككم » ويقول : « إيتونى بوضوء لأتوضأ لكم » وهذا من التعليم التجريبى « كما يقال فى عرف هذا العصر » وقد يكون تعليمه نظريا كتعليمه للرجل المسىء صلاته ، الذى قال له حين رآه لا يحسن الصلاة: « ارجع فصل فإنك لم تصل » ثلاث مرات ، ثم قال له : « إذا قمت إلى الصلاة فكبر ، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن » إلى آخر الحديث وهو مشهور ، ولم يكونوا يخرجون عن سنته قيد شعرة ، فإذا أشكل على أحدهم فهم شىء وسأل عنه الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يجيبه عما سأل ، وكان يبيح لهم الاجتهاد فيما يكون مظنة الاجتهاد ، ويقرهم على اجتهادهم وفهمهم ، وذلك كنهيه عليه الصلاة والسلام أصحابه عن صلاة العصر إلا فى بنى قريظة ، وكان ذلك عقب الفراغ من غزوة الخندق ، ولم يكن أصحابه استراحوا منها ، فنزل جبريل عليه السلام بالأمر بالغزو ، فقال عليه الصلاة والسلام : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة » يريد سرعة مباغتتهم ، فبعضهم أخذ النص على ظاهره ، ولم يصل العصر إلا بعد وصوله . وقد فاتته الصلاة فى وقتها لأنه أخذ بمنطوق الحديث ، وبعضهم صلاها فى الطريق حين حل وقتها ، وأدرك الآخرين ، لأنه فهم من النهى عدم التخلف عن الخروج ، ولم يعنف النبى صلى الله عليه وسلم أحداً ، ولا خطأ اجتهاده .

كان كل همهم من العبادة الاتباع والإخلاص ، لا يختلفون فى سنة ولا فرض ، ولا فى شرط ولا ركن .

انقضى ذلك العصر الذهبى للإسلام ، وكان عصر تعليم وتركيز للعقيدة ، كما كان

عصر غزو وفتح لحماية الدعوة والقضاء على الواقفين فى سبيلها ، لتكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الباطل هى السفلى ، وقد أبلوا فى ذلك بلاء حسنا سجله لهم التاريخ بمداد من النور ، وتركوا لنا ذلك الهدى النبوى : كتاب الله وسنة رسوله .

عصر التابعين ومن بعدهم :

فلننظر إلى العصر الثانى عصر التابعين ، وما بعده لنرى ما آل إليه الأمر ، هل ظللنا على المنهج ، أم انحرف بنا الطريق ، وكيف نشأ ذلك ، وما أسباب هذا التقحم فى المهالك بعد السبيل المهيع ؟ .

غبر التابعون على هدى من سلفهم ، مهتدين بالقرآن والسنة ، مجتهدين فيما ليس فيه نص قطعى : يفعل ذلك أولو الأمر من الأئمة والقضاة ، وقواد الجيوش فى الأحكام العامة ، كما يفعله الواحد لنفسه إذا احتاج إلى حكم لا نص فيه .

ولا ننسى أن من المراجع التى كانوا يرجعون إليها بعد كتاب الله وسنة رسوله كتاب عمر فى القضاء ، وكتاب على للأشتر النخعى فى السياسة .

وقد ترك لنا هذا العصر كثيراً من سنن الهدى فى العبادات والأحكام القضائية والإدارية ملئت بها كتب السلف ، وكانت مرجعاً لمن بعدهم إلى اليوم .

عصر العلم والتدوين :

ثم جاء العصر الذى استبحر فيه العمران ، واتسع ملك المسلمين ، ودخلت فيه أمم ورثت علوماً وفنوناً ، كانت بها أرقى من العرب فى هذه النواحى ، وكان على العرب أن يستفيدوا من ذلك حتى لا يكون الغالب أقل من المغلوب ثقافة ، ولأن الدولة قد استد ساعدها ، واستحصدت مرتها ، والعلوم والفنون من أسس الحضارة ، ولا تقوم دولة بدونها ، لهذا شجع الخلفاء والأمراء النهضة العلمية وكافئوا المؤلفين والمترجمين الذين نشطوا فى ترجمة ما وصل إليه العقل البشرى من ثمار المعارف ، فذخرت المدن الإسلامية بالعلماء والمؤلفين والمترجمين ، ولا سيما بغداد فى عصر الرشيد والمأمون ، وحذت أمهات المدن حذو بغداد ،

وانتقلت هذه الحركة إلى ديار الغرب ، وسارت الأندلس ومدن أوربة فى هذا المضمار ، وأقبل العرب على هذه العلوم الجديدة يعبون منها عبا ، ويرتوون منها نهلا وعللا ، ولم يمض جيل حتى استقل العرب بهذه العلوم والفنون وعصروها ، وأصلحوا أخطاء الواضعين لها ، وزادوا عليها من ثمرات قرائحهم .

كان من طبيعة العمران أن تصبح علوم الدين والدنيا فنوناً صناعية ، وأن يظهر التخصص فى كل علم وفن ، وكل ذلك حسن ، ولكن الأحسن أن تكون هذه العلوم كلها خادمة للقرآن ، تحيط به وتدافع عنه ، وأن تكون مرقاة لفهمه والتبحر فى علومه ، حتى يأخذ بحجزها عن التقحم فى الجدل والنقاش الذى لا يتناهى ، والذى أفسد على المسلمين أمرهم وجعلهم شيعاً وأحزاباً ، متنكبين هدى القرآن فى جمعهم ، والمحافظة على وحدتهم .

نعم ، إن الإسلام دين الحرية والبحث والنظر ، وقد أباح ، بل أوجب على أهله أن ينظروا ويتدبروا ويعملوا عقولهم فيما تصل إليه أفهامهم دون ما ليس فى مقدورهم ، وهو كلام الله القطعى الرواية ، وأما ما كان ظنى الدلالة من الآيات أو ظنى الرواية أو الدلالة من الأحاديث ، فقد أباح لهم النظر فيه بشرط ألا يكون الاختلاف سبباً لتفرق الكلمة ، وتحكيم الأهواء ، وضرب المسلمين بعضهم ببعض .

ولكن المسلمين اختلفوا . وإذا كان الخلاف من طبيعة البشر ، ضرورة اختلاف العقول والميول والبيئات والثقافة ، فيجب ألا يخرج الخلاف بالمختلفين عن وحدة الأمة الجامعة ، بل يقدر بعضهم بعضا مع احترام كل لرأى الآخر ، وعدم تحقيره ، أو التشهير به ، بذلك تستبحر العلوم والفنون ، وتظل للأمة وحدتها ، ويظل للعلم والعلماء الاحترام ، وتقدير بعضهم لبعض ، لأن الجميع يعملون فى ميدان واحد ، وكل واحد يؤخذ من قوله ويرد ، كما قال الإمام مالك : كل واحد يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذه الحجرة ، ويشير إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن هذا الاختلاف فتح بابا ، بل أبوابا للابتداع فى الدين ، بل للقول على الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، فأصبحت السنة بدعة ينكر

على فاعلها ، ويشهر بمن يدعو إليها ، وصارت البدعة هى السنة التى يرضى عنها ويسكت عليها .

اختلاف الأئمة رحمة :

كلمة جرت مجرى الأمثال ، نعم ، كان يجب أن يكون اختلاف الأئمة رحمة بالأمة ، فإمام يضيق فى بعض المسائل ، وآخر يوسع ، لا تبعاً للهوى ، بل جريا وراء الدليل ، ولكل وجهة هو موليها ، فمن ييسر يعمل بقوله من لا يستطيع الأخذ بكل العزائم ، ومن يلحقه عذر من مرض أو سفر مثلا يجد له مندوحة من الضيق ومخرجا ، ومن يطيق العمل بكل العزائم فسبيله العمل ، ولا يمنعه مانع ما لم يخرجه تشدده عما رسمه صاحب الشريعة ، بهذا يظهر يسر الإسلام ورفعه الحرج عن المكلفين ، ولكن الأمر جاء على خلاف ذلك ، فالخلاف الذى نهى الله عنه بقوله فى سورة آل عمران : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » وقوله فى سورة الأنعام : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » وقوله فى سورة الشورى: « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذين أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » وغيرها من الآيات البينات ، الآمرة بالوحدة ، الناهية عن الفرقة كثير . هذا الخلاف الذى نهينا عنه نهياً قاطعا فى أكثر من آية لم يكن رحمة ، بل كان نقمة أى نقمة ، لأن المختلفين استغلوا هذا الاختلاف فى التعصب لمذاهبهم ، وحرموا على غيرهم أن يقلدوا غيرها ولو للحاجة إليه ، وجر ذلك إلى طعن بعضهم فى بعض ، ورد بعضهم قول بعض ، لا بالحجة والإقناع ، بل بالهوى الأعمى الأصم ، وقد يعرضون عن الدليل من القرآن أو السنة الصحيحة فى سبيل التعصب للمذهب ، ناسين أو متناسين أن الإسلام دين يسر لا عسر ، وأنه دين العقل والنظر ، وأنه دين اتباع لا ابتداع ، قال تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » ، وقال : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » والرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ما خير بين شيئين إلا اختار أيسرهما ، ما لم يكن

إثما ، كما روت عائشة ـ رضى الله عنها ـ وروى أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن أعرابياً بال بالمسجد ، فثار عليه الناس ليضربوه ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : « دعوه وصبوا على بوله دلوا من ماء ، فإنما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين » .

وفى باب الاستعانة فى الصلاة من كتاب البخارى ، عن أبى برزة الأسلمى ـ رضى الله عنه ـ أنه صلى يوما ، وكان مع أصحابه فى غزوة ، وكان لجام فرسه فى يده فجعلت الفرس تجذبه إلى الأمام ، وجعل هو يتبعها ، فلما فرغ من صلاته سألوه عن عمله هذا فقال : إنى غزوت سبع غزوات مع رسول صلى الله عليه وسلم وشهدت تيسيره ، وإنى وإن كنت أن أرجع مع دابتى أحب إلى من أن أتركها ترجع إلى مكانها الذى ألفته ، فيشق على رجوعى بدونها . قال الحافظ ابن حجر : إن أبا برزة كان وهو يصلى ممسكا بزمام فرسه ، فنازعته متجهة إلى جهة القبلة ببطء ، فكان يلاحقها ، فمشيه معها لم يكن كثيراً ، بل عمل يسير ليس فيه استدبار للقبلة ، فلا يضره . اهـ .

أقول : هـذا هو الفقه الذى تتسع له عقول المتحررين ، وتضيق به أفـكار الجامدين ، الذين ضيقوا الخناق على الناس حتى زهدوهم فى الدين ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وسنرى كثيراً من أمثال هذه الفتوى .

ويا لله للعجب ، إن التعصب بلغ بالكثير منهم ألا يصلى خلف إمام يخالف مذهبه ، كأن اختلاف المذاهب الذى هو رحمة للأمة صار اختلافا فى أصل الدين .

ذكر المرحوم السيد رشيد رضا فى مقدمته لـكتاب المغنى لابن قدامة الحنبلى ، وهو من أجل كتب الفقه : وقد بلغ من إيذاء بعض المتعصبين لبعض فى طرابلس الشام فى آخر القرن الثالث عشر الهجرى أن ذهب بعض شيوخ الشافعية إلى المفتى وهو رئيس العلماء ، وقال له : اقسم المساجد بيننا وبين الحنفية ، لأن فلاناً من فقهائهم يعتبرنا كأهل الذمة ، بما أذاع فى هـذه الأيام من اختلاف الأحناف ، فى هل يجوز للحنفى أن يتزوج شافعية ؟ فقال بعض الأحناف : لا يصح ، لأنها

تشك فى إيمانها ، لأن الشافعية يجيزون أن يقول المسلم : أنا مؤمن إن شاء الله ، أى وهذا يدل على عدم تيقنها فى إيمانها ، والإيمان لا بد فيه من اليقين ، وقال بعضهم : يجوز للحنفى أن يتزوج الشافعية حتى لو كانت شاكة فى إيمانها قياساً على الذمية . اهـ .

أرأيت كيف انحدر بعض المتعصبين إلى هذه الهاوية ؟ جاهلين رحابة الإسلام وتيسيره على الناس ، أرأيت كيف يتهجمون على القول بالتحليل والتحريم ، والتكفير والتضليل ؟ وانظر إلى السلف الصالح ومسلكهم الحسن ، كان الواحد منهم إذا سئل عن مسألة يقول : أكره كذا ، أو أخشى أن يكون كذا ، أو لا ينبغى أولا يعجبنى ويقول فى مقابل ذلك : يعجبنى كذا أو هذا أحسن

مسائل يسرها الدين :

من أحكام الحج الميسرة :

(١) أباح ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لمن لم يجد إزاراً أن يلبس السراويل ، ولمن لم يجد نعلين أن يلبس الخفين .

(٢) روى عن عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمرو بن العاص : أن الناس وقفوا عقب خطبة الرسول يوم النحر يسألون ، فقال رجل : لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح ، فقال : اذبح ولا حرج .

(٣) وقال آخر : لم أعلم فحلقت قبل أن أرمى ، وآخر نحرت قبل أن أرمى ، وآخر أفضت قبل أن أرمى ، فقال فى كل ذلك : ارم ولا حرج .

(٤) وقال رجل : أفضت قبل أن أحلق ، فقال لاحرج . وقال آخر : أفضت قبل أن أذبح ، وآخر رميت بعد أن أمسيت ، فقال لكل منهما : لا بأس .

قال ابن عمرو بن العاص : فما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ عن شىء قدم أو أخر إلا قال : افعل ولا حرج ، ذكر ذلك فى فتح البارى .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : لاحرج إلا على رجل اقترض عرض مسلم وهو ظالم ، فذلك الذى حرج . أى أن الإثم والحرج على من يغتاب مسلما .

وقال شارح الإقناع الحنبلي بعد كلام : قلت : وعلى هذا يحمل حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا وطىء الأذى بخفيه فطهورهما التراب » رواه أحمد وأبو داود من رواية محمد بن عجلان وهو ثقة ، روى له مسلم ، ولأنه عليه الصلاة والسلام هو وأصحابه كانوا يصلون فى نعالهم ، والظاهر أنها لا تسلم من نجاسة تصيبها ، فلولا أن دلكها يجزى لما صحت الصلاة فيها ، ولأنه محل يتكرر إصابة النجاسة له ، فعفى عنه بعد الدلك كالسبيلين . وقال ابن قدامة المقدسى فى كتاب ذم الموسوسين والتحذير من الوسوسة : ومن ذلك « يعنى أشياء سهل فيها النبي صلى الله عليه وسلم ، وشدد فيها بعض الفقهاء » الصلاة فى الخفين والنعلين ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يصلون فى نعالهم ، وساق النصوص الواردة فى ذلك .

وقال ابن القيم فى إغاثة اللهفان : وتأويل ذلك على مايستقذر من مخاط أو نحوه من الطاهرات لا يصح لوجوه : أحدها : أن ذلك لا يسمى خبثا . الثانى : أن ذلك لا يوقت بمسحه عند الصلاة ، فإنه لا يبطلها . الثالث : أنه لا يخلع النعل لذلك فى الصلاة ، فإنه عمل لغير حاجة ، فأقل أحواله الكراهة . الرابع : أن الدارقطنى روى فى سننه فى حديث الخلع من رواية ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن جبريل أتانى فأخبرنى أن فيهما دم حلمة - والحلم : كبار القراد - ولأنه محل يتكرر ملاقاته النجاسة غالبا ، فأجزأ مسحه بالجامد كمحل الاستنجاء ، بل أولى فإن محل الاستجمار يلاقى النجاسة فى اليوم مرتين أو ثلاثا . اهـ .

ولابن تيمية فتوى جليلة فى هذا الموضوع ، ذكر فيها كل ما ورد فى هذا الباب جاء فيها : ولهذا كان النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه يصلون تارة فى نعالهم وتارة فى خفافهم ، وتارة حفاة ، كما فى سنن أبى داود والمسند عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه صلى فخلع نعليه ، فخلع الناس نعالهم ، فلما انصرف قال : لم خلعتم ؟ قالوا : رأيناك خلعت فخلعنا . قال : فإن جبريل أتانى فأخبرنى أن بهما خبثا ، فإذ أتى أحدكم المسجد فليقلب نعليه ، فإن

رأى خبثاً فليمسحها بالأرض ثم ليصل فيها ، ففي هذا بيان أن صلاتهم فى نعالهم ، وأن هذا كان يفعل فى المسجد إذ لم يكن يوطأ بهما على مفارش ، وأنه إذا رأى بنعليه أذى فإنه يمسحها بالأرض ويصلى فيهما ، ولا يحتاج إلى غسلهما ، ولا إلى نزعهما وقت الصلاة ووضع قدميه عليهما كما يفعله كثير من الناس ، وبهذا كله جاءت السنة ، ثم ساق حديث « خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون فى نعالهم ، ولا خفافهم » فقد أمرنا بمخالفة ذلك ، إذ هم ينزعون الخفاف والنعال عند الصلاة ، ويأتمون فيما يذكر عنهم بموسى عليه السلام حيث قيل له وقت المناجاة : « اخلع نعليك ، إنك بالوادى المقدس طوى » فنهينا عن التشبه بهم ، وأمرنا أن نصلى فى خفافنا ونعالنا ، وإن كان بهما أذى مسحناهما بالأرض . إلى أن قال : وهذا أصح قولى العلماء ، ومع أدلة السنة عليه هو مقتضى الاعتبار ، فإن هذا محل تتكرر ملاقاته للنجاسة ، فأجزأت الإزالة عنه بالجامد كالمخرجين ، فإنه يجزىء فيهما الاستجمار بالأحجار كما تواترت به السنة مع القدرة على الماء ، وقد أجمع المسلمون على جواز الاستجمار .

نكتفى بهذا القدر فى هذه المسألة ، ولدينا مزيد ، ومن لم يقتنع بكلام الله وكلام رسوله وما يراه أئمة الهدى فلا يقنعه شىء ، وقد كان يجب حمل هذه النصوص على الوجوب ، لولا أن فى بعضها تخييراً صرفها إلى الندب والاستحباب ، وأقل ما تفيده صحة الصلاه بالنعلين وأنها جائزة .

ربما يقول قائل : كيف نصلى بنعالنا ومساجدنا اليوم على ما نعرف ونشاهد : زرابى مبثوثة ، وخدم يكنسون وينظفون ، فإذا كانت مساجد السلف تسمح لهم بالصلاة فى نعالهم ، فإن من يحاول ذلك بمساجدنا اليوم يكون جزاؤه الضرب والطرد والتنكيل .

إذا قيل ذلك فلنا أن نقول : إننا لم نكلف الناس أن يصلوا بنعالهم فى مثل هذه المساجد التى وصفت ، ولماذا لا تكون مساجدنا كمساجد الصدر الأول ؟ أتظن أنها كما وصفت ، وفوق ما وصفت أجذب إلى المصلين من دواعى الإيمان الصحيح؛

إن الناس قد هجروا الصلاة هجرا غير جميل مع ما فى المساجد من المرغبات من النظافة والفرش وآلات التهوية فى الصيف ، فالواجب أن نربى الناس على الدين تربية عملية سليمة ، وإذ ذاك لا يهمهم أسجدوا على حصى أم على فرش ، بل إنهم ليتلذذون من وضع جباههم على الأرض خضوعا لله العلى الكبير ، أكثر من تلذذهم بوضعها على هذه الأبسطة الفاخرة .

الأرض كلها مساجد :

كان صلى الله عليه وآله وسلم يصلى حيثما أدركته الصلاة ، لا يتقيد بمكان ، قال ابن قدامة فى « ذم الموسوسين » وقال عليه الصلاة والسلام : « جعلت لى الأرض مسجداً وطهورا ، فحيثما أدركتك الصلاة فصل » وكان يصلى فى مرابض الغنم ويأمر بذلك ، قال ابن المنذر : أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على إباحة الصلاة فى مرابض الغنم إلا الشافعى فإنه قال : لا أكره ذلك إذا كان سليما من أبعارها . وقال ابن عمر : كانت الكلاب تقبل وتدبر وتبول فى المسجد ، ولم يكونوا يرون شيئاً فى ذلك . اهـ .

قلت : إن الآثار فى ذلك كثيرة ، وكلها صحيحة صريحة فى أن شريعة الإسلام أسمح الشرائع وأيسرها ، وأنه لولا تشدد كثير من مقلدة المذاهب وتصويرهم لها بصورة منفرة ، لكان إقبال الناس عليها عظيما . يقول ابن تيمية رحمه الله : أما الصلاة على السجاد بحيث يتحرى المصلى ذلك ، فلم تكن هذه سنة السلف من المهاجرين والأنصار ، ومن بعدهم من التابعين لهم بإحسان ، بل كانوا يصلون فى مسجده صلى الله عليه وسلم على الأرض لا يتخذ أحدهم سجادة يختص بالصلاة عليها . وقد روى أن عبد الرحمن بن مهدى لما قدم المدينة بسط سجادة ، فأمر مالك بحبسه ، فقيل له : إنه عبد الرحمن بن مهدى ، فقال : أما علمت أن بسط السجادة فى مسجدنا بدعة ؟ .

الأرض طاهرة :

قال ابن قدامة فى كتاب « ذم الوسوسة » روى أبو داود بإسناده ، عن امرأة من بنى عبد الأشهل قالت : قلت يا رسول الله ، إن لنا طريقاً إلى المسجد منتنة ،

فكيف نفعل إذا تطهرنا ؟ قال : أليس بعدها طريق تكون أطيب منها ؟ قالت : قلت : بلى ، قال : فهذه بهذه . وعن عبد الله بن مسعود قال : كنا لا نتوضأ من موطىء . وعن على رضى الله عنه : أنه خاض فى طين المطر ثم دخل المسجد فصلى ولم يغسل رجليه . وسئل ابن عباس رضى الله عنه عن الرجل يطأ العذرة فقال : إن كانت يابسة فليس بشىء ، وإن كانت رطبة غسل ما أصابه . وعن حفص أنه أقبل مع عبد الله بن عمر عامدين إلى المسجد ، قال : فلما انتهينا عدلت إلى المطهرة لأغسل قدمى من شىء فيهما ، أو من شىء أصابهما ، فقال : لا تفعل ، فإنك تطأ الموطىء الردىء ، ثم تطأ بعده الموطىء الطيب ، أو قال : النظيف ، فيكون ذلك طهورا ، فرضيت بذلك ، ودخلنا المسجد فصلينا جميعا . وعن أبى الشعثاء قال : كان ابن عمر يمشى بمنى فى الفرث والدماء اليابسة حافيا ثم يدخل المسجد فيصلى ، ولا يغسل قدميه . وعن عاصم الأحول قال : أتينا أبا العالية فدعونا بوضوء فقال : ما لكم ؟ ألستم متوضئين ؟ قلنا : بلى ، ولكن هذه الأقذار التى مررنا ، فقال : وطئتم على شىء رطب يعلق بأرجلكم ؟ قلنا : لا ، قال : فكيف بأشد من ذلك ؟ هذه الأقذار تجف فينسفها الريح فى رؤوسكم ولحاكم . اهـ . ونقله ابن القيم فى إغاثة اللهفان ، ونقل بعضه السيد صديق خان فى شرح بلوغ المرام .

أرأيت هذه النقول الحسنة ، والنصوص الصحيحة الصريحة ؟ إن ناساً كثيرين أهدروها ولم يعبئوا بها ، ذاهبين إلى ماجروا عليه هم وآباؤهم ، فإذا صليت بنعليك أمامهم ، أو مسحت على الجوربين ، أو مشيت حافيا ثم رأوك تصلى ، فإنهم يضللونك ، ويرمونك بالابتداع والزندقة ، وأعقلهم يتهمك بالتساهل فى دينك وعدم الأخذ له بقوة .

أعرف أستاذاً جرت له حادثة من هذا القبيل وإليكها :

كان ببلدهم ، وكان يزور أحد وجهاء البلد ، وقد أدركته صلاة العصر ، فقام وصلى بنعليه ، وكان غرضه إحياء تلك السنة التى أماتها الناس بالترك ، ليوجه أنظار الناس إلى عمل كهذا ليناقشوه فيه ، فيقنعهم بجوازه - بله - استحبابه ، ولكن الناس

سلقوه بألسنة حداد ، وتناقلوا الحادثة إلى البلاد المجاورة لهم ، فأصبحت شغل الناس الشاغل ، وحديثهم فى كل ناد وسامر ، فلجأ إلى استفتاء علماء العصر ، وكتب استفتاء قدمه إلى علماء الاسكندرية وكانت صيغة الاستفتاء مزدحمة بالأدلة التى لا تخرج عما قدمناه ، قال : ولما قيل له : « إن ما ذكرت من الأدلة خاص ببلاد العرب الرملية ، قال : إن الدين صالح لكل زمان ومكان ، ولم يأت دليل على الخصوص ، على أن بلاد الحجاز كغيرها من سائر البلاد ، وإلا فلا معنى لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « فإن وجد بها خبثا » الخ . فإن الحديث يدل على أنها كانت كغيرها فيها أقذار ، وكيف وهم كانوا يقتنون الخيل والبغال والجمال والغنم وغيرها على أن الأمر وراء ذلك وهو مخالفة اليهود ، ثم قال : ويؤيد ذلك أن سادتنا وعلماءنا فى مشيخة الاسكندرية يصلون على الجنازة بنعالهم ، ومعلوم أن صلاة الجنازة يشترط لها ما يشترط لسائر الصلوات ، فلولا أن ذلك جائز لما أقدم عليه علماؤنا .

كان ذلك بمجلس حافل بالعلماء ، وفيه الشيخ أبو الفضل الجيزاوى ، وكان شيخا لعلماء الاسكندرية ، ثم صار شيخا للأزهر ، وقد أجاب على الفتوى المشايخ : محمد تاج الدين ، ورزق الزلبانى ، ومصطفى الجزيرى ، ومحمود حسن حمدان ، ومأمون الشناوى الذى صار شيخ الأزهر ، ومحمد على القاضى الطهاوى . فجزاهم الله خيرا ، وأثابهم على نصرتهم للحق .

ويعجبنى أنه لما عرض الاستفتاء على السادة العلماء قال الشيخ تاج الدين : وأى فتوى تريد بعد فتوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : إن هذا الحكم يعرفه المبتدئون فى طلب العلم ، ولما أراد أن يمضى على الفتوى قال للشيخ الزلبانى : ألا يحسن أن نكتب جملة من كتاب تكون كالدليل لما نقول ؟ كما جرت العادة ، فقال له : وماذا نكتب بعد الذى ورد فى السؤال أو ماهذا معناه . فحيا الله العلماء المنصفين ، وجزاهم خيرا ، وأكثر من أمثالهم .

أكتفى بهذا القدر الآن فى هذا الموضوع ، وأرى أننى لم أوفه حقه من البحث لأنه موضوع شائك ويحتاج إلى تفصيل أوسع ، ومناقشات أعرض ، لأنه موضوع الإسلام ، وأساسه اليسر ورفع الحرج ، ولا بد للباحث فيه أن يعرض لعناصر كثيرة ، منها :

كيف دخل الحرج على المسلمين وهو ليس من دينهم ؟ .

وما العوامل السياسية والاجتماعية التى سهلت دخول الحرج ؟ .

وكيف كان العلماء المستقلون يقاومون الجمود ، ويعرضون أنفسهم لأذى العامة وأشباه العامة ؟ .

وكيف كان للسياسة أصابع خفية فى هذه النكسة العلمية ؟ .

وما الواجب عمله على أهل الاستقلال العلمى ؟ .

وكيف يحفظون دينهم وشبابهم من الانحلال ؟ .

إلى عشرات من هذه الأسئلة .

وموعدنا فى الكتابة عن ذلك فرصة أخرى إن أمهلنا الزمان ، وساعدنا الرحمن ، وهو الموفق للصواب ، وملهم الخير ، وإليه ترجع الأمور ؟

رجاء من التقريب

إلى الكتاب والباحثين

---

١ — نرجو من الكاتب الإسلامى أن يحاسب نفسه قبل أن يخط أى كلمة، وأن يتصور أمامه حالة المسلمين وما هم عليه من تفرق أدَّى بهم إلى حضيض البؤس والشقاء وما نتج عن تسمم الأفكار من آثار تساعد على انتشار اللادينية والإلحاد.

٢ — ونرجو من الباحث المحقق - إن شاء الكتابة عن أية طائفة من الطوائف الإسلامية - أن يتحرى الحقيقة فى الكلام عن عقائدها، ولا يعتمد إلا على المراجع المعتبرة عندها، وأن يتجنب الأخذ بالشائعات وتحميل وزرها لمن تبرأ منها، وألا يأخذ معتقداتها من مخالفيها.

٣ — ونرجو من الذين يحبون أن يجادلوا عن آرائهم أو مذاهبهم أن يكون جدالهم بالتى هى أحسن، وألا يجرحوا شعور غيرهم، حتى يمهدوا لهم سبيل الاطلاع على ما يكتبون، فإن ذلك أولى بهم، وأجدى عليهم، وأحفظ للمودة بينهم وبين إخوانهم.

٤ — من المعروف أن «سياسة الحكم والحكام» كثيراً ما تدخلت قديما فى الشئون الدينية، فأفسدت الدين وأثارت الخلافات لا لشىء إلا لصالح الحاكمين، وتثبيتاً لأقدامهم، وأنهم سخّروا - مع الأسف - بعض الأقلام فى هذه الأغراض، وقد ذهب الحكام وانقرضوا، بيد أن آثار الأقلام لا تزال باقية، تؤثر فى العقول أثرها، وتعمل عملها فعلينا أن نقدر ذلك، وأن نأخذ الأمر فيه بمنتهى الحذر والحيطة.

** ** **

وعلى الجملة نرجو ألا يأخذ أحدٌ القلم، إلا وهو يحسب حساب العقول المستنيرة، ويقدم مصلحة الإسلام والمسلمين على كل اعتبار.

من القانون الأساسى لجماعة التقريب

المادة الثانية

أغراض الجماعة هى : —

ا — العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية ، الطوائف الإسلامية ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الإيمان بها .

ب — نشر المبادىء الإسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

ج — السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

فهرس



رجب سنة ١٣٨٩ هـ — سبتمبر ١٩٦٩ م

رئيس التحرير على السيد الجندى • مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى

الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة - تليفون ٨٠٤٦٨٩

قيمة الاشتراك فى السنة للأفراد : خمسون قرشا مصريا، أو ما يعادلها

مطبعة مخيمر تليفون ٩٠١١٩٣